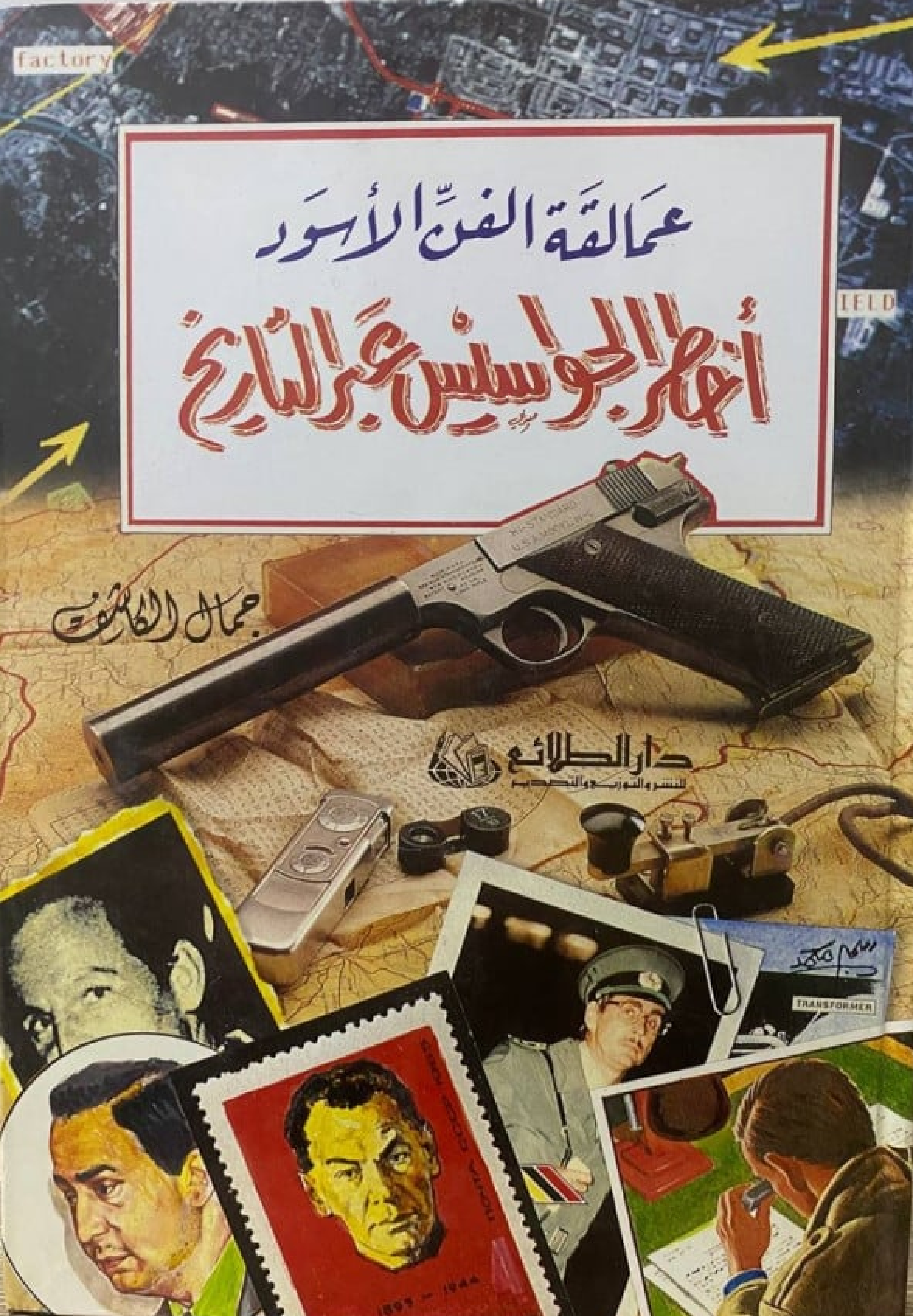


factory
عمالقة الفن الأسود
أخطر الجواسيس عبر التاريخ
جمال الكاشف
دار الطلائع
للنشر والتوزيع والتصدير
TRANSFORMER

عمالقة الفن الأسود

أخطر الجواسيس عبر التاريخ

جمال الكاشف



اسم الكتاب

أخطر الجواسيس
عبر التاريخ

اسم المؤلف

جمال الكاشف

رقم الإيداع

١٩٩٧/٤٩٧٢
977 - 277 - 100 -4

تصميم الغلاف

إبراهيم محمد إبراهيم



للنشر والتوزيع والتصدير

٥٩ شارع عبد الحكيم الرفاعى - مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٧٤٤٦٤٢ - ٦٣٨٩٣٧٢(٢٠٢) فاكس : ٦٣٨٠٤٨٣(٢٠٢)
Web site : www.altalae.com E-mail : info@altalae.com

طبع بمطابع ابن سينا بالقاهرة ت : ٣٢٠٩٧٢٨ فاكس : ٦٣٨٠٤٨٣

مقدمة

التجسس هو عملية رى ظمأ الفضول ، وإشباع حب الاستطلاع ، وهو نزعة فطرية تهدف إلى جمع المعلومات ، وكشف الأسرار مدنية كانت أو عسكرية عن طريق : البحث ، والتقصى ، والملاحظة ، والتحرى ، والاستعلام ، وسرقة الوثائق ، وتصوير المستندات والتقارير ، والاستحكامات والمشروعات والمعسكرات والأسلحة والمنشآت ، وغير ذلك من الأساليب العلنية المباحة ، والوسائل الممنوعة التى يعتبر ارتكابها : إما جريمة تنحط إلي وهدة الخيانة العظمى وتنتهي بحياة مرتكبها أحيانا إلى الإعدام ، وإما بطولة ترتفع بصاحبها إلى مراتب التكريم والتمجيد ، فالجاسوس واحد من اثنين : إما خائن ، وإما بطل .

والتجسس عمل مذموم ، سواء كان موجها ضد فرد أو جماعة أو دولة .. جريمة لا تغتفر إذا كانت الدولة المجنى عليها هى الوطن . يذكر المؤرخون أن التجسس ثانى أحقر مهنة فى العالم . وقد نهى عنه الله سبحانه فى قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ [**الحجرات** : ١٢]

استهجنته معظم المجتمعات . واختلفت شدة ازدرائه بين مجتمع وآخر ، حسب نوع الضوابط الاجتماعية السائدة . مجتمعات تعتبره عملاً وضيعاً حقيراً ، وأخرى تؤمن بأن الجاسوسية خدمة سامية . والتجسس داخل الإطار المحلى كريه بكل المقاييس ، فما يزال التاريخ القريب يذكر فضيحة «**ووتر جيت**» ، التى أنهت حكم الرئيس الأمريكى «**نيكسون**» ، لتجسسه على الحزب المعارض .

والتجسس ليس شراً مطلقاً . فهو في معظم الأحوال خدمة وطنية جليلة لا يتقنها إلا الشجعان المغامرون الأذكياء ، الذين أوتوا قدراً فذاً من الجرأة والتضحية وقوة الشكيمة . وهؤلاء يفوزون بتكريم حكوماتهم وتخليد شعوبهم ، بقدر ما يستمطرون لعنات أعدائهم .. صاح الجاسوس الأمريكي «**ناثان هيل**» قبل إعدامه بواسطة الإنجليز قائلاً : «يؤسفنى ألا أملك سوى

حياة واحدة أقدمها لبلدى» وما تزال هذه العبارة تتردد سنويا فى حفلات ذكرى إعدامه منذ خمدت نيران حرب ثورة تحرير أمريكا . ومن الطبيعى أن يختلف تماماً رأى الإنجليز فى «**ناثان هيل**» فيمطرونه باللعنات ، نظراً لكثرة عدد الجنود البريطانيين الذين أبيدوا نتيجة لعمليات الجاسوسية والمعلومات التى جمعها «**ناثان**» للجنرال «**جورج واشنطن**» . مثل هذا يقال عن الجاسوس الروسى «**ريتشارد سورج**» ، الذى كرمته روسيا بإصدار طابع بريد باسمه تخليدا لذكراه ، بعد ٢٥ سنة من إعدامه بواسطة اليابانيين .

ولأن كلمة «التجسس» ما تزال كريهة منفرة ، تلجأ منظمات الجاسوسية إلى انتحال اسم «وكالة المخابرات» ، ويفضل الجاسوس تسمية نفسه «ضابط مخابرات» فى النطاق الرسمى ، ولا يفصح عن مهنته للآخرين ، حتى لا يفقد صلاحيته واحترامه ، ولقد أثبتت الجاسوسية جدواها فى الحرب والسلم ، منذ وضع «**تحتمس الثالث**» أول نظام لها ، إلى وقتنا هذا . اعتمد عليها القادة فى إلحاق الهزائم بالأعداء بأقل خسائر فى أقصر وقت، حتى قال «**نابليون بونابارت**» إن الجاسوس الواحد يعادل ٢٠٠٠٠ مقاتل .

وما أن أقبل القرن العشرين بحروبه المتلاحقة ، إلا وازداد اهتمام الدول الكبرى بتعبئة جيوش الجواسيس وتدريبهم ونشرهم . ولقد بلغ تعداد جيش المخابرات السوفيتية فى أوج قوتها ٢٠٠٠٠٠ جاسوس ، انتشروا فى أنحاء العالم . كذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين ، واليابان ، وإسرائيل ، ومصر ، وسائر الدول . ومن الصعب وجود دولة بلا جاسوسية فى القرن العشرين ، وإن وجدت ، فإنها لابد أن تعتمد على سفاراتها فى الحصول على المعلومات التى تهمها ، ولابد ـ أيضا ـ أن يحتم عليها أمنها القومى تخصيص هيئة لمكافحة الجاسوسية ، وهذا يتطلب نوعاً آخر من أعمال التجسس .

نشطت الجاسوسية واتسع مجالها منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، فأصبحت تشمل جمع المعلومات عن الخصم والحليف والدول المحايدة ، وتهتم بالمعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصناعية والإدارية علاوة على العسكرية ، وذلك باستخدام كل وسائل الحصول على

المعلومات فى البر والبحر والجو وبالطائرات والغواصات و الأقمار الصناعية، والضفادع البشرية ، والبعثات الدبلوماسية والتجارية والثقافية والرياضية ، ورجال المظلات . وصارت للجاسوسية مدارس وأساليب ، تمارسها جيوش الجواسيس التى تؤدى دورا خطيراً حساسا فى صناعة التاريخ ، ويستحيل على أى كاتب أن يضم مغامراتهم بين دفتى مجلد واحد مهما بلغ حجمه .

ظهر ملايين الجواسيس على مر الزمان فيما يسمى «**بالفن الأسود**» ، ولكن قلة منهم هم الذين استطاعوا وحدهم ترك بصماتهم على صفحات التاريخ ، لأنهم تدخلوا بطريق مباشر فى صياغة أقدار ومصائر الأمم ، فحفروا أسماءهم فى ذاكرة الزمن بين القادة الخالدين ، أو عتاة المجرمين . لم تحتم عليهم شهرتهم أن يتميزوا بروح العظمة ومقومات النبوغ . فسماتهم تتدرج بين الجرأة والجبن ، وتتراوح بين التعقل والحماقة ، لا قاسم مشترك بينهم سوى : قوة الملاحظة ، وشدة الحذر ، والكتمان المطلق .

يتناول هذا الكتاب تاريخ الجاسوسية عبر العصور ، وألمع الجواسيس وأشهر الخونة ، وتطور وسائل المخابرات فى البر والبحر والجو ، فى الحرب والسلم .. وهو باختصار إطلالة متأنية على عالم مثير يحبس الأنفاس ، هو عالم الجواسيس والجاسوسية .

المؤلف

قدامى الجواسيس

مارس الإنسان التجسس بالفطرة منذ فجر الخليقة . استخدمه فى الاستدلال على أماكن الصيد الوفير ، والثمر الكثير ، والماء الغزير ، والمأوى الأمين ، الذى يحميه من عوادى الطبيعة والوحوش والبشر ، وتختلف شدة ممارسة التجسس بين مجتمع وآخر حسب نوع الأعراف والتقاليد ، والعادات السائدة ، فنراه على سبيل المثال سمة ثابتة عند اليابانيين * ، حتى أن الجار يتجسس على جاره بلا حرج ، فالتجسس جزء من حياتهم العادية داخل وخارج بلادهم . كما أن الشعب اليابانى يؤمن بأن العمل فى مجال المخابرات خدمة نبيلة ، فى حين أن معظم شعوب العالم تعاف هذه المهنة ، التى لا غنى عنها فى الدولة المعاصرة ، حتى تقوم بمسئولياتها . فلا يكفى أن تكون الدولة كاملة الاستعداد للحرب فى وقت السلم ، بل لابد لها من معلومات سريعة كافية لتحمى نفسها ، وتحقق أهدافها فى المعترك الدولى . لقد أصبح جهاز المخابرات هو الضمان الأساسى للاستقلال الوطنى ، كما أن غياب جهاز مخابرات قوى يمنى القوات العسكرية بالفشل فى الحصول على إنذار سريع، كما أن اختراق الجواسيس لصفوف العدو يسهل هزيمته. ولعل هذه الغاية هى التى أوعزت إلى الملك «**تحتمس الثالث**» فرعون مصر بتنظيم أول جهاز منظم للمخابرات عرفه العالم .



******

* **Anaromy Of Spying - Ronald Seth .**



مخابرات الفراعنة

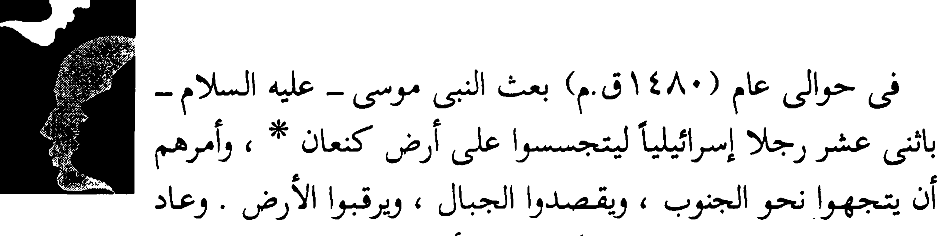
طال حصار جيش تحتمس الثالث لمدينة «**يافا**» ولم تستسلم . عبثا حاول فتح ثغرة فى الأسوار . وخطرت له فكرة إدخال فرقة من جنده إلى المدينة المحاصرة ، يشيعون فيها الفوضى والارتباك ، ويفتحون ما يمكنهم من أبواب لكن كيف يدخلهم؟ .

اهتدى إلى فكرة عجيبة ، شرحها لأحد ضباطه واسمه «**توت**» ، **فأعد** ٢٠٠ جندى داخل أكياس الدقيق ، وشحنها على ظهر سفينة اتجهت بالجند وقائدهم إلى ميناء «**يافا**» التى تحاصرها الجيوش المصرية ، وهناك تمكنوا من دخول المدينة ، وتسليمها إلى المحاصرين . وبدأ منذ ذلك الوقت تنظيم إدارات المخابرات فى مصر والعالم .

ويذكر المؤرخون أن سجلات قدماء المصريين تشير إلى قيامهم بأعمال عظيمة فى مجال المخابرات ، لكنها تعرضت للضعف فى بعض العهود ، كما حدث فى عهد «**منفتاح**» وإلا لما حدث رحيل اليهود من مصر فى غفلة من فرعون *. وتجدر الإشارة إلى أن «**تحتمس الثالث**» غير فخور بأنه رائد الجاسوسية . فكان يشعر دائما بقدر من الضعة فى التجسس والتلصص ولو على الأعداء ، وكأنه كان يعتبره ترصداً فى الظلام أو طعناً فى الظهر ، ولو كان ضد الأعداء ، مما جعله يسجل بخط هيروغليفى واضح ـ على جدران المعابد والآثار التى تركها ـ كل أعماله ، من بناء المدن ، ومخازن الغلال للشعب ، وحروبه ، أما إنشاء المخابرات فقد أمر بكتابته بخط ثانوى . وأخفاه تحت اسم «**العلم السرى**» ، مفضلا أن يذكره التاريخ بمنجزاته العمرانية والحربية والإدارية ، وما أداه من أجل رفاهية شعبه ، دون الإشارة إلى براعته فى وضع أسس الجاسوسية .

---

* الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ـ أحمد هاني .



مخابرات اليهود

فى حوالى عام (١٤٨٠ق.م) بعث النبى موسى ـ عليه السلام ـ باثنى عشر رجلا إسرائيلياً ليتجسسوا على أرض كنعان * ، وأمرهم أن يتجهوا نحو الجنوب ، ويقصدوا الجبال ، ويرقبوا الأرض . وعاد رجال موسى إليه بعد ٤٠ يوماً يحملون أنواعا من محصولات البلاد، وقالوا : إن كل رجالها عمالقة جبارون ، وإنها بلاد غنية بالألبان والعسل ، وقدموا للنبى موسى أنواعاً من الفاكهة التى جلبوها .

ولما قاد «**يوشع بن نون**» بنى إسرائيل عبر الأردن إلى أرض «**كنعان**» ، استفاد من تجاربه مع موسى ـ عليه السلام ـ وأرسل رجلين ليتجسسا على «**أريحا**» ، ويعرفا مدى قوة رجالها وحصونها تمهيدا لغزوها . استعان الجاسوسان بامرأة تدعى «**رحاب**» فى جمع المعلومات والخروج من المدينة دون أن يكشفهما رجال الملك . وسجلت بذلك أول اشتراك فى التاريخ لامرأة فى أعمال الجاسوسية . وليست مصادفة أن تجمع الجاسوسية أمثال رحاب ، وماتا هارى ، وحكمت فهمى.



* قصة موسي في العهد القديم .



صن تزو

يعتبر «**صن تزو**» رائد الجاسوسية الصينية ، ولا يعنى ذلك أن الصين لم تعرف الجاسوسية قبل عام (٥١٠ق.م) ، فعمر الجاسوسية فى الصين حوالى ٢٥٠٠ سنة، لكن الفضل يرجع «لصن تزو» فى تكوين أول شبكة مخابرات كاملة عاملة فى الصين . ألف كتابا عنوانه : «**أصول الحرب**» ، وهو أقدم كتاب عرف عن فن الحرب عموماً ، وما يزال مطلوبا للقراءة فى أكاديميات عسكرية كثيرة . استفاد منه «**ماوتسى تونج**» فى زحفه الطويل ، وطبقه اليابانيون قبل مهاجمة «**بيرل هاربور**» ، وهو كتاب شامل مفيد حتى أن قيادة الطيران الملكى البريطانى وزعته بعد تبسيطه على ضباطها فى «سيلان» أثناء الحرب العالمية الثانية . كرس الكتاب جهداً كبيراً لإيضاح أهمية الجواسيس . وطالب بتقسيمهم إلى خمسة أقسام :

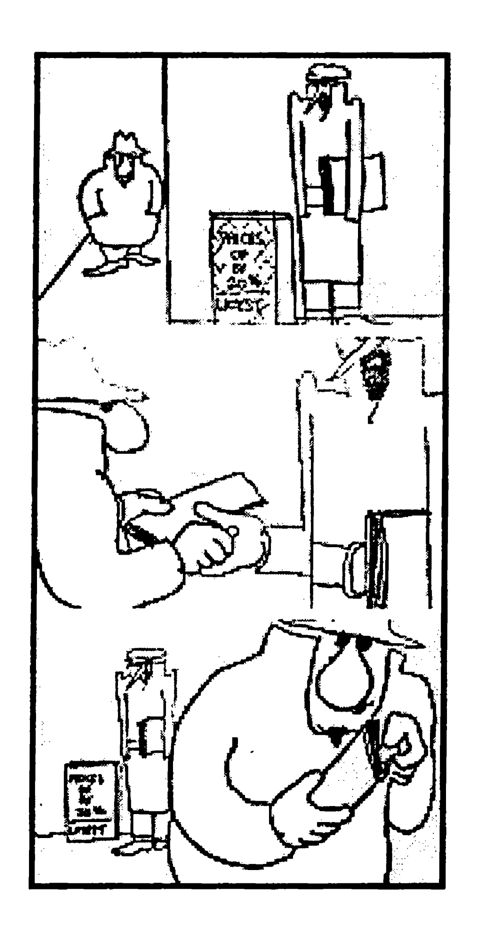
* **جواسيس محليون** : مواطنون محليون يتقاضون مكافآت على المعلومات .
* **جاسوس داخلى** : خائن فى صفوف العدو .
* **جاسوس محوّل** : عميل أمكن إقناعه بتغيير .
* **جاسوس هالك** : عميل اعتاد تزويد العدو بمعلومات زائفة ، من المحتمل قتله فيما بعد .
* **جاسوس باق** : مدرب ، يعتمد عليه فى العودة من مهمته بأمان .

ولد «**صن تزو**» فى ولاية على مصب النهر «**الأصفر**» لكنه أمضى معظم حياته فى خدمة «**هو ـ لو**» ملك ولاية «**وو**» المجاورة . قاد «**صن تزو**» جيش «**هو ـ لو**» واحتل مدينة «**ينج**» عاصمة ولاية «**تشو**» غربا ، وزحف نحو الشمال مكتسحاً جيوش مقاطعتى «**تشى**» و «**تشين**» .

يعتقد «**صن تزو**» بأن شن حرب بطريقة اقتصادية ، مع الدفاع عن البلاد ضد الآخرين ، يتطلب ضرورة استخدام نظام تجسس دائم ، يرصد أنشطة الأعداء والجيران على السواء ، وأكد أهمية التقسيم المذكور ، وضرورة اعتبار الجاسوسية

عملاً شريفاً ، وملاحظة استمرار تقريب العملاء من زعمائهم السياسيين والقادة العسكريين .

أوصى «**صن تزو**» فى كتابه بحسن معاملة العملاء المحولين ، ومنحهم المسكن المريح ، والعطاء الجزيل بين الحين والآخر ، لأن هذا أدعى إلى تثبيت ولائهم ، بل وإغرائهم بمحاولة استمالة زملائهم ورؤسائهم السابقين ، خاصة الذين يستجيبون منهم للرشوة بسهولة .



الإسكندر الأكبر يخترع شفرة

كيف للإسكندر المقدونى الأكبر ، وهو شاب فى العشرين من عمره ، أن يزحف من موطنه الصغير «**مقدونيا**» شمال اليونان ، ويمد إمبراطوريته خلال عشر سنوات ، عبر آسيا الصغرى والشام إلى مصر ، ثم إلى بلاد ما بين النهرين ، وفارس، حتى الهند؟ يؤكد المؤرخون أن الإسكندر لم يحرز الانتصار تلو الانتصار بحنكته وجرأته وجنده وسلاحه التقليدى فحسب ، وإنما لأنه ـ فوق كل ذلك ـ كان واحداً من القادة العظام الأوائل ، الذين أدركوا فائدة الجاسوسية كسلاح حربى ، ووسيلة لحماية الجبهة الداخلية ومقاومة الجاسوسية المضادة .

كان الإسكندر لا يغزو بلداً إلا بعد جمع أكبر قدر من المعلومات عنه ، عن طريق فرق الاستطلاع ، وقوافل التجار . وعلى ضوء هذه المعلومات يرسم خططه بمهارة . فيحقق النصر السريع الحاسم بأقل خسائر . كان يشرف على عمليات الاستخبار بنفسه . وبلغ اهتمامه بها أنه اخترع طريقة لتبادل الرسائل السرية ، تتلخص فى كتابة عبارات الرسالة بنظام معين على شريط من ورق البردى أو الرق، تبعا لشفرة خاصة ، ولف الشريط على قضيب أسطوانى من الخشب .

الإسكندر الأكبر

وفى مجال مقاومة الجاسوسية كان الإسكندر أول من استخدم نظام «**الرقابة على البريد**» ، خطرت له الفكرة أثناء محاصرته مدينة فارسية عام (٣٣٤ق.م)

فخشى أن تقع رسائل جنوده إلى ذويهم فى أيدى العدو وفيها كتبوا بعض المعلومات التى إذا وقعت فى يد العدو سببت للجيش المقدونى ضررا . لذا أصدر أمراً بمنع الجنود من الكتابة إلى أهاليهم . لكنه اكتشف أن جنوده استاؤوا من هذا الخطر ، شك الإسكندر فى دوافع هذا الاستياء ، وأراد أن يعرف ما إذا كانت هناك مؤامرة تدبر فى الخفاء ، ألغى الحظر ، وأمر بعرض كل الرسائل عليه ، فصارت تجمع فيما يشبه نظام «**الفرقة السوداء**» ، حيث تخضع لرقابة صارمة قبل أن يطلق سراحها إلى مقدونيا . وكان هذا أول نظام رقابة على البريد فى العالم . ولما اطمأن إلى عدم وجود مؤامرات بين صفوف جنوده . وتأكد من أنهم حرصوا على عدم ذكر ما يشير إلى أحوال ومواقف الجيش وخططه ، تخلى عن عملية الرقابة ، بعد أن أصبحت مثاراً لشكوى جنوده .



شفرة الإسكندر الأكبر

هانيبال القرطاجى

كان « **هانيبال** » قائدا عبقرياً ولوعاً بمفاجأة أعدائه وإشاعة الفزع فى صفوفهم ، معتمداً فى حروبه على التجسس . قاد حملة عبرت مضيق جبل طارق وانتصر على الأسبان عام (٢٢٠ق.م) . واتجه شمالا إلى جنـوب فرنسا ، وتسلق جبال الألب من الشمال إلى الجنوب رغم قسوة البرد القارس الذى فتك بكثير من الجنود والفيلة التى كان يستخدمها فى حروبه وهبط إلى سهول إيطاليا ، محطما كل جيوش الرومان التى تصدت له . ويقدر ضحايا هذه الحرب من أعدائه بثمانين ألف جندى من المشاة والفرسان .


تمثال نصفى لهانيبال

أثناء غزو « **هانيبال** » لجزيرة « **صقلية** » ، تعذر عليه الاستيلاء على إحدى المدن رغم الحصـار الطويل . أراد أن يعـرف سـر قـوة المدينة ومنعتها . فأرسل أحد رجاله فدخل المدينة وادعى أنه جندى مـرتزق ، وعـرض خدماته على حاكم صقلية وأقام فى المدينة يتجول فيهـا ، ويدرس تحصيناتها وخطط الدفـاع عنهـا ، ويرسل الإشـارات إلى « **هانيبال** » ، عن طريق الدخان المتصاعد من نار يوقدها لطهو طعامه فوق تل المدينة، دون أن يفطن إليه أحد .

وفى تقدمه نحو روما ، كان يمهد طريق النصر لجيشه ، بجيش آخر من الجواسيس ، يجمعون له المعلومات من وادى نهر « **ألبو** » ، وسهول الألب السفلى ، عن القوات ، ومعنويات الناس والجيش ، وخصوبة الأرض ، وأنواع المحاصيل ، ثم يضع خططه الحربية على ضوء ما يتوافر له من معلومات .

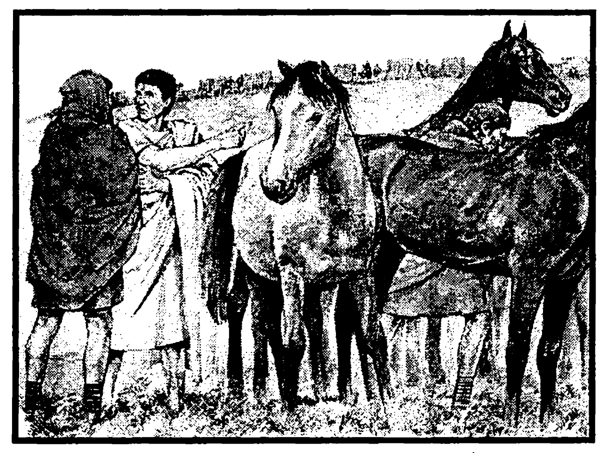


قاهر الفيلة

سيبيو أفريكانوس

اكتسب «**سيبيو**» شهرته من كونه القائد الوحيد الذى انتصر على «هانيبال» ، وفى عقر داره . ولذلك كرموه بلقب «**أفريكانوس**» ، وهو مدين بهذا الانتصار إلى جواسيسه . كانت مشكلته فى مواجهة جيش «**هانيبال**» تنحصر فى الفيلة التى يستخدمها كسلاح مدرع كاسح . ولكى يتغلب «**سيبيو**» على مشكلة الفيلة ، أرسل جواسيسه إلى معسكر «**هانيبال**» حيث اختلطوا بسياس الفيلة ، وعلموا منهم أن نقطة ضعف الفيل تكمن فى شدة انزعاجه وفزعه إذا سمع أصواتا مدوية . فلما التقى الجيشان، أحدث جيش «سيبيو» ضجة هائلة بالطبول ، فساد الذعر والارتباك بين الفيلة، وفقد جنود هانيبال السيطرة عليها ، وانتصر «**سيبيو عام ٢٠٣ ق.م**» .

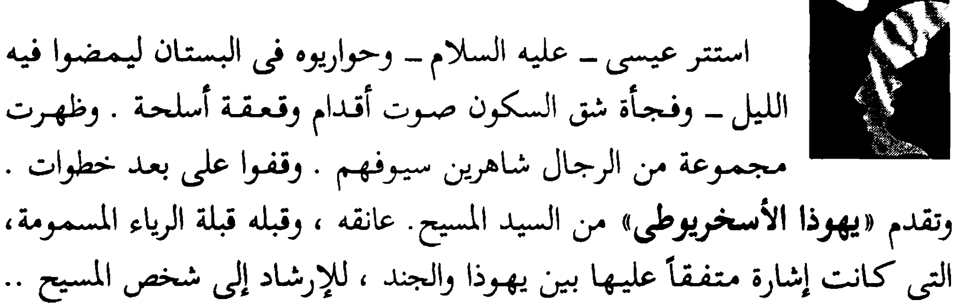
وفى حملته ضد «**سايفاكس**» ملك «**نوميديا**» حليف هانيبال ، أرسل أخاه «**لاليوس**» ، مبعوثا ظاهره التفاوض على الهدنة ، وباطنه التعرف على إمكانيات العدو ، وأرسل معه ضباطاً متخفين فى ثياب عبيد حتى لا يشك فيهم «**سايفاكس**» لكنه تفنن فى إبعاد «**لاليوس**» ورفاقه عن تحصينات معسكره ، **فأوعز** «**لاليوس**» إلى رجاله بوخز الخيل كما لو كانت حشرة لدغتها . ولما صهلت خائفة راح رفاق لاليوس يطاردونها بطريقة طافوا معها فى أرجاء المعسكر ، وتعرفوا على نقاط الضعف والقوة . وفشلت مفاوضات الهدنة ، فهاجم «**سيبيو**» المدينة وأشعل فى تحصيناتها النيران ، وأرغم «سايفاكس» على الصلح .



الضابط فى زى عبيد يطاردون الخيل

يهوذا الإسخريوطى

أشهر الخونة



استتر عيسى ـ عليه السلام ـ وحواريوه فى البستان ليمضوا فيه الليل ـ وفجأة شق السكون صوت أقدام وقعقة أسلحة . وظهرت مجموعة من الرجال شاهرين سيوفهم . وقفوا على بعد خطوات . وتقدم «**يهوذا الأسخريوطى**» من السيد المسيح. عانقه ، وقبله قبلة الرياء المسمومة، التى كانت إشارة متفقاً عليها بين يهوذا والجند ، للإرشاد إلى شخص المسيح .. ترى ما الذى دفع «**يهوذا**» إلى ارتكاب أبشع خيانة فى التاريخ؟ ...

كرس عيسى عليه السلام كل جهده لدعوة الناس إلى الفضيلة ، والسعى إلى رد اليهود عن ضلالهم ، وإلى اتباع شريعة موسى السمحة التى حرفوها ، ونهيهم عن تركيز الاهتمام فى جمع المال . وكانوا قد حضوا الفقراء والمحاجين على تقديم ما يملكون من نذر يسير إلى صندوق الهيكل ، ليتدفق الذهب إلى خزائنهم . وكان من اليهود طائفة أنكرت القيامة ، واستبعدوا الحساب ، وكذبوا الثواب والعقاب . ومنهم طائفة أخرى انغمست فى الملذات والشهوات .

لم يترك عيسى سبيلا لهدايتهم إلا سلكه ، لينتشلهم من وهدة الضلال وشعر كهنة اليهود بخطر انفضاح أسرارهم وزوال دولتهم ، فثارت ثائرتهم ، وألبوا عليه ولاة الروم ، وصوروه لرجال السياسة مؤلبا للجموع ، مثيرا للفتن ، منافسا للحكام . وتحالف الكهنة والساسة ضده .. وشوا بالمسيح عند «**بلاطس النبطى**» الحاكم الرومانى . رموه بالسحر ، واستطاع «كيافاس» كبير الكهنة اليهود إقناع الحاكم بأن انتشار دعوة عيسى سوف يؤدى إلى زوال حكمه وتقويض سلطانه . ونعتوه بأنه كافر بدينهم . وأجمعوا على التخلص منه .

بثوا من حوله العيون لرصد تحركاته والإيقاع به ثم قتله . وبذلوا الوعود بالأموال والأمانى لمن يأتيهم به أو يدلهم عليه . كانوا يريدون الانقضاض عليه وقتله خفية بعيداً عن الناس ، حتى لا يثير قتله ثورة . ومما يؤسف له أن يستجيب لغوايتهم «**يهوذا الإسخريوطى**» ، أحد حوارييه الاثنى عشر ... دلهم عليه وتقدم الجند نحوه ليقبضوا عليه لكن قدرة الله تجلت فأنجاه من كيد الكائدين . أخفاه سبحانه وتعالى

عن أعين الناظرين ، وأوقع أبصارهم على رجل شديد الشبه بالمسيح .. انقضوا على الرجل الشبيه بوحشية ، فانعقد لسانه من الخوف والفزع . وصلبوه فوق جبل الزيتون . ولم يكن ذلك الرجـل المجهول سوى يهـوذا ، الجاسوس الخائن ، رد الله كيده إلى نحره .

ما الذى دفع «يهـوذا» إلى ارتكاب هذه الخيـانة التـاريخيـة؟ يعتـقـد البعض أنه تجسس ووشى بمعلمه من أجل المكافأة المرصودة رغم تفاهتـها ، ومقـدارها ثلاثون قطعة فضية . ويرى البعض الآخر أن إرادة الله جعلت من «يهوذا» عبرة لعل الناس به يتعظون ويحذرون .



المخابرات فى صدر الإسلام

ازدادت حاجة المسلمين إلى الاستخبار منذ خرج النبى محمد ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة يرافقه صاحبه «**أبو بكر الصديق**» . وبعدها حدثت عدة عمليات منها :

* **أخبار أيام الهجرة الأولى** : فى الطريق إلى المدينة كمنا فى غار حراء ثلاثة أيام. وكان «عبدالله بن أبى بكر» يحمل لهما أخبار أحوال المسلمين والكفار فى مكة أولاً بأول .

* **سرية «عبدالله بن جحش»** : فى السنة الثانية للهجرة ، كلف النبى ﷺ «**عبدالله بن جحش**» ، برصد تحركات قريش ، ومعرفة أخبارهم إذا يروى أن رسول الله دفع إلى «**ابن جحش**» كتاباً أمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وينفذ ما فيه .

ولما فتح الكتاب فى حينه ، قرأ نصه : «إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم» .

أعلن «عبدالله بن جحش» محتوى الكتاب على رفاقه ، وساروا نحو غايتهم السامية فى مهمتهم الاستطلاعية لقوات المشركين ، والتقوا بثلاثة تخلفوا عن قافلة لقريش حتى يحصلوا على معلومات عن قوات المسلمين ، فاشتبك معهم «عبدالله بن جحش» ورجاله ، وقتل أحدهم ، واقتاد الآخرين إلى النبى ﷺ يستجوبهم .

* **عيون على أبى سفيان** : فى غزوة بدر الكبرى ، خرج ﷺ من المدينة ، وسار مع أصحابه حتى اقتربوا من «**الصفراء**» ، وبعث من يأتيه بأخبار «**أبى سفيان بن حرب**» ، وأخبرته العيون أن قريشاً سارت إلى أبى سفيان ليمنعوا إبله وتجارته حتى لا تقع فى أيدى المسلمين . وفى غزوة بدر أيضاً ، أرسل النبى اثنين من المجاهدين للحصول على معلومات عن قوات المشركين ، فوجد أحدهما غلامين لقريش يستقيان من بئر بدر ، فأحضرهما إلى الرسول الكريم ، وسألهما عن عدد الجمال التى ينحرونها للجيش ، فأجابا بأنهم ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً. ومن ذلك أدرك عليه الصلاة والسلام أن عدد مقاتلى المشركين يتراوح بين

٩٠٠ ـ ١٠٠٠ ، لأن عادة العرب أن يخصصوا بعيرا لكل مائة رجل .

* **على بن أبى طالب فى مهمة** : عملية التموية التى قام بها على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ ، لم تكن عملية المخابرات الأولى ولا هى الأخيرة ، إذ أن النبى عليه الصلاة والسلام أمره بعد موقعة أحد ، أن يقتفى أثر الكفار ويستطلع نواياهم ، فوجد أنهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فعرف أنهم عائدون إلى مكة ، بعد أن مثلوا بكثير من قتلى المسلمين ، جدعت نساؤهم الأنوف ، وقطعن الآذان ، واتخذن منها قلائد . وبقرت هند بنت عتبة بطن حمزة عم رسول الله . وأمر رسول الله بتغطية جثمان حمزة ببرده ، ثم صلى عليه وعلى القتلى ٧٢ صلاة ، وأمر بدفنهم .

* **حيلة نعيم بن مسعود** : علم النبى أن قريشاً عبأت جيوشها و«**بنى غطفان**» ، وانشغلت بمحاولة استمالة قبيلتى «**بنى قريظة**» و «**بنى أشجع**» ، للتحالف معها والحنث بعهدهما للنبى ، توطئة لمهاجمة المسلمين فى «المدينة» بادر النبى فأمر بحفر خندق حول «**يثرب**» ، كان الأول من نوعه ، وكان مفاجأة أذهلت الكفار وعوقتهم عن مهاجمة المدينة . كما جعلتهم صيدا سهلا لسهام المسلمين ، وتحقق النصر للمسلمين ، خصوصاً وأن أمل قريش فى استمالة غطفان وبنى أشجع إلى جانبهم قد خاب بفضل «**نعيم بن مسعود**» .. **فماذا فعل ؟؟** .

«**نعيم بن مسعود**» من وجهاء بنى غطفان . أسلم سرا ولم يشهر إسلامه بين قومه . ذهب إلى النبى محمد وأكد خبر محاولة قريش وبنى غطفان حض «**بنى قريظة**» و «**بنى أشجع**» على خيانة المسلمين والنكوص بعهدهم ؛ وقال «**نعيم**» إنه طوع أمر رسول الله ، فكلفه الرسول بإفساد مؤامرتهم بالحيلة إذا استطاع .

ذهب «**نعيم**» إلى «**بنى قريظة**» أعزل من أى سلاح إلا سلاح المكر والدهاء ، فأوقع بينهم وبين قريش وغطفان ، زرع فى نفوسهم الشك والارتياب ، وحذرهم من أنهم سوف يتخلون عنهم حين تدور الدوائر ، بعد أن يكونوا قد خسروا حلف المسلمين وحسن جوارهم ، وتأكيدا لصدق رأيه نصحهم بأن يطلبوا من قريش وغطفان رهناً من أشرافهم ، يظلون بأيديهم حتى يضمنوا صدقهم واستمرار نصرتهم .

تركهم «**نعيم**» بعد أن أقنعهم بحيلته ، وذهب إلى قريش وغطفان ، وأخبرهم أن بنى قريظة يضمرون لهم شراً ، وأنهم رافضون للحلف المعروض عليهم ، راغبون فى استمرار تحالفهم مع المسلمين ، وقد أرسلوا إلى النبى يؤكدون وفاءهم بالعهد، واستعدادهم لأخذ رجال من أشراف قريش وغطفان وتقديمهم ليضرب المسلمون أعناقهم .

أوفدت قريش وغطفان «**عكرمة بن أبى جهل**» فى رهط منهم إلى «**بنى قريظة**» يستنفرهم للقتال ، فامتنعوا بحجة أنهم لا يقاتلون يوم السبت ، واشترطوا إعطاءهم رهناً من رجالهم يحتفظ بهم «**بنو قريظة**» ضماناً لعدم التخلى عن العهد إذا اشتدت المحنة . ورفضت قريش وغطفان شرط الرهن . واقتنعت كل الأطراف بصدق «**نعيم بن مسعود**» ، ودب التخاذل فى صفوف الأحزاب ، ثم كانت مفأجاة الخندق ، وتحقق نصر المسلمين .

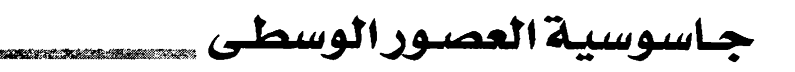
ومما يذكر أن النبى ﷺ اعتمد فى غزواته وغاراته على القوافل المكية على المعلومات التى كان يزوده بها أعوانه فى مكة ، بينما لم يكن للكفار من يزودهم بأخبار المسلمين والأنصار فى «**المدينة**» . وكان النبى ﷺ يوصى المسلمين بكتمان أسرارهم ، لعلهم يصيبون العدو على غير استعداد ، وينتصرون دون سفك دماء أو إزهاق أرواح ، كما حدث قبيل فتح مكة ، إذ صدر عن رسول الله ﷺ أمر كريم «أن يحفظ المسلمون أسرارهم ، ويضنوا بمخبآت ضمائرهم ، لعلهم يصيبون قريشاً على غير استعداد ، ويدخلون مكة من غير كيد أو عناد .. فلا يسفك فى البلد الحرام دماً ، ولا يزهق روحاً ، ولا يثير حرباً ، ولا يذكى ضرام عداء» *

* **تقرير بشر الخزاعى** : ومن نماذج تقارير رجال مخابرات جيش النبى ﷺ قول «**بشر الخزاعى**» لرسول الله ﷺ : «لقد دلفت إلى قريش أتسقط أسرارها ، وأتعرف أخبارها ، وما راعنى إلا أن خبر مسيرك قد ترامى إليهم ، وحديث رؤياك قد هبط عليهم ، ولا أدرى كيف وقع عليهم الخبر ، ولا كيف استنشقوا حديث الرؤيا .. إنهم يا رسول الله خرجوا ومعهم النياق بأولادها ، ولبسوا جلود النمور ، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكة أبدا . وهذا «خالد بن الوليد» ، وهو من يعدونه بهمتهم ، وفارس حلبتهم ، قد خرج يستقبلك بخيله ، ولعله الآن فى «**كراع الغميم**» .

---

* ص ٣٣٧ ـ قصص القرآن ـ محمد أحمد جاد المولي .

جاسوسية العصور الوسطى



اتسمت جيوش العصور الوسطى بقلة العدد ، وبدائية السلاح . فكان لابد لمن يريد النصر المؤزر أن ينشط سلاحه الثالث .. سلاح المخابرات ، حتى يقصر أمد الحرب ، ويقلل الخسائر ، وتنجح خططه فى مفاجأة العدو ، وتضيق الخناق عليه ، وقطع خطوط إمداده وتموينه ، وشل حركته ، وإجباره على الاستسلام . ويتوقف ذلك إلى حد كبير على مقدار ما يتوافر له من معلومات عن ظروف العدو ، من حيث العدد ، والعدة ، والخطة ، والمواقيت ، والروح المعنوية للجند ، ومواطن القوة والضعف فى الجيش . وكشرط أساسى للنصر ، لابد أن يكون الاعتماد الأول ـ بعد مشيئة الله ـ على توفير أحسن حالات الاستعداد للجيش المحارب ، وإلا فلا قيمة لأثمن المعلومات ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

★ هزيمة الملك هارولد

لم تعرف إنجلترا قبل الملك هارولد فى القرن الحادى عشر حاكماً اهتم بالمخابرات مثل اهتمامه . توافرت لديه كل المعلومات عن خطة «**وليم الفاتح**» فى الهجوم على إنجلترا : التوقيت ، ومكان نزول الجيش ، وعدد الجنود الذين جمعهم وليم الفاتح ، وخط سير المعركة . ومع ذلك خسر هارولد الحرب ، لا بسبب نقص المعلومات ودقتها ، ولا لخطأ ارتكبته مخابراته ، بل لأن جنوده سئموا القتال ، ودب فيهم المرض والكلال ، بعد السير مسافات طويلة .

★ خوارق النينجا

فيما عدا الملك هارولد ، لم يكن بين حكام أوروبا من اهتم بالمخابرات فى العصور الوسطى . على عكس حكام الشرق ، إذ لابد وأن تكون تعاليم «صن تزو» الصينية قد انتشرت فى شرق الصين وغربه ، وعرفها اليابانيون والمغول .

فى اليابان ظهر فن «**النينچا**» ، وهو اسم مأخوذ من كلمة يابانية معناها «**اللامرئى**» أو فن «**الاستخفاء**» . كان يمارسه فى اليابان ، فى القرن الثانى عشر، فئة من صفوة شباب السامورائى بدنياً واجتماعياً ، قيل إنهم تدربوا حتى اكتسبوا القدرة على المشى فوق الماء ، والحصول على المعلومات أثناء التخفى ، والاختفاء والظهور حسب إرادتهم .

على الرغم مما فى هذا الزعم من مبالغة وتحريف ، إلا أنهم خضعوا لتدريب شاق ، على أعمال فذة منذ الصغر ، كالمشى على الحبال المشدودة ، والتعلق فى فروع الأشجار بدون حركة لمدة طويلة ، والسباحة تحت الماء مسافات طويلة . وصاروا سادة التخفى ، والتمويه ، والاستطلاع ، ومن هنا اكتسبوا اسمهم الخرافى: «النينجا» وبهذه القدرات برعوا فى الخدمات التى أدوها ، سواء كانوا جواسيس أو مقاتلين ، كما أنها أكسبتهم منزلة عالية جدا فى المجتمع اليابانى .

★ جانكيز خان

ويتجلى استخدام المغول للجاسوسية بأوضح معانيه فى عهد جانكيز خان . فما كان لذاك **«الإمبراطور المقاتل المغوار»** ـ وهذا هو اسمه بلغته ـ أن يبسط سلطانه على الأرض ما بين منغوليا وأبواب العالم العربى ، بدون خطط محكمة .. وكانت الخطط المحكمة تحتاج بالضرورة إلى معلومات دقيقة ، يستقيها جواسيس أكفاء ، ويجمعها عملاء أذكياء من جنسيات مختلفة ، كمقدمة وأساس لغزواته . كما كان يكلف التجار المتجولين ، ينتشرون فى البلاد التى يوشك أن يغزوها ، يسجلون المعلومات اللازمة ، ويدونون مشاهداتهم وما يسمعون ، ويرسلونها إليه . وكثيرا ما لجأ جانكيز خان إلى إيفاد بعض أمهر قواده فى مهام جاسوسية صعبة ، ومن هؤلاء: قائد اسمه **«سبتاى»** ، وآخر اسمه **«نويون»** .

سبتاى يخدع التتار : كان «سبتاى» من أبرز قادة جيش «جانكيز خان» . فلما عزم الأخير على شن الحرب على التتار ، افتعل خلافا مع «سبتاى» ، وكلفه باللجوء إلى قائد التتار ، وزعم أنه تخلى عن جانكيز خان وانشق عليه .

وأنه يرغب فى الانضمام إليه . وإثباتا لحسن نيته قدم له معلومات مزيفة خلاصتها أن جيش المغول بعيد عنهم . وصار يزود جانكيز خان بالمعلومات سرا . وفوجئ التتار بجيش المغول يحدق بهم ، فأدركوا أن «سبتاى» لم يكن سوى جاسوس خدعهم . لكن بعد فوات الأوان .

نويون فى الصين : أما «نويون» ، فقد أرسله «جانكيز خان» على رأس قوة مغولية من الفرسان ، لمساعدة إمبراطور الصين فى القضاء على تمرد حاكم الإقليم الجنوبى . وكان جانكيز خان يضمر شرا للإمبراطور الصينى ، فأوصى «نويون» بالحصول على كل المعلومات اللازمة لشن هجوم على الصين ، ونفذ «نويون» الوصية ، واستفاد «جنكيز خان» من المعلومات فى وضع خطته .



نشأة المخابرات الدبلوماسية

كانت أوروبا فى العصور الوسطى تجهل الكثير عن شعوب الشرق. لا يعرفون الكثير عن المغول والتتار الزاحفين وسط آسيا ، ولا الإمبراطورية البيزنطية ، ولا السلاف الشرقيين . معلوماتهم عن المسلمين فى الشرق كانت سطحية ، لذلك وقع حكامها فى أخطاء سياسية وتعرضوا لأخطار كثيرة ، نتيجة لسوء التقديرات وفساد القرارات المبنية على غياب المعلومات الدقيقة . وقد تحقق ذلك بخسائرهم الفادحة خلال الحروب الصليبية نتيجة لاستهانتهم بقوة مسلمى الشرق الأوسط ، وعجزهم عن إدراك التهديد التركى .

وعلى مر الأحداث ، تنامى الاهتمام بالمعلومات ، وجرت سلسلة من المحاولات ، انتهت بنشأة المخابرات الدبلوماسية ، على النسق التالى :

* حاول الإمبراطور فردريك الثانى (١٢١٢ـ١٢٥٠م) إقامة اتصالات دبلوماسية ثابتة مع الحكام المسلمين .
* أرسل الملك «لويس التاسع الفرنسى» (١٢٢٦ـ١٢٧٠م) بعثات إلى بلاد المغول، لم تستفد كثيرا ، بينما حصل التجار الإيطاليون على معلومات كثيرة ، نادرا ما أقبل عليها حكام أوروبا آنذاك .
* فى القرن الخامس عشر ، اتسع نطاق التجارة بين الشرق والغرب ، وانشأت المدن الإيطالية سفارات دائمة لها خارج البلاد ، واشتهرت سفارات البندقية بنشاطها فى الحصول على المعلومات الهامة الدقيقة .
* فى القرن السادس عشر ، تأكد ارتباط أعمال المخابرات بالدبلوماسية ، إذ أنشأت أغلب حكومات أوروبا سفارات لها فى الخارج ، تزودها بمعلومات يحصل عليها سفراؤها . وكان المجتمع ينظر إلى السفراء على أنهم جواسيس، وما زالت الحكومات تعاملهم بحذر شديد . خصوصا وأن السفارات الدائمة التى أنشأها حكام أوروبا فى تلك العصور أرست قواعد إنشاء شبكة منتظمة من الجاسوسية .

* فى عـهـد الملكة إليـزابيث الأولى ملكة بريطانيـا ، عينت لورد «بورجلى» وزيراً للخارجية ، وكلفته بتعقب مؤامرات الكاثوليك فى بريطانيا ، فشكل أول نواة للمخابرات الإنجليزية ، وأسند إدارتها إلى «**فرانسيس ويلسنجهام**» ، الذى اقترن اسمه دائما بتكوين أول جهـاز مخابرات منظم فى تاريخ إنجلترا . وكـان يعرف آنذاك بجهاز الخدمة السرية .

★ فرانسيس ويلسنجهام

كان «**ويلسنجهام**» بروتستانتيا متزمتا ، درس القانون فى شبابه ، وهرب إلى القـارة خوفـا من الملكة الكاثوليكيـة «**مارى تيودور**» ، التى اعتلت العـرش عـام ١٥٥٣م وبدأت تنكل بالبروتستانت . ولما خلفتـها الملكة «**إليزابيث**» بعد خمس سنوات، شعر بالأمان ، وعاد إلى إنجلترا .

اكتسب من إقامته فى الخارج خبـرة لفتت إليه أنظار «**لورد بورجلى**» وزير الخارجية ، فكلفه برصد أعمـال الجاسوسية فى أوروبا . وأمكنه من إنشاء شبكة تجسس خاصة داخل البلاط الملكى الفرنسى ، حصلت على سلسلة من التقارير الهامة ، عن المؤامرات التى كان يحيكها ملك فرنسا مع الجزويت ، ضد الملكة .

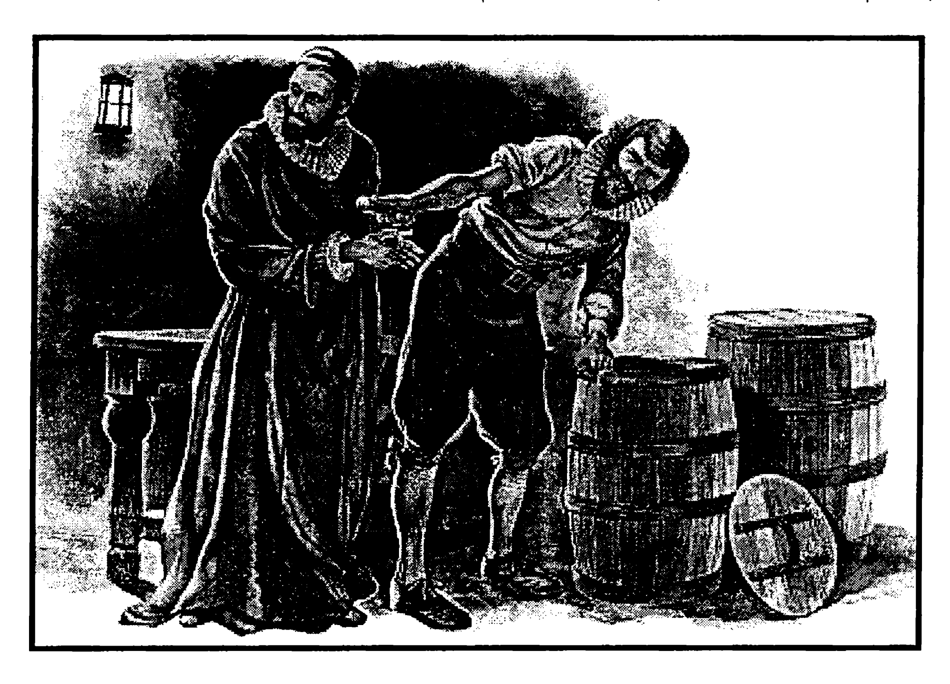

فـرانسيس ويلسـنجهام

فى عام ١٥٦٩ استدعى «**ويلسنجهام**» إلى إنجلترا ، وعين رئيسا لجهـاز الخدمة السرية ، ثم أعيد بعد عام إلى فرنسا بعد أن رقى إلى منصب السفـيـر الإنجليـزى ، عـلاوة على رئاسة كل العـمـلاء والجـواسـيس فى فـرنسـا . ولما تولى «**بورجلى**» وزارة الخـزانة عـام ١٥٧٣ اسـتـدعِى «ويلسنجهـام» مرة أخرى ليتولى وزارة الخارجية خلفـا له . بالإضـافـة إلى إدارة شبكة المخابرات داخل بريطانيا وخارجها .

تفانى «ويلسنجهـام» إلى أقصى الحدود . لكن الملكة «إليزابيث الأولى» كـانت بخيلة . ولكى يحصل على نتائج طيبة ، اضطر إلى الإنفاق من جيبه الخاص ، إلى أن أفلس ومـات غارقا فى الديون . ورغم شدة بخلهـا على ميزانية المخابرات إلا أنه ظل دائمـاً حريصـاً على حمـايتهـا بمظلة الأمـان ، فلم تنجح واحدة من مؤامرات

اغتيالها العديدة فى الاقتراب منها .

وضع «**ويلسنجهام**» كل الإنجليز المبعوثين إلى الخارج فى دائرة الشك إلى أن يثبتوا ولاءهم الكامل بطريقة حاسمة . فلما عين «**سير إدوارد ستافورد**» سفيراً لإنجلترا فى باريس عام ١٥٨٣م ، ترامى إلى علم «ويلسنجهام» أنه تقاضى مالاً من الأسبان مقابل العمل جاسوسا لحسابهم ، كان يعرف أن المشكلة قائمة ، لكنه لا يملك الدليل ، فكلف عميلا موثوقا به اسمه «روجرز» بمراقبة «ستافورد» فى باريس . أكدت تقارير «**روجرز**» ضلوع «**ستافورد**» فى الخيانة ، ومع ذلك ظل حراً طليقاً ، لأن «**ويلسنجهام**» رأى أن زيادة ثقة الأسبان فى «ستافورد» تجعلهم يصدقون كل ما يقول . وبالتالى يمكن ـ عن طريقه ـ دس معلومات مزيفة ظاهرها الصدق ، لتضليل الأسبان ، دون أن يفطن إلى ذلك «ستافورد» . وهكذا لم يقدم للمحاكمة ، ولم يوجه إليه اتهام .



تهريب الرسائل للملكة السجينة فى براميل المؤن

فى عام ١٥٨٦م كانت «**مارى تيودور**» ملكة إسكتلندا قيد الاعتقال فى إنجلترا، لأن الملكة «إليزابيث» الأولى اعتبرتها خطرا على العرش الإنجليزى . كانت «مارى» على اتصال بمتآمرين كاثوليك معينين أرادوا عزل الملكة البروتستانتيه عن العرش . ظلت «مارى» على اتصال بأعوانها عن طريق رسائل تكتب بالشفرة وتدس

فى براميل المؤن التى تصل إلى الملكة فى سجنها . وكانت الملكة ترسل رسائلها بنفس الطريقة فى البراميل الفارغة . دبر هذه الحيلة رجل اسمه «**جيلبرت جيفورد**» ، ولم تعلم «مارى» أن «جيفورد» كان يعمل لحساب «ويلسنجهام» رئيس جهاز الخدمة السرية الإنجليزى ، الذى كانت تصله كل رسائل «مارى» أولا بأول لمدة ثلاثة أشهر ، وظل على صمته متحفزا ، ينتظر دليلاً حقيقياً ضد «مارى» . وهذا ما حدث فى يوليو عام ١٥٨٦ حيث كتب أعوانها عن تدبيرهم خطة لقيام ثورة كاثوليكية ، واستعداد ستة رجال لقتل «إليزابيث» وتتويج «مارى» ملكة على عرش بريطانيا .

أراد «ويلسنجهام» أن يعرف أسماء الرجال الستة . وبدلاً من توجيه الاتهام إلى الملكة السجينة فى الحال ، كلف خبير الشفرة بتزوير فقرة أضافها إلى رد الملكة «مارى» تقول فيها : «سوف يسعدنى أن أعرف أسماء وشخصيات الشبان الست الذين سينجزون المهمة ، فربما أستطيع أن أدلى برأى نافع على ضوء هذه المعرفة» غير أن «ويلسنجهام» لم يعد محتاجاً للأسماء ، فسرعان ما أصاب المتآمرين الذعر وسلموا أنفسهم ، وحكم على «مارى» بالإعدام .

رغم ضآلة الميزانية التى أتاحتها الملكة إليزابيث البخيلة لجهاز المخابرات ، إلا أن «ويلسنجهام» نجح فى استخدام جواسيس فى الخارج كما فى الداخل . وكان من الضرورة أن يوسع شبكة مخابراته فى أسبانيا ، بعد أن أخبره عملاؤه فى أوروبا أن الملك الأسبانى «**فيليب الثانى**» قرر غزو بريطانيا ليستولى عليها بالحرب ، بعد أن يئس من الاستيلاء عليها بالسلم ، إذ رفضت الملكة «**إليزابيث الأولى**» الزواج منه .

تأكدت هذه الأخبار بتقارير دقيقة عن خطط الغزو الأسبانى أرسلها «**سير أدوارد ستافورد**» السفير الإنجليزى فى باريس ـ وكان لويلسنجهام عميل نشط فى «**فلورانسا**» اسمه «**أنتونى ستاندن**» ، ينتحل اسم «**بومبيو بليجرينى**» استطاع أن يحصل على نسخة طبق الأصل من التقرير الذى قدمه الماركيز «سانتا كروزا» قائد أسطول «الأرمادا» إلى الملك فيليب ، ويحتوى على : عدد السفن وأسلحتها ، والجنود وأسلحتهم ، والبحارة ، ومستودعات الأسلحة والذخائر والمؤن ، ومواقع وحدات الأسطول ، وموعد إبحارها لغزو بريطانيا ، وأماكن رسوها للهجوم . وذكر

«**ستاندن**» فى تقرير آخر أن الملك فيليب أرسل مندوبين إلى «**جنوا**» للحصول على قرض يستعين به فى الإنفاق على الحملة ، فبادرت ملكة بريطانيا تقطع على «فيليب» خط الرجعة ، فحذرت سلطات «جنوا» بأنها تعتبر إقراض ملك أسبانيا عملاً غير ودى موجها ضدها .

وسع «ويلسنجهام» شبكة مخابراته الخارجية خلال عام ١٥٨٧ وصار له عملاء فى : **نانتس** ، **وروين** ، **ولاهافر** ، **ودييب** . كما أحكم مخابراته فى «كراكاو» ، ليرصد اتجاهات الفاتيكان نحو أسبانيا . ونشر جواسيسه فى : **بروكسل** ، **وليدن** ، **والدانمارك** ، وداخل البلاط الأسبانى . وكلف بعض رجاله بالتجول فى موانى سواحل أسبانيا وفرنسا ، واستأجر الصيادين وبناة السفن لمعرفة تحركات وتطورات الأسطول الأسبانى .

وكان «ويلسنجهام» يضم بعض الطلبة والكتاب إلى جهاز المخابرات بعد إخضاعهم لاختبارات معينة ، ويرسلهم إلى الدول الأوروبية ، ليتجسسوا على المتآمرين الكاثوليك . ومن هؤلاء ، الروائى الإنجليزى «**كريستوفر مارلو**» ، الذى لقى مصرعه فى مشاجرة بمطعم فى ظروف غامضة ، وأخلى سبيل قاتله «**فريزر**» لسبب مجهول . من هؤلاء الجواسيس أيضاً «روبرت بولى» .

فى عام ١٥٨٨م شوهد الأسطول الأسبانى فى المواقع التى توقعها «ويلسنجهام» قرب شواطئ بريطانيا وبنفس العدد والوصف الذى نصت عليه تقارير «ستاندن» ، وشاهد «ويلسنجهام» انتصار بلاده على أسطول فيليب ، وتوفى بعد عامين ، فى عام ١٥٩٠م يدين الملكة إليزابيث شخصيا بمبلغ ٣٤٦ جنيهاً وشلنين وستة بنسات . كتب جاسوس أسبانى فى إنجلترا إلى الملك فيليب الثانى يقول : «مات ويلسنجهام مخلفاً حزناً عظيماً هنا» وعلق الملك على هامش الرسالة قائلا: «نعم هناك حزن ، لكنها أخبار طيبة هنا» .

★ كريستوفر مارلو

كان «**كريستوفر مارلو**» شاعراً وكاتباً مسرحياً معروفاً ، كما كان جاسوسا بارعا. أثناء دراسته فى جامعة «**كامبردج**» لفتت مواهبه انتباه «جون دى» منجم الملكة «إليزابيث الأولى» ، فأوعز إلى «**سير فرانسيس ويلسنجهام**» بضمه إلى جهاز الخدمة السرية .

فى عام ١٥٨٧م بدأ «**دوق دى جويز**» رئيس الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا محاولة طويلة المدى لإنقاذ ابنة أخيه «مارى» ملكة إسكتلندا من براثن الملكة «إليزابيث» . لجأ إلى تقديم الضيافة إلى الطلبة الإنجليز ذوى الميول الكاثوليكية ، فى قلعة الجزويت فى «**ريمز**» ، وفى نيته أن يورطهم فى مؤامرات حول عرش «**تيودور**» . حينما اكتشف «ويلسنجهام» أن الكاهن «**روبرت بارسونز**» المتآمر الجزويتى نجح فى إيجاد عملاء فى «كامبردج» ، قرر استخدام هذا الطريق لاختراق مخابرات الجزويت بعميل ذى وجهين ينضم إلى معهد الجزويت ، حتى يمكن معرفة تفاصيل المؤامرة التى تدبر هناك ، على أمل إنقاذ حياة «مارى» من حكم الإعدام الوشيك تنفيذه .



كريستوفر مارلو

اختار «كريستوفر مارلو» عميلاً مزدوجا لهذه المهمة ، وبارح «كامبردج» فجأة فى فبراير ١٥٨٧ . ولما عاد فى يوليو استدعته إدارة الجامعة واستجوبته لغيابه بدون إجازة ، ولالتحاقه بمعهد الجزويت فى «ريمز» ، حيث أعلن صراحة مقته للنظام البروتستانتى فى إنجلترا ، وعزمه على تنظيم حركة مقاومة كاثوليكية هناك . واستطاع «كريستوفر» معرفة أسماء المتآمرين الرئيسيين ، وعاد إلى إنجلترا وقدم المعلومات إلى «ويلسنجهام» . فأمر وزير الخارجية ورئيس جهاز الخدمة السرية بإسقاط كل التهم الموجهة إلى كريستوفر ، والسماح له باستئناف دراسته فى جامعة «كامبريدج» .

فقد «كريستوفر» التكريم والاعتبار تدريجيا لأسباب ما تزال مجهولة . وفى مايو ١٥٩٣م ألقى القبض عليه فى بيت «توماس ويلسنجهام» ابن عم وزير الخارجية . وأخلى سبيله بكفالة مالية ، بعد استجوابه حول اتهامات يمكن أن تؤدى به إلى السجن فى القلعة .

بعد عشرة أيام قيل إنه لقى مصرعه فى مشاجرة بحانة فى «**دبتفورد**» . وهناك

شائعات مؤداها أنه لم يمت مطلقاً ، وأن عملية اغتياله مجرد مسرحية لتمكينه من الهرب إلى أوروبا بهوية جديدة .

الأرجح أن «مارلو» كان ضحية تصفية بدنية ارتكبها «فريزر» بإيعاز من جهاز الخدمة السرية ، الذى أطلق سراحه بدون تفسير مقنع ، كما لم يعرف أحد سبب وجود «روبرت بولى» - جاسوس ويلسنجهام المعروف - فى حانة «ديتفورد» . وقت ارتكاب الجريمة .

★ الأوبريتشنينا أول مخابرات روسية

كان جهاز «**الأوبريتشنينا**» أول مخابرات سياسية روسية . أسسها «**إيڤان الرهيب**» عام ١٥٦٥م حينما كان دوقا لموسكو ، قبيل تتويجه قيصرا . كان الجهاز مكونا من ٦٠٠٠ رجل ، يرتدون زياً أسود موحداً ، ويمتطون خيولا سوداء، سروجها مطرزة برسم كلب ومكنسة ، رمزا لاحتقار الخونة وتكريس كل الجهود لإزالتهم من الوجود .

كان للأوبريتشنينيين سلطة مطلقة وحصانة لانهائية ، جعلتهم يتصرفون كما لو كانوا وحوشاً ، فرائسهم أجيال من النبلاء ، وملاك الأراضى ، والطبقة الأرستقراطية ، الذين سجلهم إيڤان فى قوائم الخونة ، وأعدم بعضهم ، ونفى البعض الآخر إلى «**كازان**» مدى الحياة ، وصادر أملاكهم وأموالهم .

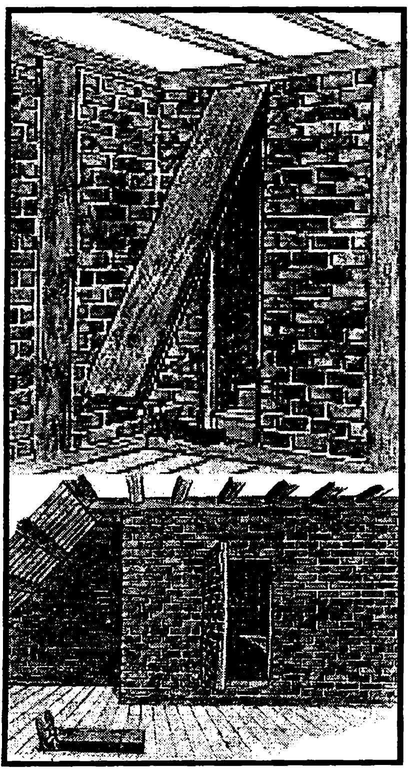

إيڤان الرابع أو الرهيب

نشر رجال «الأوبريتشنينا» الرعب فى كل المدن ، وذبحوا معظم سكان «**نوفجورود**» فى خمسة أسابيع ، مارسوا فيها أبشع طقوس القسوة عام ١٥٧٠م . أطلق «**إيڤان**» يد الأوبريتشنينا فى رقاب الناس سبع سنوات سميت بعهد الفزع ، ثم بدأ هو نفسه يخشى استفحال قوة جهازه السرى ، فحله ، وسرح رجاله كلهم عام ١٥٧٢ ، وجرد الأحياء منهم من ممتلكاتهم ، وتنفس المواطن الروسى الصعداء بعد سبع سنوات من حكم خانق رهيب .

محاكم التفتيش
والتجسس الاجتماعى

عندما احتدم الصراع بين المذهبين البروتستانتى والكاثوليكى فى أوروبا إبان القرنين : الخامس عشر والسادس عشر ، سادت جاسوسية محاكم التفتيش فى الدول الكاثوليكية ، وعلى رأسها أسبانيا . كانت هذه المحاكم تدار طبقا لتعاليم رهبان «**سان دومينيك**» . وهؤلاء استخدموا آلاف الأشخاص من خارج الكنيسة كجواسيس ومرشدين . وقد نصت إحدى نصائح محاكم التفتيش الواردة فى منشورها الرئيسى على الآتى :

«ليكن معلوماً للجاسوس أن من حقه التظاهر بالصداقة لاستخلاص اعتراف من متهم عن جريمته . وأن هذا قد يقتضى منه تصنع الانتماء لنفس الطائفة ، وهذا جائز بشرط عدم التفوه بذلك صراحة ، لأن ذلك ينطوى على إثم مهما يكن إثماً ثانوياً ، الأمر الذى يجب تجنب ارتكابه تحت أى ظرف» .



نموذجان لغرف إخفاء الرهبان فى الجدران والأرضيات

اشتهرت محاكم التفتيش بزنازين السجن الانفرادية ، وغرف التعذيب ، لكن لم يثبت أنها أولى النظم التى فرضت «**التجسس الاجتماعى**» على نطاق واسع بين كافة طوائف الشعب . و«التجسس الاجتماعى» هو التجسس على المواطنين العاديين أيا كانوا ، يوما بعد يوم ، بأسلوب بوليسى عام ، على غرار ما تفعله النظم الدكتاتورية الفاشية الطاغية . وهى طريقة تهدف إلى التأكد من أن كل مواطن يرضخ لسلطة حكام البلد ، وبالتالى فإن من يرى رأياً مخالفاً ، لابد من الإبلاغ عنه لينال عقابه ، أو يعزل عن المجتمع حتى يثوب إلى رشده ، أو يصفى جسديا حتى لا يصيب الرأى العام بعدوى أفكاره المضادة للسلطة . وقد استخدم هذا الأسلوب فى العصر

الحديث للاستئثار بالسلطة ، كل من : هتلر ، وموسولينى ، وستالين ، وعبدالكريم قاسم ، وطغاة آخرون .

التجسس الاجتماعى إذن جزء لا يتجزأ من محاكم التفتيش . وقد ظهرت محاكم التفتيش لأول مرة فى العصور الوسطى ، ونشطت فى أسبانيا عام ١٤٧٨ للقضاء على الهرطقة ، وسرعان ما أصبح كل شعب أسبانيا تحت ميكروسكوب محاكم التفتيش ، التى كانت تتكون جماعات صغيرة من موظفى الكنيسة ، الذين يستخدمون عدداً ضخماً من الجواسيس والمرشدين ، يساعدونهم فى عملهم، مقابل منحهم مميزات خاصة كالإعفاء من دفع الضرائب ، وعدم المثول كمتهمين أمام المحاكم العادية . وأدى ذلك إلى نمو عددهم بسرعة . وكانوا يتصيدون للناس أتفه الهفوات .



غرفة تعذيب ، فيها التنكيل بالمحرقة ، والتعليق ، والكى ، ونزع الأظافر ، وصب الماء الساخن فى الجوف ، بينما الكهنة يسجلون الاعترافات

بالإضافة إلى جيش الجواسيس الرسميين ، جعلت محاكم التفتيش كل مواطن جاسوسا غير رسمى ، وصارت تعاقب كل من يتوانى فى التبليغ عن بدعة أو هفوة بنفس عقاب مرتكبها ، فبدأ الناس يبلغون عن جيرانهم لأتفه الأسباب ، واستطالت

قوائم الجرائم المبلغ عنها - من ذلك - مثلا - أن رجلا فى سن الثمانين ، اتهمه صديق قديم ، بأكل البصل ولحم الخنزير فى يوم عيد . واتهمت امرأة جارتها بأنها ابتسمت حينما سمعت شخصاً يتحدث عن العذراء مريم .

وجه البعض اتهامات لجيرانهم لمجرد تصفية حساب عدائى بينهم وبلغ الذعر ببعضهم حد الاعتراف أثناء الاستجواب بآثام لم يرتكبوها . كانت البلاغات تقدم سراً ، والتعذيب يشتد لاستخلاص الاعترافات ، والأحكام تعلن على المتهمين فى احتفال وحشى كالح ، وفى نهاية حفل الموت يساق المحكوم عليهم إلى المحرقة ، وإذا اعترفوا فى اللحظة الأخيرة ، يشنقون عادة قبل إشعال النار

فى أسبانيا الكاثوليكية ، كان البروتستانت يسامون سوء العذاب . وكان الكاثوليك فى البلاد البروتستانتية يعاملون بنفس الوحشية . ولجأت العائلات الكاثوليكية أحيانا إلى بناء غرف سرية فى بيوتهم ، لإخفاء رهبانهم حينما يتهددهم الخطر .

★ كاردينال ريتشيليو والمجلس الأسود

ينتمى «**ريتشيليو**» إلى أسرة فرنسية نبيلة ، اسمه الأصلى «**أرماند دمى بليسيس**» . وهو منشئ أول جهاز جاسوسية منظم فى فرنسا . عين أسقفا عام ١٦٠٥ تحت رعاية الملكة الأم «**مارى دى ميدبسى**» . وبعد سبع سنوات عين وزيرا للخارجية ، لكنه سرعان ما أقيل بعد اغتيال «**كونسينى**» سكرتير الملك عام ١٦١٧ . وفى عام ١٦٢٢ عين كاردينالا ، ثم أعاده الملك لويس الثالث عشر إلى وزارة الخارجية ، وتقلد رئاسة الوزراء عام ١٦٢٤ . وأنعم عليه الملك بلقب «**دوق ريتشيليو**» عام ١٦٣١ وظل شاغلا لهذا المنصب حتى توفى عام ١٦٤٢ . وخلال هذه الفترة كان الحاكم الحقيقى لفرنسا ، المهيمن على جهاز مخابراتها ، ومؤسس «**المجلس الأسود**» ، الذى نظمه ليحدد قواعد التعامل والانسجام بين البلاط الفرنسى وطبقة النبلاء .


كاردينال ريتشيليو

تركزت سياسة ريتشيليو ـ كرجل دولة أولاً ، ورجل دين ثانياً ، ورئيس وزراء ثالثاً ـ فى إعلاء شأن فرنسا ، عن طريق تثبيت السلطة المطلقة للنظام الملكى ، بتقديم سياسة داخلية ثيولوجية ، وسحب سيطرة آل هابسبورج من السياسة الخارجية . ونجح فى إحباط طموح «جاستون أوف أورليانز» و «**دومى دى سنك مارس**» ، الطامعين فى عرش فرنسا .

استخدم «ريتشيليو» جهاز مخابرات مترامى الأطراف انتشر فى كل أنحاء فرنسا، حتى يضمن استمرار علمه بكل أفكار وأفعال النبلاء ورجال الكنيسة . وكان ساعده الأيمن فى ذلك كبير مستشاريه ، الراهب الكبوتشى «**جوزيف دى تريمبلى**» مدير خدمته السرية ، الذى كان يتميز بالمكر والدهاء مما أكسبه لقب «**الكاردينال الرمادى**» .

فى عنفوان قوته ، عقد «ريتشيليو» حلفا مع الزعيم السويدى البروتستانتى «**جوستاف أدلف**» . مما أضعف موقف أمراء ألمانيا ، ومكن فرنسا من التحكم فى الألزاس ، كما أنه أضعف نفوذ الأسبان بتشجيع الثورات فى البرتغال وكتالونيا ، وخطط لسقوط ولسينستاين .

كانت شبكة جاسوسية «ريتشيليو» فريدة من حيث أنها استمدت وجودها ومشروعيتها منه شخصياً . كان انتماؤها لشخصه أكثر مما كان للتاج . كان يدفع أجور عملائه من جيبه الخاص ، ثم يستعيض نفقاته من مال الدولة أكثر مما يدفع، على نقيض ما كان يحدث بين فرنسيس ويلسنجهام وملكة بريطانيا البخيلة .

أما المجلس الأسود الذى أنشأه «ريتشيليو» فقد حقق أهدافه من حيث إيجاد التوافق بين الملك والنبلاء . واستخدم «ريتشيليو» هذا الجهاز البوليسى السرى فى حماية عرش الملك لويس الثالث عشر أثناء حالات ضعفه ، وفى تحطيم قوى النبلاء ، كما استطاع كشف محاولات «جاستون أوف أورليانز» الأولى ، ومحاولات «دوق دى سنك مارس» الأخيرة فى الانقضاض على العرش . وامتد نشاط مخابرات «ريتشيليو» فى كل أنحاء فرنسا ، وفى كل دولة فيها مصالح لفرنسا . وتوفى الكاردينال عام ١٦٤٢ . بينما استمر نفوذ «المجلس الأسود» ١٥٠ سنة أخرى ، إلى أن ألغته الثورة الفرنسية .

جاسوسية عصر النهضة

تميز عصر النهضة باندثار المجتمع الإقطاعى الأوروبى ، وازدهار التجارة الدولية ، واتساع نطاقها ، وامتداد خطوط مواصلاتها ، والتهافت على احتكار الأسواق العالمية البعيدة ، والتسابق لنقل الحضارة العربية بأفكارها ومعارفها إلى أوروبا ، وإحياء التراث الإغريقى ، مما أوجد ثورة فكرية وحركة نقل ثقافى بدأت فى دول حوض البحر الأبيض المتوسط وما حولها ، واتسعت دوامتها حتى شملت العالم كله . وتدريجياً احتدم الصراع حول احتكار الأسواق ، وتطور الأمر فيما بعد إلى حمى الاستعمار . وخلال ذلك كله لعب التجسس دورا نشطاً متطوراً .

★ أوليفر كرومويل

فى إنجلترا حشد «**أوليفر كرومويل**» لأول مرة جيشا دائماً ، وكانت الجيوش من قبل تحشد لمعركة وتنفض بعدها . وكان يعرف أن المعركة بينه وبين الملكيين طويلة ، فحشد بالمثل جيشا من الجواسيس ، وعهد إلى «**جون تورليو**» بالإشراف عليهم ، فانتشروا فى طول الجزيرة وعرضها ، وكان لهم دور هام فى انتصاره على الملك «**شارل الأول**» فى يوركشاير عام ١٦٤٤ ، وفى معركة «**نيزباى**» . ويرجع الفضل للمخابرات فى الكشف عن محاولة الملك الاستنجاد بقوات أجنبية ، مما اعتبر خيانة عظمى ، قدم بمقتضاها للمحاكمة ، فحكم عليه بالإعدام .

قبل زحفه على «**أيرلندا**» لسحق مقاومة الملكيين ، وقبل ذهابه إلى إسكتلندا على رأس حملة مماثلة ، زودته مخابراته بسيل من المعلومات الدقيقة ، على ضوئها هزم الملكيين هزيمة منكرة فى «**دانبر**» ، وبعدها بعام واحد هزم الأمير «**شارلز الثانى**» فى «**وورسيستر**» ، وكانت تلك آخر معركة خاضها «**أوليفر كرومويل**» ، كما كانت أعظمها ، لأنه حقق أعظم النتائج بأقل الخسائر .

لقد لعب حسن تنظيم المخابرات دوراً هاماً فى انتصارات كرومويل ، ودعم مركزه ، وتعزيز حكمه الجمهورى بعد اندحار الملكية ، على عكس ما حدث فى عهد ابنه «**ريتشارد كرومويل**» ، الذى أهمل المخابرات ، وخسر الحكم .

★ دانيـال ديفـو


دانيال ديفو

كان «**دانيال ديفو**» من أعظم الروائيين فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وكان من أبرع عملاء الملكية . على الرغم من ذيوع صيته بتأليف «**روبنسون كروزو**» ، إلا أنه كان يعمل فى الخدمة السرية للملكة «**آن**» . كان يبدو كما لو كان ظاهرياً من الثوار ، وموزعى المنشورات ، ومثيرى الفتن، مما أدخله السجن مرتين ، وكانت خلفيته لا تتيح له أن يجارى عالم التجسس لصالح الملكية .

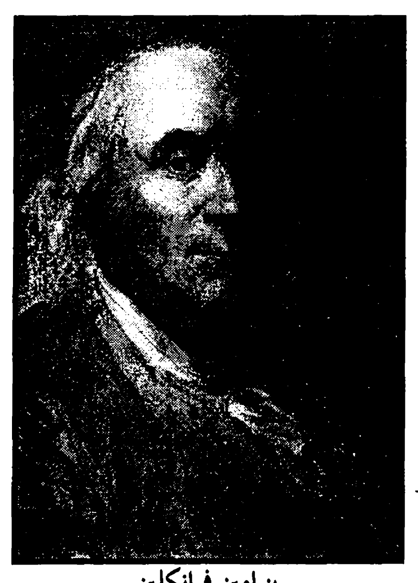
أهم ما يميز «**دانيال ديفو**» حدة ذهنه ، وقوة عينيه فى تسجيل التفاصيل ، وقدرته على مواصلة الملاحظة دون تعب أو ملل . وهذه هى السمات التى لفتت إليه انتباه «**روبرت هارلى**» إيرل اكسفورد ، الذى دبر إطلاق سراحه من السجن ، مقابل وعد بالوفاء والولاء لهارلى . وقد وفّى بالوعد فعلا لكل من «هارلى» واللورد «**جولد سميث**» من بعده ، حتى أن الأخير أوصى به خلفاً له ، حينما أُقصى عن مركزه كرئيس للمخابرات عام ١٧١٠ .

تظاهر «ديفو» بأنه سئم المبادئ السياسية وفقد اقتناعه بها تدريجياً كلما أوغل فى مجاهل الجاسوسية ، ولما ازداد خطر «**آل سيتوارت**» ، أرسله الملك «**جورج الأول**» فى جولة حول البلاد ، منتحلا اسم «**الكزاندر جولد سميث**» أحياناً ، واسم «**كلود جيلوت**» أحياناً أخرى ، وأمكنه خلال الجولة أن يكتشف العناصر المؤيدة لآل سيتورات والتى يحتمل أن تتشكل منها المقاومة ، كما استطاع فى نفس الوقت تكوين شبكة مخابرات تتبعه مباشرة .

ومع نجاحه الواضح كجاسوس ، إلا أنه ظل روائياً غزير الإنتاج ، يتفانى فى خدمة الملك جورج ، ولم يوقفه ذلك عن تأليف كتابه «جولة خلال إنجلترا وويلز» فقد كان مغرما بالتأليف ، فضلا عن أن الكتابة كانت تدر عليه ربحاً إضافياً .

★ بنيامين فرانكلين

كان بنيامين فرانكلين رجلا بادئ الهدوء والوقار فكراً وسلوكاً . وكان دبلوماسيا بارعا ، وعميلا ذا وجهين . من خلال عضويته فى نادى « **هيلفاير**» المشهور ، تعرف على عدد من الوجهاء وكبار الشخصيات ، من بينهم «**لورد بوت**» رئيس الوزراء ، وسير «**فرانسيس داشوود**» مستشار الخزانة ، الذى راسله سرا فيما بعد .


بنيامين فرانكلين

حينما كان «فرانكلين» سفيرا لأمريكا فى باريس ، سمح لصديقه ومساعده الأول «**إدوارد بانكروفت**» بتنظيم وحدة خدمة سرية بريطانية فى السفارة . وهكذا وجدت طريقها إلى لندن كل المعلومات الآتية من « **واشنطن**» مع كمية ضخمة من المعلومات التى يجمعها العملاء الفرنسيين . وكان فرانكلين يمرر إلى «لندن» المعلومات المتعلقة بمواعيد إبحار السفن، وأنواع وأوزان الشحنات المرسلة إلى جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

الهدف الذى كان يسعى «فرانكلين» إلى تحقيقه هو وضع قدميه فى كل من المعسكرين . كان يعرف أن «الملك چورچ» سوف يكافئ بسخاء أى شخص يستطيع إعادة المستعمرات تحت ظل بريطانيا ، وكان عليه فى الوقت نفسه أن يستعد لحقائق الاستقلال ، وأثبتت الأحداث أنه كان على حق ، ذلك أن «**چون كويسى آدمز**» ، الرئيس الثانى للولايات المتحدة الأمريكية ، أعرب خلال مفاوضات السلام عن شكه فى ولاء «فرانكلين» ، لكنه عجز عن تقديم أدلة تكفى لإدانته . ومما تجدر الإشارة إليه ، أن «بنيامين فرانكلين» الذى توفى عام ١٧٩٠ ، كان عالماً ومخترعاً بالإضافة إلى كونه دبلوماسيا وجاسوسا .

★ إعدام جون أندرى

يشار إلى «**جون أندرى**» بأنه الجاسوس الوحيد الذى كرمته بريطانيا بلوحة تذكارية فى دير «**ويستمنستر**» . وهو ابن تاجر سويسرى فى لندن . ارتقى فى

السلك العسكرى حتى رتبة رائد ، وشغل منصب مساعد قائد القوات البريطانية فى نيويورك . وحينما استسلم الجنرال الأمريكى «**بينيديكت أرنولد**» للقوات البريطانية عام ١٧٨٠ ، أوفد «**أندرى**» للتفاوض معه .

تزود «أندرى» بجواز مرور يحمل اسماً مزوراً هو «**جون أندرسون**» ، لكن مما يؤسف له أن تنكره لم يكن محكماً . ولما أوقفته دورية أمريكية شكت فى أمره ، ارتكب أندر خطأ قاتلا ، إذ اعترف بأنه ضابط بريطانى وحاول أن يتخلص من المأزق بتقديم رشوة إلى الدورية .

تم القبض عليه ، وحاكمته محكمة عسكرية ، أدانته بتهمة التجسس ، وحكمت عليه بالإعدام شنقاً . تدخل عدد كبير من الشخصيات الأمريكية يطلبون تخفيف الحكم عنه ، إلا أن جهودهم ذهب أدراج الرياح . ونفذ فيه حكم الإعدام فى «**تابان**» ، فجر اليوم الثانى من أكتوبر عام ١٧٨٠م . ويعتبر «**جون أندرى**» نموذجا لجندى الجاسوسية الذى اقتحم معركة لم يعد لها .

★ جيمس روبرتسون

لم يكن جندياً تقليدياً . وكان له اسمان : «**آرثر ويلزلى**» و «**دوق ويلينجتون**» . استفاد من خدمته كعميل بينما غيره من القادة الأكثر تحفظا لم يستفيدوا مثله من المعلومات التى حصلوا عليها . ينتمى «جيمس روبرتسون» إلى دير «**البنديكت**» فى ريجينزبيرج ، وفيه سمى «بالأخ جيمس» . وكان يتحدث اللغة الألمانية بطلاقة.

أول مهمة قام بها «جيمس» كانت تحسين مصير ١٥٠٠٠ جندى أسبانى انقطعت بهم الأسباب فى «الدانمارك» . وذلك بتكليف من وزارة الخارجية ، أقنع نابليون حلفاءه السابقين ـ قبل شن هجومه المفاجئ على أسبانيا ـ بأن «الدانمارك» مهددة بهجوم بريطانى ، وطلب من أسبانيا إرسال ١٥٠٠٠ من أفضل الجنود تدريبا وتسليحا لحمايتها .

ذهب «**جيمس**» إلى مقر الخدمة السرية البريطانية فى «**هيليجولاند**» ، ومن هناك هربوه فى زورق صغير إلى مصب نهر «ويزر» فى ألمانيا ، منتحلا اسم «**آدم وهرور**» . علم أن القوات الأسبانية قد وزعت على سلسلة من الجزر الصغيرة المعزولة فى حالة يرثى لها ، مما جعلها تفقد لياقتها القتالية.

عبر البحر إلى جزيرة «**فونين**» حيث قابل «**الماركيز دى رومانا**» القائد الأسبانى، اتفق معه على تأمين رحلة بحرية آمنة له ولقواته إلى أرض الوطن ، على سفن الأسطول البحرى الملكى البريطانى .

بعد رحلة زاخرة بالأحداث الخطيرة نجح «روبرتسون» فى العودة إلى «هيليجولاند» . وهناك أمكنه الاتصال بقائد البحرية البريطانية الأدميرال «كبتس» ، الذى استطاع نقل ٩٠٠٠ جندى أسبانى من الجنود المعزولين فى جزر ساحل الدانمارك . حملتهم سفينة حربية بعد عدة أيام وأعادتهم إلى أسبانيا ، ليلعبوا دورا هاما فى معركة «ويلينجتون» .

★ الفارس د ـ يون .. رجل أم امرأة؟

فى ٢١ مايو ١٨١٠ ، توفيت فى لندن امرأة فرنسية تعرف باسم «الآنسة د ـ يون» . وهنا فقط فحص الأطباء جثمانها ، فوضعوا نهاية للجدل الذى أحاط بحياتها ، وبعد أربعة أيام من وفاتها ، نشرت جريدة «**التايمز**» خبرا مذهلا عنوانه : «**الآنسة د ـ يون كانت رجلا**» .

قصة «**د ـ يون**» من أغرب قصص الجاسوسية فى التاريخ . بدأ حياته العملية جاسوسا فى خدمة «**لويس الخامس عشر**» ملك فرنسا عام ١٧٥٦ . أرسله لويس إلى «**روسيا**» لتحضير معاهدة سرية مع إمبراطورة روسيا . ولما كان وزراؤها متشككين فى الفرنسيين ، ذهب د ـ يون متنكراً فى شخصية سيدة فرنسية ، وأصبحت الجميلة «ليادى بومونت» ذات حظوة ناجحة فى البلاط الروسى . وقيل إنها صارت هدفا لكبار الرسامين يتهافتون على رسمها . وفى الوقت نفسه نجحت «الجميلة ليا» فى عقد المعاهدة مع الإمبراطورة ، وهربتها معها إلى فرنسا .



د ـ يون فى زى الفارس

فى عام ١٧٦٢ وجد «**الملك لويس**» مهمة أخرى لجاسوسه الموهوب «د ـ يون» أرسله إلى إنجلترا لمساعدة السفير الفرنسى هناك . ذهب «د ـ يون» هذه المرة كرجل بشخصيته الحقيقية مع

الإحتفاظ بوظيفته كجاسوس مهمته الرئيسية هى التحقق من مدى استعداد إنجلترا للحرب ، حيث كان الملك لويس الخامس عشر يضع خطة لغزو إنجلترا . كان «**د ـ يون**» يؤدى خدماته بمهارة عالية ، أهلته بسرعة للحصول على وسام «**فارس**» ، وجعلته يطمع فى وظيفة السفير ، كان شخصية محبوبة فى المجتمع الإنجليزى الراقى . كان مضيافا يكثر من إقامة الحفلات وينفق عليها ببذخ ، مما أغرقه فى الديون .

لكن الملك لويس بدأ يخشى جاسوسه الذى يعرف وثائق سرية كثيرة قد يستغلها ضده .. لم يفز «د ـ يون» بوظيفة السفير ، وإنما صدرت له الأوامر بالعودة إلى فرنسا . فامتعض ، ونشب عداء بينه وبين «**جويرتشى**» السفير الجديد ، الذى دبر عدة محاولات للاعتداء على حياة «د ـ يون» . بما فيها القتل والاختطاف ، لكنها فشلت جميعا . لجأ «د ـ يون» إلى تحصين بيته فى شارع بربوار بحى سوهو، وشدد عليه الحراسة برجال مسلحين . وأخفى وثائقه السرية فى خزانة بجدار غرفة نومه ووصلها بمتفجرات .

ذاعت أخبار العداء المستحكم بين «د ـ يون» والسفير الفرنسى ، وانحازت جماهير لندن إلى صف «د ـ يون» ، يسخرون من «جويرتشى» فى الطرقات ، ويحطمون نوافذ بيته بالحجارة . وأخيرا استدعى للعودة إلى فرنسا مهيض الجناح ، وبقى «د ـ يون» فى إنجلترا ، لكن أحداث العداء أفقدته بعض اتزانه ، فبدأ يرتدى ملابس النساء فى الأماكن العامة ، وبدأت الشائعات تنتشر حوله ، بما فيها المراهنات على حقيقة جنسه .

فى عام ١٧٧٤ مات الملك لويس ، وألغت الحكومة جهاز الخدمة السرية ، لكن «د ـ يون» رفض تسليم وثائقه السرية ما لم يصرفوا له مبلغا من المال . وهكذا كان الجاسوس يبتز ملك فرنسا الجديد . وفى عام ١٧٧٥ أرادت حكومة فرنسا أن تضع نهاية لمهزلة الوثائق السرية ، وقررت تفويض الكاتب المسرحى المغامر «**كارون بومارشيه**» ، مؤلف «**حلاق إشبيليه**» ، و «**زواج فيجارو**» ، وكان أيضا جاسوساً فرنسياً .

سافر «بومارشيه» إلى إنجلترا . وبعد مفاوضات عسيرة طويلة ، وافق «د ـ يون» على تسليم الوثائق ، مقابل أن تسدد حكومة فرنسا ديونه ، والسماح له

بالعودة إلى فرنسا ، وبشرط أن يكف «د ـ يون» عن إثارة الفضائح ، وأن يرتدى ملابس النساء مدى الحياة .

★ أول مخابرات أمريكية عصبة كولبر

فى عام ١٧٧٥ اشتعل فتيل الحرب بين بريطانيا ومستعمراتها الأمريكية . أسرعت بريطانيا باحتلال نيويورك وجزيرة «**لونج أيلاند**» المجاورة لها ، وسرعان ما أسروا بعدها جاسوسا أمريكيا اسمه «**ناثان هيل**» ، خلدته كلماته الأخيرة التى صاح بها على المقصلة ، وجعلته أشهر جاسوس فى تاريخ أمريكا ، إذ قال : «آسف فقط ، لأنى لا أملك سوى حياة واحدة أقدمها لوطنى» .

لقد كانت وفاة «هيل» حافزا قوياً دفع چورج واشنطن إلى التصميم على تكوين جهاز مخابرات كفء ، وأسند تشكيله وإدارته إلى رجلين كانا صديقين «لهيل» ، هما : الميجور «**بنيامين تولمادج**» و «**روبرت تاونسيند**» ، وأطلق عليها اسم «عصبة كولبر» ، لأن «**تاونسيند**» كان يستخدم اسم «**صمويل كولبر**» .

كتب «**جورج واشنطن**» رسالة بالشفرة عام ١٧٧٨م تعطى فكرة عن نوع المعلومات التى كان يهتم بجمعها ، جاء فيها : «اختلط أكثر ما يمكنك بالضباط واللاجئين ، وزر المقاهى والحانات وغيرها من الأماكن العامة ، اعرف ما إذا كانت فضلات أعمال ملقاة على شاطئ «**نهر هارلم**» أو بالقرب من حى «**هارلم**» ، وما إذا كانت «**هورنز هوك**» قد حصنت . وإذا كان الأمر كذلك ، كم رجلا فى كل مكان؟ وما عدد وحجم المدافع فى تلك المواقع ؟ .

لا يتوقف نشاط «**عصبة كولبر**» على تمرير المعلومات . لقد اكتشفوا بالصدفة عام ١٧٨٠م جاسوسا بريطانيا اسمه «**جون أندرى**» . احتلت القوات البريطانية خليج «**أويستر**» على «**لونج آيلاند**» ، واتخذ عدد من الضباط البريطانيين من بيت «تاونسيند» مسكنا . اكتشفت أخت «تاونسيند» واسمها «**سارة**» أن أحد الضباط يتسلم رسائل تحت اسم مزيف هو : «**جون أندرسون**» ، بينما اسمه الحقيقى «ميجور جون أندرى» . ارتابت «سارة» فى أمره ، وازداد شكها حينما سمعت الميجور أندرى يلح فى السؤال عن تفاصيل التحصينات والقوات الأمريكية فى «ويست بوينت» ، فأخبرت «تالمادج» أن «أندرى» قد يكون جاسوسا .

مهما يكن الأمر ، فقد استلم «تالمادج» خطابا من الجنرال الأمريكى «بينديكت

أرنولد» فى «ويست بوينت» ، يطلب منه ترتيب حرس إلى «ويست بونيت» ومنها لمرافقة أحد أصدقائه ، واسمه السيد «جون أندرسون» !! هل كان أرنولد يريد الاتصال بعميل بريطانى؟ هل كان جنرالا أمريكيا ، أم خائنا؟ .

أسرع «تالمادج» بإطلاق رجاله فى أعقاب أندرى ، لكنه كان متأخرا جدا ، لأن «أندرى» كان قد وصل فعلا إلى «ويست بوينت» ، واتصل بالجنرال «بينديكت أرنولد» ، وسلك طريق العودة خلال الخطوط ، يحمل رسالة من «أرنولد» وبخطه إلى البريطانيين . اشتبه فى أمر «أندرى» ثلاثة من الجنود الأمريكيين المتطوعين ، فاعتقلوه ، وحوكم ، وأعدم كجاسوس .

بتفتيش «الميجور أندرى» بعد اعتقاله ، اتضح أنه يحمل جواز مرور زوده به «بينديكت أرنولد» ، يحمل اسما مزيفا هو «جون أندرسون» . وعثر فى حذائه على رسالة من «بينديكت أرنولد» إلى البريطانيين . يعرض فيها الخيانة بتقديم المعلومات عن تحصينات «ويست بوينت» ، مقابل ٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى .

كتب أرنولد فى رسالته : «إذا حددت خطة تعاون لاستيلائكم على ويست بوينت . المعسكر ، والمخازن ، والأسلحة ، وغير ذلك ، فإن ٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى ـ فى اعتقادى ـ صفقة رخيصة مقابل شئ فى مثل هذه الأهمية العظيمة . وفى الوقت نفسه أطلب دفع ألف جنيه إلى عميلى . أتوقع ردا كاملاً واضحاً . سأذهب إلى «ويست بوينت» فى العشرين من هذا الشهر . أرى أن مقابلة شخصية مع ضابط تثقون فيه ، ضرورية جدا ، لتخطيط الأمور» .

******

نابليون بونابرت وإمبراطور الجواسيس

من فرط اهتمام نابليون بونابرت بالجاسوسية ، واعترافه بفضلها فى كسب المعارك الحربية ، أنه قال إن جاسوسا واحدا فى المكان المناسب ، يساوى ٢٠٠٠٠ مقاتل فى الميدان . وهو الذى اكتشف مواهب «**كارل شولميستر**» الذى كان يعمل مهربا ، فعينه قومسيرا عاما لجيوش الإمبراطورية الفرنسية فى الميدان ، لبراعته فى أعمال المخابرات ، وإسهامه العظيم فى نجاح العمليات العسكرية ، وأطلق عليه لقب «**إمبراطور الجواسيس**» .

قامت الحرب بين النمسا وفرنسا . وكانت قوات الإمبراطور الفرنسى «نابليون» ترابط على طول نهر «الراين» ، تتأهب للهجوم . وفى النمسا كانت حامية عسكرية قوية تحمى قلعة «**آلم**» الاستراتيجية ، التى تحرس الطريق إلى «فينا» عاصمة النمسا .

فى أواخر عام ١٨٠٤ حضر إلى «فينا» نبيل مجرى شاب ، وسيم، أنيق . اتسم باللباقة والكياسة ، وسرعان ما فاز بتعاطف وحب المجتمع الفيينى ، بسبب قصته الحزينة ، ذلك لأن نابليون طرده من فرنسا، وفقد كل شئ . لذلك شعر كثيرون بأن الشاب المجرى ربما يكون مفيدا لأزمة النمسا ، خصوصا وأن لديه معلومات جيدة عن الدولة الفرنسية ، وقواتها المسلحة . وهؤلاء نظموا له لقاء مع «**المارشال ماك**» قائد جيش النمسا ، وقدموه له .



نابليون

أعجب «ماك» بعمق إدراك الشاب النبيل للموقف العسكرى أيما إعجاب . فضمه إلى هيئة أركان حربه ، وجعله رئيسا للمخابرات ، المنصب الذى لم يحلم به الشاب ، لأنه لم يكن سوى «كارل شولميستر» ، كبير جواسيس نابليون ، المدسوس على النمسا .

انطلق «شولميستر» يعمل فى الحال ، مغذيا القائد النمساوى بمعلومات مزيفة . ادعى أنه عرف من مصادر موثوقة أن الجيش الفرنسى فى حالة انهيار ، وقدم ـ إثباتا لذلك ـ خطابات مزورة زعم أنها من ضباط فى وحدات فرنسية متمردة . ورشا اثنين من ضباط الأركان : «**ويندين**» و «**رولسكى**» ، أوعز إليهما أن يسمعا «المارشال **ماك**» قصصا مشابهة . ومن ناحية أخرى نشر نابليون فى صحف خاصة بفرنسا أخبارا تبدو وكأنها تؤكد روايات «شولميستر» وصاحبيه .

صدق «**ماك**» أن القوات الفرنسية المتمردة تتقهقر خلف خط نهر «**الراين**» ، فقاد قوة من ٣٠٠٠٠ رجل . خرج بهم من قلعة «**أولم**» الحيوية ، على أمل مباغتة جيش نابليون المنهار . وكانت تلك هى الفرصة التى ينتظرها المارشال «**ناى**» الفرنسى ، ضرب ضربته من الأمام . وحوصر الجيش النمساوى : قوات الچنرال «**سولت**» والچنرال «**دوبونت**» من جهة ، وقوات الچنرال «مارمونت» والچنرال «لانس» من جهة أخرى . وكان على «ماك» أن ينسحب ، لكنه وجد قوات الچنرال «مورات» تسد عليه خط الرجعة ، فاضطر إلى الاستسلام ، وانتهت المعركة بنصر حاسم لفرنسا بدون إراقة دماء ، وبعد أقل من شهر دخل الفرنسيون «فينا» واحتلوها لأول مرة فى التاريخ . واعتبر المارشال «ماك» خائنا فسجنوه إلى أن أعلن موقف «شولميستر»



استسلام الجيش النمسوى

كانت تلك أعظم عمليات إمبراطور الجواسيس «شولميستر» ، ولم تكن الوحيدة، فقد تورط فى عملية خطف واغتيال شاب من أعضاء الأسرة المالكة السابقة ، وفيما بعد عمل جاسوسا لنابليون فى إنجلترا وفى فرنسا ذاتها . وكان نابليون يجزل له العطاء مقابل خدماته ، فأصبح مالكا لمزرعتين عظيمتين يفاخر بهما . أعرب لخلصائه دائماً عن أمله فى أن يمنحه «نابليون» وساما . وكان الحصول على وسام جوقة الشرف الفرنسية هو أعز أمانيه . لكن نابليون كان حازما فى تلك النقطة ، فقد قال فى ذلك : «الذهب هو المكافأة المناسبة الوحيدة للجواسيس» .

فقد «شولميستر» نصف ثروته حينما خسر «نابليون» معركة «**واترلو**» عام ١٨١٥ ، وفقد النصف الآخر فى الأسهم والسندات المالية وتجارة الماشية وتوفى إمبراطور جواسيس نابليون عام ١٨٥٣ فقيراً معدماً ، لا يملك سوى كشك طباق فى أحد شوارع مدينة «ستراسبورج» .

★ مخابرات آل روتشيلد

يعتبر بيت «روتشيلد» اليهودى فى لندن أول جهاز مخابرات اقتصادية مدنى خاص ، يعمل لصالح أصحاب رؤوس الأموال ، وقد استفاد آل روتشيلد كثيرا من جمع المعلومات فى تنمية أموال مصرفهم عام ١٨١٥ ، كما أفادوا المتعاملين معهم ، وحققوا أهدافا استثمارية ضخمة . وكانوا يحصلون على المعلومات الهامة ذات العلاقة بأسواق المال ، قبل أن تحصل عليها الحكومات .

من ذلك مثلا أن أوروبا كلها كانت تترقب نتيجة معركة «واترلو» . وعرف «ناثان روتشيلد» فى لندن أن الإنجليز كسبوا الحرب ضد نابليون ، فأغرق سوق المال بسندات على حكومة بريطانيا ، وعرضها للبيع . وقلده كل من كانوا يرقبون تحركاته معتقدين أن الإنجليز خسروا المعركة ، فهبطت الأسعار . وفى اللحظة المناسبة اشترى «روتشيلد» كل ما فى سوق المال من سندات بأسعار منخفضة ، فلما انتشر خبر انتصار بريطانيا ، ارتفعت أسعار سندات الحكومة البريطانية ، وكسب آل روتشيلد الملايين .

هذا وقد خلت أوروبا من أى جهاز مخابرات منظم لمدة نصف قرن بعد انكسار نابليون ونفيه ، اللهم إلا من آل روتشيلد ، الذين يحصلون على المعلومات قبل أن تحصل عليها الحكومات ، وما زالوا يهتمون بها حتى اليوم لأغراض اقتصادية على الأقل ، ولاشك أنهم استفادوا من شبكات بنوك المعلومات الآلية .

★ ويليهيلم ستيبر وكلاب صيد بسمارك


الأمير ڤون بسمارك

فى عام ١٨٤٨ تعرض ملك بروسيا «فريدريك ويلهيلم» إلى سخرية جمع من جمهور الغاضبين فى برلين . كانوا فى حالة من هياج خطير . وفجأة اندفع رجل من الزحام نحو الملك صائحا : «الموت للطاغية» ولما وصل إلى الملك المذعور ، قال له فى صوت هامس : «لا تخف يا صاحب الجلالة أنا من رجال البوليس . رجالى منبثون فى الزحام . إنهم حريصون على ألا يمسك سوء» . ثم صاح الرجل بتهديدات أعلى ، ودفع الملك بمنكبيه إلى بوابة تخرجه من الشارع . وظل يدفع الملك ، ثم أحكم إغلاق البوابة . ولما أبعده بمنجاة من الجمهور ، قدم نفسه له ، وكان اسمه «**ويليهلم ستيبر**» .

كان «ستيبر» محاميا شابا طموحا ، يعمل فى نفس الوقت مخبراً سرياً للشرطة . وأعرب الملك له عن امتنانه لحمايته من الجمهور الغاضب ، وعبر عن امتنانه هذا بعد عامين بتعيينه مفوضا للشرطة ، ومن هنا بدأت رحلة «ستيبر» الطويلة كرئيس للمخابرات ، وتوالت أعظم إنجازاته فى الستينات من القرن التاسع عشر . فى هذه الفترة ساعد «بسمارك» رئيس وزراء بروسيا فكسب حربين هامتين : الأولى ضد النمسا ، والثانية ضد فرنسا . كانت مهمة «ستيبر» هى معرفة مدى قوة الأعداء واستعدادهم للقتال . لم يكن من عادته أن يكتفى بالجلوس إلى مكتبه وإلقاء الأوامر على جواسيسه . كان «**كلب الصيد**» الغامض يحب الاشتراك فى عمليات التجسس بنفسه .

قبل حرب النمسا ـ على سبيل المثال ـ طاف بنفسه فى مسارح المعارك المتوقعة، ذهب متنكرا فى شخصية بائع متجول ، ومعه حمل عربة من التماثيل الرخيصة الدينية ، وكان يبيع سرا أشياء داعرة يكسب بها صداقة جنود النمسا والفلاحين الشبان المنحلين الذين يقابلهم ، وتعجبهم صور الفجور والفسق .

وقبل حرب فرنسا ، طاف «ستيبر» بأقاليم العدو ، لكنه فى هذه المرة أرسل آلاف

الجواسيس . فبحثوا عن مواقع مخازن الأسلحة ، وتحصينات الدفاع وأرسلوا تقارير دقيقة عن حالة الطرق الفرنسية ، لكى تتمكن القوات البروسية من التحرك بسرعة حينما تغرو فرنسا . سجلوا قوائم وخرائط بمواقع مزارع تربية الماشية ، حتى تعرف القوات من أين تحصل على الطعام . وكانت هذه الدرجة من الاختراق جديدة على عالم الجاسوسية .

بعد انتصار «بروسيا» ، مد «ستيبر» عملياته فى أنحاء أوروبا ، استخدم فى جاسوسيته عمال سكك حديد أجانب ، وعمال المقاهى والحانات والمطاعم والفنادق والمصانع . وشحن الشركات الألمانية فى الخارج بجواسيسه ، وأصبحت المخابرات الألمانية مصدر الخوف الغالب فى أوروبا . اعتنق «ستيبر» سياسة «التحريف» . فقد أصر على أن يقتل جواسيسه جواسيس العدو كما يقتل الجنود خصومهم فى زمن الحرب . وأعد ملفات بتفاصيل الحياة الشخصية للأثرياء وأصحاب النفوذ ، ليستخدمها فى الابتزاز . وتوفى «ستيبر» عام ١٨٩٢ ، وازدحمت جنازته بزعماء العالم والنبلاء وقيل إن هذا الحشد العظيم لم يحضر جنازته ليعرب عن احترامه وحزنه ، وإنما ليتأكدوا بأن كلب الصيد العجوز مات فعلا .



ويلهيلم ستيبر

ومما يذكر أن «ستيبر» استفاد كثيرا من عمله كمحام للمجرمين ، ومن اتصالاته فى عالم الإجرام ، حينما أصبح جاسوس ألمانيا الأول . كما استفاد من آلاف الجواسيس الذين نشرهم فى الخارج وكلفهم بالاهتمام بكل قصاصة معلومات مهما بدت تافهة ، لأنها قد تكون ذات قيمة عالية .

وفى برلين أقام ما يسمى «بالبيت الأخضر» ، يقوم فيه بتصوير ضحاياه فى مواقف مشبوهة تؤثر على مركزهم فى الدولة .

★ ألان بينكيرتون ومخابراته الأهلية

ولد «**ألان بينكيرتون**» فى «جلاسجو» عام ١٨١٩ ، وفى سن مبكر أظهر اهتماما ملحوظا بالإصلاح السياسى وتحسين أحوال الطبقة العاملة ، قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٢ . وفى عام ١٨٥٠ أسس وكالة بينكيرتون الأهلية للمخابرات السرية ، وحاز على شهرة ملحوظة خلال سنوات قليلة.

فى أواخر الخمسينات بات واضحا أن النزاع بين الشمال والجنوب سوف يؤدى إلى حمام دماء . ورجح كفة نشوب الحرب انتخاب «**أبراهام لينكولن**» رئيسا للجمهورية عام ١٨٦٠ ، بدأ الجنوب فى إرسال جواسيس إلى الشمال فورا لينشروا دعاية ضد الفيدرالية ، والبحث عن أهداف يمكن تخريبها فى المستقبل .

بدأ وجهاء الشمال يدركون أخطار أنشطة الجنوب ، فعملوا على حماية استثماراتهم ، ومنهم : «صمويل فيلتون» من ڤيلاديلفيا ، وسكك حديد «ويلمنجتون» و «بالتيمور» . وقد استأجرت الشركة الأخيرة بينكيرتون وعددا من أتباعه لحماية الخط الحديدى من الانفصاليين المتآمرين فى «ماريلاند» . ذهب «بينكيرتون» إلى «بالتيمور» فى فبراير ١٨٦١ حيث قيل إن المتآمرين اختاروها مقرا لقيادتهم ، اصطحب معه «**تيموثى ويبستر**» ، و «**هنرى ديفيز**». الأول ذو خبرة عالية ، والثانى من سكان «**نيو أورليانز**» السابقين ، وقد تعرف بالفعل على عدد من الخصوم .

سرعان ما اكتشف «ديفيز» أن المارشال «كين» ، رئيس شرطة «باليتمور» متعاطف مع الجنوب ، وأعلن بوضوح أنه لن يفعل شيئا ضد أى محاولة للاعتداء على حياة «أبراهام لنكولن» . حاز «ديفيز» تماما على ثقة المتآمرين ، حتى أنهم سمحوا له بحضور الاجتماع النهائى ، الذى نوقشت فيه خطة اغتيال «لينكولن» . على الرغم من أنه لم يحصل على تفاصيل عن شخصية المرشح لارتكاب الجريمة، ولا وسيلة الاغتيال ، إلا أن المعلومات جعلت بينكيرتون يؤكد أن فكرة الاعتداء على حياة الرئيس قد أصيبت بالإحباط .

أبلى «بينكيرتون» بلاء حسنا فى تعامله ضد الانفصاليين ، فلما نشبت الحرب، وأدرك «لينكولن» ضرورة إنشاء جهاز جاسوسية ، طلب الرئيس من «بينكيرتون»

تنظيم الجهاز . وعلى الرغم من أنه كان مخبرا سريا ممتازا ، إلا أنه كان يعرف القليل عن كيفية إدارة المخابرات العسكرية . خلال الشهور التى تلت تأسيس جهاز الخدمة السرية البدائى ، تورط الجهاز فى كارثة تلو الأخرى ، وبلغت كوارثه الذروة بأسر «وييستر» ثم إعدامه .

تقبل «بينكيرتون» فشله كمدير للمخابرات ، لكن الشمال لم يجد أحدا يحل محله ، إلى أن ظهر «لافاييت بيكر» ، الذى أثبت فيما بعد أنه من ألمع الجواسيس فى التاريخ ، وأبرع مديرى المخابرات . عاد «بينكيرتون» بعد الحرب إلى أعمال المخابرات الأهلية الخاصة ، وركز جهوده على مكافحة قطاع الطرق ، وعصابة كو ـ كولوكس ـ كلان .

★ جرينفيل دودج

تحت إدارة الجنرال «**أليسيس جرانت**» عملت قوة مخابرات ضخمة ، كانت أنشط مثيلاتها وأكثرها فعالية ، وقد أدت واجبها بكفاءة خلال الحرب الأهلية الأمريكية من عام ١٨٦١ـ١٨٦٥ ، وأصبحت النموذج الأول لاستخدام الجاسوسية على نطاق واسع فى الحرب الحديثة .

تعلم «جرانت» فائدة الجاسوسية فى سبتمبر ١٨٦١ ، حينما أخبره عميل أن القوات الكونفدرالية تستعد للزحف نحو مدينة «بادوكا» بولاية «كينتاكى» ، وهى مدينة ذات موقع استراتيجى على ملتقى نهرى «أوهايو» و «تينيسى» تحرك «جرانتى» بسرعة لتأمين البلدة ، واحتلها بدون قتال .

بعد سبعة أشهر ، تعلم جرانت درسا مفيدا آخر حينما أخفق جواسيسه فى أخباره عن احتشاد ٤٠٠٠٠ كونفدرالى ليشنوا هجوما مفاجئا على خطوطه فى «شيلو تشيرش» بولاية «تينيسى» . عزم على ألا يؤخذ على حين غرة مرة أخرى ، فقرر بناء جهاز مخابرات تابع له ، وأسند إدارته إلى البريجادير جنرال «جرينفيل دودج» .

ولد «دودج» فى «ماساشوستس» ، وحصل على درجة علمية فى العلوم العسكرية والهندسة المدنية فى «فيرمونت» و «نيوهامبشاير» ، ثم بدأ حياته العملية المبكرة فى خدمة سكك حديد «ميسيسيبى وميزورى» . ولما قامت الحرب انضم إلى الخدمة العسكرية كولونيلا لفرقة المشاة الرابعة فى «لودا» . وأشرف فى نفس

الوقت على قاعدة «رولا» العسكرية بولاية «ميسورى» ، وأنشأ فيها أول سلاح فرسان فى «تينيسى» ، وأسس قوات منظمة تؤدى الكثير من وظائف الجاسوسية ، للعمل غرب المسيسيبى ، وسرعان ما تطورت وأنتجت شبكة مخابرات مدنية ، استخدمت نساء لجمع المعلومات خلال خطوط الاتحاديين وتقديمها لقوات «دودج» .

فى موقعه «**بى ريدج**» ، أصيبت ثلاث خيول بطلقات نارية وهو يمتطيها ، كما أصيب «دودج» بجرح بالغ ألزمه الفراش شهرا ، ورقى إلى رتبه «بريجادير جنرال» ثم صدر قرار بنقله إلى غرب «تينيسى» حيث تكرر تجربته مع الكشافة والجواسيس فى أكتوبر ١٨٦٢ استدعى «دودج» للعمل فى قيادة «جاكسون» ، وأسندت إليه قيادة فرقة ، وطُلب منه أن ينشىء شبكة جاسوسية .

جمع «**دودج**» قوة مكونة من ١١٧ جاسوساً ، تغطى عملياتهم ما بين «ميفيس» و «موبيل» ، وما بين «أتلانتا» و «ريتشموند» . وكان كل جاسوس أو جاسوسة يتقاضى أجرا يتناسب مع صعوبة عملياته وخطورتها ، كما يحصل على مصروفات تتراوح بين ٥٠٠٠ دولار و ١٠٠٠٠ دولار قبل القيام بكل مهمة . وجد «دودج» متعة فى نجاحه العظيم فى دعم حملة «جرانت» على «فيكسبيرج» عام ١٨٦٣ ، والإرشاد عن تجمعات عسكرية فى «ألباما» ومواقع أخرى . وقد عنى «دودج» بحماية جواسيسه عن طريق كتمان أسمائهم وإعطائهم أرقاما سرية .

ثلاث جاسوسات
فى الحرب الأهلية الأمريكية

يلعب النساء عادة فى قصص الجاسوسية دور طعم الفتنة والإغراء، أو التى تفك عقد ألسنة الرجال الكتومين ، فيبوحون صاغرين بأخطر المعلومات والأسرار . والواقع أن للقاعدة شواذاً ، ولا تنطبق على كل من اشتغلن بالجاسوسية ، فمنهن من اعتمدن على سعة الحيلة وقوة العزيمة ، وليس على إثارة الغرائز . من هُؤلاء ثلاث جاسوسات نشطن فى الحرب الأهلية الأمريكية . التى دارت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فى أمريكا . هؤلاء النساء هن: بيل بويد ، وفان ليو، وروز جرينهاو .

★ بيل بويد جاسوسة بالصدفة

عاشت «بيل بويد» فى بلدة «مارتنزبيرج» بوادى «شيناندوه» بولاية «فيرجينيا» وهى ابنة فلاح جمع بين الزراعة والتجارة . كانت قد بلغت سن السابعة عشر حينما اندلعت نيران الحرب الأهلية الأمريكية ، وأقحمتها الأقدار بالصدفة فى عالم الجاسوسية ، إذ احتل جنود الشمال بلدتها ، وفوجئت بأحدهم يرفس باب بيتها ، ومن ورائه يتدفق زملاؤه ، الذين استولوا على البيت ، وأهانوا أمها ، فتناولت مسدس أبيها ، وأطلقت الرصاص على أحدهم فأردته قتيلا . شفع لها شبابها وأنوثتها فنجت من عقاب شديد، وتحولت منذ ذلك اليوم إلى جاسوسة كونفدرالية.

فى عام ١٨٦١ قامت بأعمال التمريض ونقل الرسائل بين صفوف الاتحاديين ومع تقدم الحرب اتسع نطاق تجسسها بين صفوف الشماليين وخلفها ، وكانت تعود بين الحين والآخر بمعلومات عسكرية هامة ، من بينها أنها اكتشفت أن قوات الشمال كانت تستعد لنسف كوبرى معين ، لقطع طريق إمداد الجنوبيين بمدد قادم لمساعدة الجنرال الجنوبى «**ستونوول جاكسون**» ، وكان على «**بيل**» أن تعدو عبر الحقول المكشوفة معرضة نفسها لرصاص الجنود ، لتؤدى الرسالة ، وتنقذ الكوبرى .

وفى عملية أخرى زودت الجنرال «جاكسون» بمعلومات مكنته من شن الهجوم المفاجئ الناجح على قلعة «**فورت رويال**» والاستيلاء عليها . كتب لها الجنرال

بعد احتلال القلعة خطابا شخصيا قال فيه : «أشكرك بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن الجيش ، على الخدمة العظيمة . التى قدمتها لبلدك اليوم» .

عُرفت «بيل بويد» بشخصيتها الانبساطية ، وحبها للشهرة ، وحديثها المستمر عن أعمالها البطولية ، ما كان منها حقيقيا وما خالطه الخيال ، خاصة لمندوبى الصحف ، حتى أصبحت شخصية تدور حولها أحاديث المجالس فى الولايات الجنوبية . تم القبض عليها ست مرات ، وسجنها الشماليون مرتين ، ونجت من الإعدام شنقا مرتين ، بتدخل شخصى من «**إبراهام لنكولن**» . وأخيرا ضاقت سلطات الاتحاد بها ذرعا بعد الحرب ، فنفتها إلى كندا .

طافت الجاسوسة الناجحة «بيل بويد» العالم بعد الحرب . وألقت محاضرات عن الجاسوسية من واقع تجاربها الشخصية . وانهالت عليها الدعوات من مختلف أنحاء العالم ، وكانت تقابل بالتكريم حيثما رحلت . وألفت كتابا عن تاريخ حياتها ومغامراتها ، راج أيما رواج فى أمريكا وأوروبا . وتزوجت أخيرا ضابطا بحريا فيدراليا اسمه «**سام وايلد هاردنج**» استقال من منصبه ، وهجر حياة البحر ، ليستقر مع المرأة التى أحبها .

كتب «**جوزيف هيرجشيمر**» سيرتها الذاتية فى كتاب ألفه فقال : «إن بيل بويد أشهر امرأة اهتمت بنشاط الخدمة السرية خلال الحرب الأهلية الأمريكية» . وأشارت الصحف النزيهة إليها بأنها : «ساحرة شينا ندواه» . وأنها «جان دارك الثائرة» ، و «**كليوباترة الأمريكية**» ، وغير ذلك من ألقاب الشجاعة والبطولة التى كانت تعجبها وتسعدها وتعتبرها أكثر من أوسمة .

كانت «بيل بويد» تعزو شهرتها إلى الظروف والصدفة . كتبت فى كتابها وعنوانه : «بيل بويد فى المعسكر والسجن» تقول : « جاءتنى الشهرة قدرا بقوة الظروف ، وليس من خلال رغبة منى » .

★ إليزابيث فان ليو

تعتبر أثمن جواسيس الشمال . كانت تعيش فى «**ريتشموند**» بولاية فيرجينيا قلب الاتحاد الأمريكى . كانت معروفة جيدا بدعمها للشماليين فى رغبتهم فى إلغاء الرق ، والواقع أنها أعتقت عبيدها السود منذ زمن بعيد . كانت تجهر بمناصرتها لقضية الشمال حتى أن الناس ما كانوا يشكون فى أنها يمكن أن تعمل شيئا من أجلهم .

وكان أصدقاؤها الشماليون يعتقدون أنها ملتاثة قليلا ، فأطلقوا عليها لقب «بيت المخبولة» .

فتش ضباط جيش الجنوب بيتها أكثر من مرة ، لكنهم لم يعثروا أبدا على دليل يدينها بالخيانة ، ولا هم عثروا على الغرفة السرية ، المبنية تحت السقف المنحدر ، ذات المدخل المخفى وراء خزانة بأدراج . من هنا كانت تدبر «بيت المخبولة» جاسوسيتها ، وهنا أيضا كانت تخفى عملاء الشمال والأسرى الهاربين إلى أن يدبروا لهم أمر الفرار . كان للمعلومات التى تجمعها عن طريق مأمون . كانت تكتبها بشفرة اخترعتها بنفسها ، تمررها خلال خمس محطات بالتناوب ، قبل أن تصل إلى قيادة الشماليين .

كان المخبأ الذى تخفى فيه جنود الشمال الهاربين ، غرفة ضيقة مبنية بين الجدران الداخلية والخارجية لبيتها ، مختبئة خلف خزانة أثرية عتيقة ذات أدراج ، لم يعرف أحد شيئا عن هذا المخبأ سوى ابنة أخيها ، التى تسللت ذات يوم ورأت عمتها واقفة أمام فتحة مظلمة فى الجدار ، وفى يدها طبق طعام ، وفى الظلام وقف رجل ملتح يرتدى زيا أزرق قذرا ، ويحملق بنظرات منهكة .

ابتعدت الفتاة بهدوء بدون أن تفطن إليها عمتها . ولم تحدث عمتها عن هذا الأمر ، لكنها عادت فيما بعد وتحدثت إلى الجندى فحذرها من مغبة رؤية عمتها لها فى هذا الموقف ، ونصحها بأن تنسى ما شاهدت ولا تحدث به أحدا . وظلت الغرفة السرية طى الكتمان ، حتى اكتشفها عمال الهدم بعد انتهاء الحرب .

بعد الحرب قال الجنرال «**يوليسس جرانت**» «**لبيت المخبولة**» : «لقد أرسلتى لى أثمن معلومات استلمتها من «ريتشموند» خلال الحرب والغريب أنها أنفقت ثروة على تمويل خدماتها السرية ، ولم ترد لها الحكومة شيئا مما أنفقت وتوفيت فقيرة ، يعيرها أهل فيرجينيا بخيانة قضية الجنوب .

★ روز جرينهاو

تعتبر «روز جرينهاو» الأولى من بين جاسوسات الحرب الأهلية الأمريكية من حيث غزارة المعلومات التى قدمتها . وهى امرأة من الجنوب ، عملت داخل واشنطن عاصمة الشمال بمساعدة عميلين هما : «**بيتى دوفال**» و «**ليلى ماكول**» . فى يوليو ١٨٦١ اكتشفت أن قوات الشمال يخططون للزحف نحو

«**فيرجينيا**» ، وعرفت خط سير الحملة ، فبادرت بإرسال معلوماتها ، ونتيجة لدقة معلوماتها انتصر الجنوبيون فى معركة «**بول ران**» أولى المعارك وأكثرها حساسية .

فى عام ١٨٦٤ ، كانت «**روز جرينهاو**» عائدة من مهمة فى إنجلترا ، وفوجئت بسفينة مدفعية تطارد السفينة التى كانت تستقلها ، وجنحت سفينتها ، وغرقت «روز» أثناء محاولة الهرب من السفينة الشمالية .

★ لورد بادن بويل الجاسوس الكشاف

رغم أنه استمد شهرته من كونه مؤسس الحركة الكشفية ، إلا أنه كان جاسوسا ضليعا نشطا ، غريب الأطوار ، مولعا بالأناقة ، مغرما بحل الأحاجى والألغاز ترك الدراسة عام ١٨٧٦ ، والتحق بفرقة فرسان «**الهوسار**» الثالثة عشر ، وبعد سبع سنوات خدمة فى الهند ، انتقلت فرقته إلى «**الناتال**» فى جنوب إفريقيا ، حيث تولى أول مهمة جاسوسية رسمية ، وهى الاستطلاع السرى لحدود طولها ٦٠٠ ميل .

بعد أن أمضى عامين فى إنجلترا عاد «**بادن بويل**» إلى جنوب إفريقيا فى عام ١٨٨٧ ، وعمل فى العام التالى ضابطا لمخابرات فرقة الطيران فى حملة «**زولو لاند**» ضد «**دينيزولو**» . وفى عام ١٨٩٠ عيّن سكرتيرا عسكريا لعمه حاكم «**مالطا**» . وفى عام ١٨٩١ أصبح ضابط مخابرات بريطانيا لحوض البحر الأبيض المتوسط . وجد «بادن بويل» فى هذه الوظيفة مجالا كبيراً لحرية العمل واتساع نطاق المبادرة ، مكنته من استغلال مهاراته المسرحية ، لصالح المخابرات البريطانية ، مستخدما قدراته العالية فى الملاحظة واقتفاء الأثر والتقصى والتخفى ، لمعرفة تفاصيل التسليح والتحصين . فى إحدى المهام تخفى على هيئة عالم حشرات ، فتعلم مسبقا كيف يستخدم شبكة اصطياد الفراشات .



لورد بادن بويل

وتلقى ذات يوم أمرا بالتحقق من صحة شائعة عن أن حوضا جافا لبناء السفن يجرى إنشاؤه فى « **هامبورج** » . فمثل دور المخبول ، وبلل ملابسه لتأكيد حالته . وسرعان ما اعتقله رجال الشرطة العسكرية الألمان ، لكنهم انخدعوا بمظهره وتمثيله ، وصدقوا أنه مخبول وعاجز عن إدراك أى أسرار ، فأطلقوا سراحه.

فى أوائل حرب البوير الثانية ، أسندت إليه مهمة الاستطلاع فى جبال «**دريكنز بيرج**» ، ونجح فى عقد صداقات مع عدد من الفلاحين البوير . وخلال الدفاع التالى عن « **ميفكيبخ**» جند عددا من فتيان الكشافة «**الزولو**» ، ودربهم ، ورفضوا بشمم وثبات قبول أى أجر مقابل نجاحهم فى جمع معلومات على جانب كبير من الأهمية . اقتنع «بادن بويل» خلال الحملة بأن أصبع ألمانيا كان المحرك الرئيسى للمقاتلين البوير ، لكنه كان عاجزا عن إقناع السلطات فى لندن بوجهة نظره .

رغم ما عرف عن «بادن بويل» من شذوذ وانحرافات ، إلا أنه كان كتوما شديد الحذر والتستر . خدم بلاده فى ميدان الجاسوسية فى جميع أنحاء أوروبا ، وجنوب إفريقيا ، وتركيا ، والجزائر ، وتونس ، والصحراء الكبرى ، فلا عجب أن كرمته بريطانيا بمنحه لقب لورد . وتوفى «بادن بويل» عام ١٩٤١ .

★ ييفنو أزيف الجاسوس المتسفز

كان «**ييفنو أزيف**» طالبا روسيا فقيرا يدرس الهندسة ، فى مدرسة الفنون التطبيقية الألمانية فى « **كارلسروه**» . كان معه طلبة روسيون كثيرون فى المدرسة ، لهم وجهات نظر ثورية . فى ٤ أبريل ١٨٩٣ قرر «أزيف» أن يكسب مزيدا من النقود . فكتب لجهاز الشرطة السرية الروسى المسمى « **أوتشرانا**» ، عارضا أن يتجسس على رفاقه الثوار ، أجابت عليه الأوتشرانا بقولها : «نحن نعرف كل شئ عن مجموعة كارلسروه ، ولسنا مهتمين جدا بها . لذا فأنت لست ذا قيمة عظيمة لنا ، وعلى أى حال ، نحن مستعدون لأن ندفع لك على شروط ، أولها أن تكشف لنا النقاب عن اسمك» وما أسرع ما بدأ عمل «أزيف» كجاسوس شرطة ، بعد ذلك .

خلال الشهور القليلة التالية ، تحول «أزيف» الصامت إلى ثائر متحمس ، وتأثر به رفاقه فى « كارلسروه» . بدأ يحضر الاجتماعات الثورية الكبيرة ، وانضم إلى «

اتحاد الثوريين الاجتماعيين » بالخارج الذى شُكل مؤخرا تظاهر بأنه رجل أعمال لا أقوال يضيق بالتشدق بالنظريات ، ويتوق للقيام بأعمال إرهابية داخل روسيا .

لم ينخدع الجميع بمظهر «أزيف» . اتهمه أحد الثوار علنا بأنه جاسوس ، لكن «أزيف» أقنع الآخرين ببراءته . فطردوا الثائر المنحوس من الجماعة .

ومما يذكر أن رأى الأوتشرانا فى «يفنو» كان مناقضا لما جاء فى الرد على الطلب الذى قدمه للالتحاق بالجهاز عام ١٨٩٣ ، إذ جاء فيه النص التالى : «يفنو أزيف ذكى ماكر . وهو على اتصال وثيق بطلبة شبان يهود يعيشون فى الخارج ، ولذا يمكن أن يكون ذا فائدة حقيقية لنا كعميل ، ولأنه طماع ويمر حاليا بحاجة شديدة إلى المال ، يمكن الافتراض بأن حالته ستجعله أكثر حماسا فى أداء الواجب» .

هذا ما حدث بالفعل . ارتقى تدريجيا على سلم قيادة جماعة الثوار . وضاعفت له «الأوتشرانا» الأجر ، لأن تقاريره ارتفعت قيمتها أكثر فأكثر ، فقرروا أن يتجسس على الإرهابيين داخل روسيا ذاتها ، وعاد «أزيف» إلى موسكو ، وخان زعيم المنظمة الإرهابية . وشى به لدى «الأوتشرانا» . ارتبك الإرهابيون عندما اعتقل زعيمهم ، فقفز «يفنو أزيف» ـ رجل الأفعال لا الأقوال ـ إلى مقعد الزعامة .

بدأ «أزيف» يوجه فريقا من السفاحين يقترفون جرائم إرهابية ضد سادته ، بينما يحصل منهم على مبالغ ضخمة من المال . بتدبير «أزيف» لقى وزير الداخلية الروسى «بليهف» مصرعه ، حيث نسفت عربته بقنبلة عام ١٩٠٤ . وبعد أشهر قلائل قتل الدوق «**سيرجى الأكبر**» ، عم القيصر . وأصبح «أزيف» بطلا ثوريا ، وخبير الاغتيالات الأعلى .

لماذا صبرت عليه « الأوتشرانا » حتى تجاوز الحدود؟ كان عميلهم الأول وربما اعتقد رؤساء «الأوتشرانا» أنه يحتاج إلى نجاحاته الدموية ليعزز مركزه على قمة جماعة الثوار ومهما يكن من أمر ، فقد أنهى الثوار نفوذ «أزيف» بعد أن اكتشفوا علاقته بالأوتشرانا ، ولما أدرك أن خيانته قد افتضحت هرب إلى الخارج .

لمن كان ولاء «أزيف» وتعاطفه؟

ظلت الإجابة على هذا السؤال سرا حتى الآن . أجاب رئيسه فى «الأوتشرانا» فيما بعد بأن «أزيف» كان لا يحمل ولاء ولا تعاطفا إلا للمال. ربما كانت هذه

هى الحقيقة النهائية ، ومع ذلك فإن «أزيف» قابل رفيقا من جماعة الثوار السابقين ، وقال له معاتبا الجماعة : «لو لم تتخلوا عنى ، لقتلت القيصر» .

توضح حالة «ييفنو أزيف» إلى أى حد تضخم عدد جواسيس «الأوتشرانا» ، ومدى اتساع السلطات التى أتيحت لهم ، حتى لم يعد رؤساء هذا الجهاز قادرين على التحكم فيه ، فانحرف عن الغاية التى أنشئ من أجلها . وبدلا من استخدامه فى التصدى للثوار والحيلولة بينهم وبين خلع القيصر إمبراطور روسيا ، فقد الاتجاه الصحيح ، وضل رؤساؤه الطريق ، ولم يعودوا قادرين على التمييز بين المخلصين والمخادعين . وتحولت «الأوتشرانا» إلى سيف مسلط على حكومة روسيا .

★ الأوتشرانا بعث عقيم للأوبريتشنينا الروسية

تعتبر «**الأوتشرانا**» بعثا «**للأوبريتشنينا**» ، أول جهاز بوليسى سياسى روسى، أسسه «**إيڤان الرهيب**» عام ١٥٦٥ ، وتخلص منه عام ١٥٧٢ ، بعد أن احتدت شوكته فأصبح خطرا على «إيفان» نفسه . ولدت الأوتشرانا فى عهد الإمبراطور «**الكزاندر الثانى**» قيصر روسيا . لكن الجهاز لم تكتمل قدراته إلا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وفى عام ١٩٠٠ بلغ عدد رجاله ١٠٠٠٠٠ عميل يتقاضون أجورهم من ميزانيات مدن روسيا الرئيسية ، وكانت عملياتهم تنتشر فى جميع أنحاء روسيا وعواصم كثيرة فى الخارج . وعلى الرغم من أن «الأوتشرانا» حقق نتائج جيدة ، إلا أن كثيرا من الثوار استطاعوا اختراقه بسهولة ، كما تمكن البلاشفة من تدميره بدون مجهود يذكر حينما استولوا على السلطة عام ١٩١٧ .



القيصر نيقولا الثانى عام ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية الأولى

على الرغم من أن جهاز «الأوتشرانا» لم يكن مسئولا مسئولية مباشرة عن تدبير المذابح ، إلا أنه كان ضد السامية ، ويأخذ عليه اليهود دفع الكثيرين منهم إلى أحضان الماركسيين . فى عام ١٨٩١ حصل ضابط أوتشرانى على جائزة مقدارها ١٠٠٠٠

روبيل لتفوقه فى عمليات التحريض ضد اليهود بتوزيع النشرات .

فى عهد الإمبراطور **نيكولاس الثانى** ، بلغ عدد الثوريين المهاجرين الذين يستعدون للإطاحة بالقيصر ٥٠٠٠ رجل ، واتخذت وكالة الأوتشرانا الخارجية من مبنى السفارة الروسية فى «باريس» مقرا لها ، حيث كانت العاصمة الفرنسية مركزا لتجمع المهاجرين السياسيين عام ١٨٨٢ ، تولى رئاستها « **بايوتر راتشكوفسكى**» ، وهو أحد سجناء الأوتشرانا ، خُيِّر بين النفى إلى « **سيبيريا**» أو العمل فى الأوتشرانا ، وسرعان ما انتعشت عملياتها ، استغل المراقبين الخارجيين من البوابين ، والخدم ، والباعة الجائلين ، خدم المطاعم والفنادق ، واستعان بالعملاء الداخليين من رجال البوليس السرى ، والعملاء المزدوجين ، فى جمع ثروة من المعلومات ، لم يتم تقييم معظمها حتى الآن .

وتكونت وكالات أجنبية أصغر فى لندن ، وبرلين ، وروما ، وجدت تشجيعا بعد أن فجرت طوفانا من الفوضى ، وطالبت بموت « **كارنوت**» رئيس فرنسا عام ١٨٩٤ ، و «**أنتوينو كانوفاس ديلكاستيلو**» رئيس وزراء أسبانيا عام ١٨٩٧ ، والإمبراطورة «إليزابيث» ملكة النمسا والمجر عام ١٨٩٨ ، والملك «**أمبيرتو**» فى إيطاليا عام ١٩٠٠ . لم يقتصر نشاط الوكالة الأجنبية على جمع المعلومات ، ولكنها مارست مجموعة مختلفة من الأنشطة التى تؤثر على الحكومات الأجنبية والرأى العام . والتصرفات الخاصة ، بما فى ذلك أعمال العنف .

أسهمت الأوتشرانا أعظم إسهاماتها فى سياسة القيصرية الخارجية فى ميدان «**إشارات المخابرات**» . اتخذت لمحاكم التفتيش مقاراً فى مكاتب البريد. فى « **سان ستراسبورج**» ، وموسكو ، ووارسو ، وأوديسا ، وكييف ، وخاركوف ، وريجا ، وفيلنا ، وتومسك ، وتفليس ، لحصر ومراقبة البريد الصادر والوارد ، من وإلى الأشخاص الموالين أو المعارضين . وكانت الرسائل الشفرية ، ترسل إلى «إيڤان زايبين» لحلها .

كانت الرسائل الدبلوماسية المرسلة بالتلغراف الكهربائى توقف روتينيا . تولى «**الكزاند سافنسكى**» محكمة تفتيش وزارة الخارجية من عام ١٩٠١ إلى عام ١٩١٠ ، استخدم خلال تلك الفترة مختلف الوسائل للحصول على شفرات السفارات ، بما فى ذلك الشراء والسرقة .

استمر نشاط الأوتشرانا الروسى بشكل روتينى حتى اشتعل فتيل الحرب العالمية الأولى . ومما يدعو إلى السخرية أن الأوتشرانا عجزت عن حل شفرة ألمانية جديدة ظهرت عام ١٩١٢ . وتم توظيف عدد من قراء الشفرة عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ بواسطة البولشفيك ، لكنهم لم يلبثوا أن أحاطوا بهم ، وأعدموا معظمهم .

★ ألفريد ريدل وكرة الأوبرا

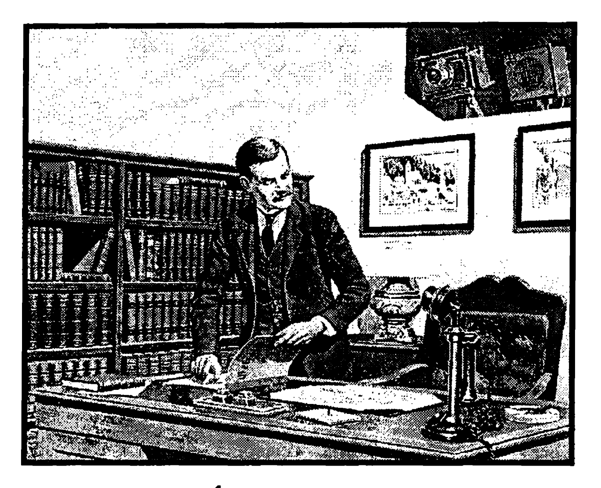

ألفريد ريدل

كان جهاز الخدم السرى النمساوى من أفضل أجهزة المخابرات فى العالم ـ تم تحديثه بواسطة «**ألفريد ريدل**» . الذى ترأس الجهاز من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩١١ ، فأدخل عليه وسائل جديدة كثيرة ، وكوفئ على إنجازاته بمنصب جديد فى الجيش ، وشغل مكانه رجل كفء آخر اسمه «**رونج**» قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى بقليل .

كان «رونج» رجلا ضليعا متمكنا من عمله . حينما زادت احتمالات وقوع الحرب فى أوروبا ، بدأ يطبق بحزم نظام مراقبة البريد . وفى مارس ١٩١٣ اكتشف خطابين معنونين إلى مكتب بريد فى «فيينا» بالاسم الشفرى : «**كرة الأوبرا ـ ١٣**» . اتضح أنهما مرسلان من بلدة قرب الحدود الروسية ، مما جعلهم أكثر شكا لأن روسيا كانت عدوة النمسا . ولما فضت الرقابة الرسالتين ، وجدوا فيهما ١٤٠٠٠ كروز ، أى ما يعادل ٩٠٠ جنيه إسترلينى، فثار سؤال حول ما إذا كان المال أجر جاسوس .

وُضع جرس سرى فى مكتب البريد . وربط رجلا شرطة سرية فى مركز الشرطة الملاصق «لكرة الأوبرا» ، لالتقاط الرسائل .

مرت الأسابيع ولم يحضر أحد ، فأصاب الملل رجلى الشرطة السريين . وفى ١٤ مايو ، دخل رجل مكتب البريد ، وطلب الرسائل . لم يكن المخبران موجودين . كان أحدهما قد ذهب إلى دورة المياه ، وكان الآخر يغسل يديه . دق رجل البريد الجرس ، وحاول تأخير المشتبه فى أمره ، لكن الشرطيين لم يصلا إلا بعد أن انصرف الرجل فى سيارة أجرة . بعد استلام الرسالتين .



مكتب ريدل وأدوات التجريم

ارتاع الشرطيان ، لكنهما انتظرا عودة السائق ، وعلما منه أن الرجل نزل فى مقهى ، فاسرعا بالذهاب إليه ، فإذا به قد اختفى ، استقل سيارة أجرة أخرى متجها إلى فندق . ومرة أخرى أسرعا بملاحقته ، وهما لا يعرفان ملامح الرجل وهيئته ، إلا أنهما عثرا على غمد خنجر فى أرضية إحدى السيارتين اللتين استأجرهما .

فكرا فى حيلة : طلبا من بواب الفندق أن يسأل كل نزيل جديد ما إذا كان قد فقد غمد سكينة ، ثم انتظرا فى صالة الاستقبال ، وتظاهرا بقراءة الصحف . شاهدا رجلا فى منتصف العمر يهبط الدرج . عرض عليه البواب الغمد ، فأمن على أنه صاحبه وأخذه . وهكذا أوقع المخبران بالفريسة ، ولشد ما كانت دهشتهما ، لأنهما تعرفا على الرجل من أول وهلة .. إنه الكولونيل «الفريد ريدل» ، الرئيس السابق للمخابرات النمساوية .

ترى هل كان الرئيس السابق لمخابرات النمسا يلعب دور الجاسوس المزدوج؟ .. اتصل أحد المخبرين بالرئيس الجديد ، بينما اقتفى الآخر أثر «ريدل» كظله خلال شوارع «فيينا» ولابد أن «ريدل» شعر بأن هناك من يتبعه، وأن المباراة قد انقضى أمدها ، فعاد أدراجه إلى الفندق ، وحضر إلى الفندق فى تلك الليلة أربعة ضباط للقبض عليه .

قال لهم : «أعرف سبب مجيئكم» واستأذنهم فى كتابة كلمات قليلة بعد أن يخلوا له الغرفة وقبل أن يغلقوا باب الغرفة وراءهم استعار مسدس أحد الضباط ، وقال لهم إنهم سوف يجدون كل ما يريدون معرفته عن نشاطه الجاسوسى فى بيته بمدينة «براغ» .

كتب «ألفريد ريدل» كلمة وداع ، وضغط على زناد المسدس بعد أن صوبه إلى رأسه ومات منتحرا . نصت رسالة الوداع على ما يأتى : «قضى عليَّ الطيش والنزق. أنا أدفع حياتى ثمنا لذنوبى . الساعة الآن الواحدة والربع ، وسوف أموت الآن . أرجو ألا تسمحوا بتشريح جثتى . صلوا من أجلى .... ألفريد» .

لم تنجب النمسا على مدى تاريخها جاسوسا عبقريا مثل «ريدل» ، إلا أنه كان مولعا بالشهوات مغرما بالملذات ، مما أغرقه فى الديون ، فلما عرض عليه الروس مالا مقابل أسرار النمسا ، وافق ، وظل يزودهم بمعلومات حيوية لمدة عشر سنوات.

كرئيس للخدمة السرية ، استخدم وسائل جديدة كثيرة ، فكان يستقبل المشكوك فى أمرهم داخل غرفة مملوءة بأجهزة وأدوات لتجريم ضحاياه ، منها :

١ ـ صندوق سجائر مغلف عادة توضح البصمات .

٢ ـ جهاز لتسجيل صوت المشتبه فيه على أسطوانة حاكى ، حيث لم تكن أجهزة التسجيل الإلكترونية قد ظهرت بعد .

٣ ـ آلة تصوير مخفية .

٤ ـ ملف أوراق معنون بكلمة «سرى» ، مكسو بمادة توضح البصمات . وكان «ريدل» يترك الملف وصندوق السجائر على مكتبه ، ويغادر الغرفة ، وقد يعجز الزائر عن مقاومة رغبته فى الاطلاع على الأسرار ، مما يكشف لرئيس المخابرات مدى جدارته بالثقة .

ويذكر أن أخطر خيانات «ريدل» لبلاده وأشهرها ، أنه أعطى الروس نسخة من خطة النمسا للهجوم على الصرب ، وكان الروس أصدقاء الصرب وحلفاءهم ، فزودوهم بالخطة . واندلعت نيران الحرب بسرعة ، ولم يكن لدى النمسا وقت لتعديل الخطة ، فهاجموا «صربيا» ، وقرأ العالم كله عن النصر المؤزر للصرب ، ولم يعرف أحد آنذاك أن خيانة «ريدل» هى سر انتصار الصرب . وقدر الخبراء العسكريون أن خيانة «ريدل» كلفت النمسا نصف مليون مقاتل بين قتيل وجريح.



جواسيس الحرب العالمية الأولى

مع اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى ، كانت وسائل النقل والاتصال قد قطعت شوطاً بعيداً من التطور ، فتقدم استخدام المواصلات البخارية براً وبحراً ، وازدهرت المواصلات السلكية واللاسلكية ، وتضاعف النشاط الدبلوماسي وانتشر ، وطورت الحكومات أجهزة المخابرات حجما وتدريباً وكفاءة ، خاصة بعد تطوير صناعة الطائرات . واتخذت إجراءات طارئه صارمة غير عادية أسندتها لأجهزة المخابرات .

من ذلك ـ مثلا ـ أن بريطانيا ألقت القبض على جميع العملاء والجواسيس ، بل والأجانب المشتبه فيهم داخل بلادها ، كإجراء وقائى لتأمين أسرارها وحماية منشأتها . واستطاعت المخابرات البريطانية الحصول على الشفرة البحرية الألمانية ، فأمكنها تتبع كل تحركات الأسطول الألمانى الكبرى ، التى خططتها ألمانيا .

★ الخباز بيتر هاهن

فرضت معظم الحكومات رقابة صارمة على البريد خلال الحرب العالمية الأولى ، ونتيجة لذلك أحرز المراقبون البريطانيون نتائج عظمية . منها أنهم اكتشفوا ذات مرة أن صحيفة مرسلة من « **دبتفورد** » ، معنونة إلى مكان فى « **أمستردام** » ضمن قائمة العناوين المشبوهة . أثبتت الاختبارات أن رسالة كتبت على الجريدة بالحبر السرى . تقول الرسالة : «ذهب ـ س ـ إلى الشمال ـ أكتب لكم من ٢٠١» .

بلغت رقابة البريد جهاز المخابرات فى الحال ، ولما كانت الجريدة مرسلة من «ديتفورد» . بحثوا عن شارع طويل بما يكفى لوجود مبنى برقم ٢٠١ فوجدوا شارعاً واحداً وهو شارع «**هاى ستريت**» . واتضح أنه عنوان خباز اسمه «بيتر هان» ، وهو رجل ألمانى الأصل ، وبتفتيش المكان عثروا على زجاجة حبر سرى .

من خلال « هان» استطاعت المخابرات البريطانية ـ المتمثلة فى «سكوتلانديارد» آنذاك ـ أن تتقصى شخصية ـ س ـ الغامض ، فاتضح أنه جاسوس ألمانى اسمه «مولر» . ذهب إلى الشمال للحصول على معلومات عن القواعد البحرية البريطانية. تم القبض على «مولر» ، وحوكم ثم نفذ فيه حكم الإعدام ، لكن البريطانيين ظلوا

يرسلون رسائل إلى عنوان أمستردام باسمه ، تحتوى على معلومات مزيفة ، ويستلمون رسائل من المخابرات الألمانية التى لم تفطن إلى مقتل «مولر» ، حتى أنها أرسلت له ٤٠٠ جنيه استرلينى كأجر متأخر .

★ جواسيس بالجملة

وتتميز الحرب العالمية الأولى بظهور أسماء جواسيس مشهورين كثيرين ، انتشر الخوف منهم فى كل مكان . حام الشك حول أى شخص يحمل اسما يبدو أجنبياً ، وعانى أشخاص كثيرون فى مختلف الأوطان من ذلك رغم براءتهم . ومع ذلك كان الجواسيس الحقيقيون طلقاء يعيثون فى الأرض فسادا ويعبثون فى الخفاء لأن الجاسوسية أصبحت حرفة ، فقد أقيمت مراكز ومدارس تعليم الجاسوسية والتدريب على فنونها فى كل الدول المتقدمة . وكان فى ألمانيا وحدها . ما لا يقل عن ثلاثة مدارس ، من بينها مدرسة الجاسوسية الألمانية فى «**بادن ـ بادن**» التى تخرجت منها فتاة لتصبح مديرة مدرسة جاسوسية جديدة فى «**أنتويرب**» أثناء احتلال بلجيكا . كان اسم الفتاة دكتورة «**الزبث شراجمولر**» . تحت إدارتها الصارمة صارت مدرسة أنتويرب أشهر مدارس الجاسوسية .

قيست إنجازات المخابرات فى الحرب العالمية الأولى بأهمية العمليات وجدواها . فبدون «الفرقة رقم ٤٠» ـ وهى إدارة خاصة لفك الرموز والشفرات بالأدميرالية البريطانية ـ لما أمكن اكتشاف وحل شفرة زيمرمان التلغرافية ، ولما دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء .

كانت الحرب العالمية الأولى حرب إمبراطوريات عظمى . استخدم فيها الطرفان الجواسيس لإشاعة القلق ، والفوضى ، والخوف ، والخلاف ، وانخفاض الروح المعنوية ، وتفشى انعدام الولاء والانتماء بين الشعوب وحكوماتها ، وحبك المؤامرات، وتخريب الرأى العام ، ونشر الشائعات المدمرة . من بين هؤلاء الجواسيس:

مارث ريتشر : الفتاة الفرنسية التى استخدمها الألمان ، ولكنها فى النهاية أخلصت لبلادها ، وأفشت للمخابرات الفرنسية تركيب حبر سرى جديد تستخدمه المخابرات الألمانية ، وزودتها بتفاصيل الغواصة الألمانية «**يو ـ ٥٢**» .

الكولونيل تى . لورانس: المعروف باسم «**لورنس العرب**» أجاد اللغة العربية .

وتخفى فى شخصية عربية يرتدى ملابس العرب ، ليطوف فى أراضى تركيا ، وفى الصحراء ، وحرك ثورة عظيمة ضد الحكم التركى ، ولقى مصرعه فى حادث دراجة نارية فى إنجلترا بعد الحرب .

ويلهيلم واسيموس : عمل بنفس طريقة «لورانس العرب» بين القبائل القاطنة بين مرتفعات «**فارس**» ، فألب القبائل الإيرانية ضد كل من تركيا وبريطانيا . وكان فى الأصل قنصلا لألمانيا فى إيران ، اعتمد فى عملياته على دفع الأموال بسخاء لرؤساء القبائل والمرتزقة ، وسوف نسوق قصته بشئ من التفصيل .

ماتا هارى : أو «عين الفجر» ، الراقصة الفاتنة التى صارت أشهر إناث الجواسيس فى التاريخ . اسمها الحقيقى «**مارجريت زيل**» . وسميت فيما بعد «مارجريت ماكليود» . قبض عليها الفرنسيون عام ١٩١٧ باعتبارها جاسوسة ألمانية مارست نشاطها فى باريس ، ورومانيا ، وفيينا ، وبرلين ، وغيرها ، من عام ١٩٠٥ـ١٩١٧ ، وزعمت أنها بريئة . وأعرب بعض المؤرخين عن شكهم فى أنها كانت جاسوسة . وقالوا إنها كانت غانية غامضة لها عشاق كثيرون ، قادة وزعماء فى بلدان كثيرة ، لم يثبت عليها جرم ، إلا أنها أُعدمت فى باريس ، بلا إدانة ثابتة، خوفا من أن تؤدى محاكمتها إلى تلويث سمعة شخصيات مرموقة ، وكشف فضائح رهيبة .

فرانز فون رينتلين : فى صيف عام ١٩١٤ ، اكتسحت القوات الروسية بسهولة فرقتين ألمانيتين فى بروسيا الشرقية ، ودفعت روسيا لهذا النصر ثمنا فادحا من الأسلحة والمعدات ، إذ منى الروس بخسائر فادحة فى معركة تانبنيرج حينما واجهوا نيران مدفعية لا ينقطع انهمارها ، ولا حيلة لهم فى الرد عليها . وأدركت موسكو ضرورة شراء السلاح من أمريكا بأسرع ما يمكن ، فاتصلت ألمانيا بعميلها «فون رينتلن» ليعطل أى صفقة أسلحة تحاول روسيا عقدها مع مصانع أمريكية ، لأن تصدير الأسلحة إلى روسيا يؤدى إلى قتل المزيد من الجنود الألمان ، كما أن إيقاف التصدير يعنى سهولة قتل المزيد من الجنود الروس .. وجد «رينتلين» أن عشرات المصانع الأمريكية قد أوفت بالتزاماتها ونفذت عقودها ، وأن جانبا كبيراً من الأسلحة والذخائر والملابس العسكرية المشتراة جاثمة فى صناديقها على أرصفة ميناء نيويورك تنتظر الشحن .

حصل «رينتلين» على جهاز إشعال حرائق كيميائى ، كلف خبيرا بصنع عدداً كبيراً منه ، واستأجر من عمال الميناء من يزرعون تلك الأجهزة فى الشاحنات ، فأضرمت سلسلة من الحرائق على طول الطريق البحرى من نيويورك إلى الميناء الروسى «أرشخجل» تأكل السفينة تلو الأخرى .

زاد رينتلين على ذلك بإنشاء شركة مع رجل ألمانى آخر ، وقدم إلى روسيا عروضا لتوريد أسلحة ، وأمن عقودا بملايين الدولارات ، لتوريد الطعام والملابس الشتوية ، والأحذية ، ومطابخ الميدان ، والخيول ، والذخيرة . وتعهد بالتسليم خلال ٤٥ يوما . لكنه فى نهاية الأيام الخمس والأربعين لم يورد شيئا ، وبات واضحا أنه يبدد الوقت سدى ، وشكّل بذلك ضغطا من جانب الألمان على روسيا ، وتخلى الجنود الروس عن مواقعهم أمواتا أو منسحبين ، وعجزت القوات الروسية عن الصمود أمام هجوم الجنرال الألمانى «فون واكنسين» فى بولندا ، فتقهقرت تاركة بنادقها ومدافعها الميدانية خالية من الطلقات والقذائف ، بعد أن أصبحت المقاومة مستحيلة . وكانت خسائر الروس مهولة فاقت توقعات الألمان أنفسهم .

ولاشك أن البطل الحقيقى فى هذه المعارك كان الجاسوس «رينتلين» الذى جرد جيش روسيا من سلاحه ، وجعله فريسة سهلة لجيش الجنرال فون واكنسين وغيره . وأثبت الجاسوس الألمانى فى هذه العملية أنه من أكفأ العملاء السريين حتى الآن. ومع أنه كان داهية فائق الذكاء ، إلاّ أن نشاطه كجاسوس انتهى فى أغسطس ١٩١٥ ، عندما تسلم رسالة من ألمانيا تدعوه إلى الحضور . كانت الرسالة مزيفة دستها المخابرات البريطانية ، فغادر أمريكا على ظهر سفينة هولندية ، ليجد نفسه فى الفخ ، عندما دخلت السفينة المياه البريطانية ، واقتحمت عليه غرفته مجموعة من الضباط شاهرين السلاح ليستقر فى أحد سجون بريطانيا .

★ ويلهيلم واسموس لورنس الألمانى

لم يكن «**لورنس الألمانى**» يشبه فى شئ «لورنس العرب» ، ذلك الإنجليزى الذى كان يرتدى ثياب العرب ، ويمخر بالجمل عباب الصحراء . كان «**ويلهيلم واسموس**» قصير القامة ، بدينا ، جسورا ، ذا وجه مستدير ، عيناه ضيقتان وراء عوينات كبيرة . له طلعة توحى بأن مندوب شركة تأمين ، ومع ذلك ، فهو الرجل الذى رصدت بريطانيا لمن يقبض عليه حيا أو ميتا مبلغ ٥٠٠٠٠٠ جنيه

إسترليني ، إذ شغل جيشا بريطانيا بأكمله ، وكان الملك الحقيقى لقبائل الجبال العنيفة ، وأوشك على تغيير التاريخ ، وعلى الرغم من أنه لم يتدرب مطلقا على مثل هذه المهام ، كان جاسوسا من الطراز الأول ، لا من ذلك الطراز الذى يجمع المعلومات ، وإنما اختص بالعمل على تغيير النظام السياسى لأمة بأكملها ، من أجل مصلحة بلاده . وقد استخدم «واسموس» وسائل أصبحت فيما بعد مصادر إلهام فى جاسوسية الحرب الباردة ، لإثارة الفتن والقلاقل بين الشعوب ، بالرشوة ، والدعاية ، والشائعات ، والتلاعب ، والمناورات السياسية .

لم يكن «واسموس» يعرف شيئا عن دوره المقبل ، حينما عين قنصلا فى «بوشهر» بفارس عام ١٩٠٩ . كان عمره آنذاك ٢٩ سنة ، من ألمع نجوم الدبلوماسية الألمانية . وكان قد وصل فى وقت حرج إلى مكان حساس . إذ كانت بلاد فارس ميدان المعركة بين ألمانيا وبريطانيا من أجل غنيمة لا تقدر بثمن ، ألا وهى النفط ، الذى يجعل الفائز قادرا على تشغيل أدوات إنتاجه الصناعى الضخمة بكامل طاقتها ، فيحتل المركز الدولى الأول ، بينما يقع الخاسر بالمركز الثانى .

كان الشعب الفارسى يعيش فى ظروف تخلف كما لو كان فى القرن الثانى عشر . وكانت حكومة المملكة الفارسية فى حالة ضعف تعجز معها عن مجادلة أى من الطرفين . وكانت مضغوطة بين الإمبراطورية العثمانية فى الغرب ، وروسيا فى الشمال ، والهند درة التاج البريطانى فى الجنوب ، والجنوب الغربى حيث توجد باكستان الآن . كان شاه إيران يرأس ـ آنذاك ـ مجلس إقطاع ، لكن نفوذه لا يكاد يمتد ـ فى الواقع ـ إلى أبعد من أميال قليلة خارج «طهران» ، وما بقى من البلاد فى قبضة زعماء قبائل من عتاة المقاتلين ، يهيمنون على السهول والتلال.

تقضى التعليمات الموجهة إلى «واسموس» ، بعمل كل ما من شأنه تنمية مصالح ألمانيا فى تلك المنطقة الحيوية . من أجل ذلك زودته حكومته بمبالغ ضخمة من النقد الذهبى ـ الذى كان متداولا حينذاك ـ ليشترى ولاء زعماء القبائل . وفى الوقت نفسه كان البريطانيون يشترون ولاء الزعماء ، مما خلق فى ربوع إيران سوقا لبيع الولاء والإخلاص والانتماء . وفى عام ١٩١٤م دخلت كل من ألمانيا وبريطانيا الحرب : واستفادت بريطانيا من وجود قواتها فى الهند ونفوذها

فى المنطقة ، فحركت عدة فرق عسكرية إلى إيران . وتأزمت الأمور ، فانسحب الدبلوماسيون الألمان من «بوشهر» بعد أن أصبحت توقعاتهم فى إيران فى حكم المستحيل ، إلا أن «واسموس» لم يعترف بالهزيمة .

أخبر «واسموس» رؤساءه فى «برلين» بأنه سيتخلف فى «إيران» ، ويحارب الاحتلال البريطانى من قمم التلال . وفى الوقت نفسه أخبر المخابرات الألمانية أنه سيكون عيونها فى المنطقة ، وقبلت برلين العرض ، رغم يأسها من أن يحقق دبلوماسى ألمانى بمفرده أدنى إنجاز ، فى منطقة أضحت تحت سيطرة الإنجليز بأكملها .

بقى مع «واسموس» رجل واحد هو مساعد القنصل الألمانى ، ومبلغ ١٤٠٠٠٠ مارك ألمانى ذهبى ، وسرعان ما أظهر قدرة فائقة على التنظيم ، ونشاطا منقطع النظير ، وعزيمة لا تلين . كان يجيد التحدث باللغة الفارسية واللهجة التاجستانية ، فتمكن خلال أشهر قلائل من أن يعبئ قبائل الجبال فى قوات تتصدى للإنجليز ، فوجد الإنجليز أنفسهم هدفا للغارات منذ اللحظة التى تحركوا فيها من قواعدهم الساحلية . ونظم حملة دعاية قوية امتدت خلال منطقة الخليج ، معتمدا فيها على شبكة من المواطنين الفرس المثقفين ، يحثون الناس على الجهاد ، وحمل السلاح ضد المستعمر البريطانى «الذى دنس الأراضى الإسلامية» وتأثر بهذه الدعوى كثير من المسلمين شيوخاً وشباباً ، خاصة طلاب العلوم الدينية ، ومن بينهم طالب اسمه «الخمينى» ، حكم إيران فيما بعد .

فى عام ١٩١٦م ، أصبح «واسموس» خطرا عظيما يحدق بالإنجليز ، لم يكتف بتحويل إيران إلى عش زنابير ، وإنما مد نشاطه العدائى إلى الإنجليز فى أفغانستان ، فألب القبائل عليهم ، وحرضهم على شن الغارات عليهم . عرف الإنجليز أن «واسموس» قد أصبح بطلاً أثار إعجاب الفرس ، رغم أنه لا يكاد يجيد ركوب الخيل . لقد كسب قلوبهم واحترامهم . لقد ساعده فى ذلك سيل الذهب الذى كان يتدفق من «برلين» ، وكان يعجبهم فيه طلاقة لسانه بلغتهم ، وقدرته على إقناعهم .

يضاف إلى ذلك أن «واسموس» تزوج ابنة زعيم قبيلة مجوسى قوى ، وحضر حفل الزفاف آلاف الفارسيين العاديين ، من بينهم شبكة جواسيس نظمها

«واسموس» ، يغطى نشاطها جميع أنحاء إيران وجزءا من أفغانستان ، كان يسميها: «العشرة آلاف عين» .

قرر الإنجليز التخلص من «واسموس» ، لكن كل الحملات المسلحة التى جردوها فشلت فى الإيقاع به ، لأن أعوانه كانوا يحذرونه دائماً فى الوقت المناسب. واكتشف الإنجليز أن «شبكة العشرة آلاف عين» نفسها امتد نشاطها إلى الهند ، وظهر ما يدل على أن الألمان يعرفون كل التحركات العسكرية البريطانية من بغداد إلى بومباى . ودفع اليأس بالسلطات البريطانية إلى رصد مكافأة مقدارها ٥٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى إلى من يقبض على «واسموس» ، لكنهم لم يعثروا على من يقبل العرض .

فى أوائل عام ١٩١٧م تحولت رياح الحرب ضد ألمانيا ، وبدأ الفرس يبحثون عن مصالحهم ، ورأوا أن الوقت قد حان لعقد صفقة مع بريطانيا ، خصوصا وأن ينبوع الذهب الألمانى بدأ يجف ، بينما إمدادات الذهب البريطانى تبدو سخية . حاول «واسموس» تعويض نقص الذهب باستخدام مزيد من الدعاية والشائعات الخبيثة ، حتى أنه ادعى أنه قيصر ألمانيا اعتنق الدين الإسلامى .

وأخيرا بدأت بريطانيا هجوماً عاماً على شواطئ إيران ، استخدمت فيه أسطولا صغيرا من سفن الحرب ، و ١٠٠٠٠٠ جندى ، وأنهت المشكلة أوائل عام ١٩١٨م ، لكن «واسموس» تسلل إلى تركيا . واقتفى الإنجليز أثره بعد الهدنة . قبضوا عليه وسجنوه . ولما أطلقوا سراحه عام ١٩٢٠م ، عاش فقيرا يعض بنان الحسرة والندم ، كلما تذكر أن جهوده ذهبت هباء ، وأن إيران بنفطها النفيس سقطت فى قبضة نفوذ بريطانيا .

حاول «واسموس» أن يجرب ذكاءه فى مجال الأعمال ، لكنه اكتشف أن التعامل مع رجال القبائل عبر تلال إيران ووديانها ، أسهل من العمل فى أسواق ألمانيا واقتصادياتها الممزقة . وتوفى مريضا مفلساً عام ١٩٣١ ، منسيا من الجميع .

★ اجتياز الخطوط

اتخذت معظم عمليات القتال فى الحرب العالمية الأولى من الخنادق مسارح لها، والخطوط المحصنة أميالا ، فصار اجتياز الخطوط المهمة الرئيسية للجواسيس فى الميدان . فأصبح استخدام المظلات فى إسقاط الجواسيس فى أراضى العدو عبر

الحدود من أخطر تطورات الحرب العالمية الأولى . كان عملا خطيراً غالباً ما لا يتم إلا ليلا . وكان الطيران نفسه جديداً على الحرب ، والقفز بالمظلات يحتاج إلى شجاعة خاصة ، وتدريب شاق .

كان جواسيس المظلات ينقلون عادة فى مقصورة أسفل الطائرة ، يشرف على تشغيل بابها الملاح الجوى . وهذه الطريقة البدائية تضمن إسقاط الجاسوس حتى لو خذلته أعصابه فى اللحظة الأخيرة ، وكثيرا ما تسببت فى مشاكل . مثال ذلك أن الجاسوس المظلى الإيطالى «**أليساندرو تاندورا**» استغرق فى النوم داخل مقصورته الضيقة المملة ، وأفاق أثناء سقوطه من ارتفاع ٣٠٠٠ متر من سطح الأرض ، ومع ذلك هبط سالما .

عادة ما كان الجواسيس يهبطون فى مناطق يعمل فيها جواسيس مقيمون . وكان على الجواسيس المحليين أن يتأكدوا من أن الجواسيس القادمين فى صفهم وليسوا عملاء العدو . أدارت الجاسوسة البلجيكية «**مارث كنوكارث**» شبكة جاسوسية كبيرة بكفاءة عالية ، وأساليب تعارف محكمة ، وكان العملاء الذين يعبرون الخطوط لمساعدتها ، يحتفظون بدبوسين خلف طية السترة ، ولذا أطلقوا عليهم اسم : «رجال دبوس الأمان» .

كان نقل المعلومات من وراء الخطوط إلى قيادة المخابرات فى الوطن الأم عملية صعبة ، لذا استخدموا الحمام الزاجل . وكان الحمام يحتاج إلى عناية فائقة ... يحتاج إلى الطعام مرتين يوميا ، وإلى أن يحمله الجاسوس أينما ذهب فى الرحلات البعيد ، وكان اكتشاف الحمام الزاجل مع شخص يمثل خطراً عليه ، ومدعاة لاتهامه بالجاسوسية .

استخدم الجواسيس أجهزة لاسلكية ، فهى أكثر كفاءة وأمنا . يستطيع الجاسوس أن يخفيها عدة أيام دون أن يقترب منها . وعبر العملاء الخطوط حاملين الرسائل أيضا بعد أن ابتدعوا وسائل كثيرة لإخفائها . بعضهم أخفوها فى كعوب أحذيتهم، أو فى عين زجاجية ، أو ساق خشبية : ولجأت شبكة جاسوسية بلجيكية إلى تهريب الرسائل فى طيات كفن الميت الهولندى ، بعد أن طلبت من السلطات الألمانية ترخيصا بدفن جثته فى أرض هولندية . وهكذا أرسلوا الرسائل إلى القنصل البريطانى فى هولندا «**ميجور أوبنهايمر**» .

في بعض الأحوال كانت طائرات تلتقط الجاسوس بعد تأدية مهمته وراء الخطوط ، غير أن ذلك كان عملاً خطيراً ، فمن الصعب هبوط طائرة وراء الخطوط بدون اكتشافها . وفى أغلب الأحيان كان على الجاسوس أن يعود أدراجه بمعرفته ، والموت له لو قبض عليه .

★ نيكولاى و نادجيدا سكوبلن

بدى الأمر كأنه مشهد سينمائى : الجاسوسة الحسناء مقيدة إلى وتد ، رافضة وضع عصابة على عينيها ، وفرقة الإعدام توشك أن تنهى حياتها . حرك جمالها وشجاعتها مشاعر الضابط الفارس الشاب ، فتقدم على جواده، وأمر فريق الرماة ألا يطلقوا النار . فك وثاقها وأطلق سراحها على مسئوليته . وقال أنه سيعالج هذا الأمر بنفسه .. تلك هى الطريقة التى قابل بها الجنرال «**نيكولاى سكوبلن**» الحسناء «**نادجيدا فاسيليفنا**» أول مرة ، فى ذات صباح باكر ، من ربيع عام ١٩٢٠ جنوب روسيا . وفى هذه اللحظة سقط فى حبها . وتلت ذلك نتائج أضرت بالاتحاد السوفيتى ، وأدت إلى مقتل أكثر من ٣٠٠٠٠ رجل ، وكان «سكوبلن» نفسه أحد الضحايا .

كل من «**سكوبلن**» و «**فاسيليفنا**» لهما سمات تشبه شخصيات من أوبرا «**رومانوف الكبير**» ، من حيث المولد الأرستقراطى . وكان «سكوبلن» ضابطا من فرسان القيصر خلال الحرب العالمية الأولى ، ولما قبض البولشفيك على زمام السلطة فى روسيا ، حارب «سكوبلن» إلى الجانب الأبيض فى الحرب الأهلية الروسية . وفى عام ١٩٢٠م كان يقاتل معركة خاسرة ضد الجيش الأحمر فى جنوب روسيا ، فى السنة نفسها التى التقى فيها ذلك اللقاء القدرى مع «**نادجيدا فاسيليفنا**» .

أما هى فقد ولدت أيضا لأسرة أرستقراطية ، وأصبحت مغنية أوبرا . وأطلقوا عليها قبل الحرب اسم «العندليب» . تعودت على الرفاهية وحياة الحفلات ، والمساكن الشاعرية ، والملابس الأنيقة ، والمجوهرات الثمينة . أفسدت ثورة البولشفيك عالمها ، فلا مجال فيها للرفاهية . وزاد حالها سوءا أنها تزوجت فنان باليه مفلساً اسمه «**إدموند بليفتيسكى**» . فى نهاية عام ١٩١٨ يئست من الحصول على المال ، فلم يعد المعجبون يمطرونها بالمال والجواهر .

قررت وكالة المخابرات البولشيفية انتهاز الفرصة ، واستثمار جوع المرأة ونهمها للمال فى استخدامها عميلة ضد القوات البيضاء . وفى عام ١٩١٨ كلفتها المخابرات البولشفية باختراق مختلف المنظمات البيضاء ، التى تهدد النظام الروسى الجديد .

كانت «فاسيليفنا» مناسبة تماما وإلى حد بعيد لأداء دورها . كانت تسافر متجولة خلال المناطق التى يحتلها البيض ، ترفه عن الجنود ببرامج مجانية ، وتعقد صداقات مع زعماء أعداء البولشفيك ، الذين طالما أعجبتهم «العندليب» . وخلال العملية بدأت تجمع معلومات من البيض ، لتحصل على معلومات مفصلة أكثر .

فى عام ١٩٢٠ ، وفى ذروة الحرب الأهلية ثارت شبهات حول إمكان وجود علاقة بين زيارات «**فاسيليفنا**» ، وسلسلة من الهزائم العسكرية المفجعة وفى أوائل عام ١٩٢٠ . ضبطوا بعض رسائلها إلى مخابرات «**البولشفيك**» ، وبذا حصل البيض على دليل إدانة ، فاعتقلوها ، وأمروا بإعدامها رميا بالرصاص .

افتتن «**نيكولاى سكوبلن**» بها ، وكان عازما على الصفح عن اعترافها بأنها كانت تعمل لصالح البولشفيك المكروهين . مثل هذا الاعتراف لو حدث فى ظروف عادية ، لأنهى فائدة «فاسيليفنا» كعميلة ، لكن مخابرات البولشفيك توصلت إلى فكرة أخرى ، وهى تجنيد «نيكولاى سكوبلن» كعميل ، فقد كانت تعلم مدى تشبعه بفكرة «**روسيا المقدسة**» ، الأرض الخرافية التى وجدت قبل القياصرة . رأى «سكوبلن» من خلال جنون العظمة أنه زعيم لكل الحركة الجديدة التى تستولى على كل أراضى روسيا يوما ما ، وتجعل البلاد قطعة من حكايات الجن الخرافية . فى أواخر عام ١٩٢٠ انسحبت «فاسيليفنا» و «سكوبلن» مع الباقين من القوات البيضاء إلى تركيا ، المنفى الدائم .

كان «سكوبلن» يستخدم مخابرات البولشفيك للوصول إلى هدفه . عن طريقهم وباسمهم يحطم حركة الروس المنفيين ، ويفوز بالسلطة ، وإذا حقق هذا الهدف ، وعاد إلى روسيا ، أمكنه قيادة جيش صليبى مقدس عظيم ، واسترد به روسيا ، وحطم البولشفيك ، بما فى ذلك مخابراتهم .

ذهب «سكوبلن» و «فاسيليفنا» إلى باريس حيث قيادة حركة الروس المنفيين التى شكلت عام ١٩٢١ تهديدا ملحوظا للنظام الشيوعى الضعيف . كانت قد

حشدت أكثر من ٣٠٠٠٠٠ رجل مسلح نذروا أنفسهم لقضية القيصرية وحصلت على تمويل جيد من قرابة مليون عضو منتشرين فى جميع أنحاء العالم . وقد أوكل «لينين» مهمة تحييد هذا الخطر أو القضاء عليه إلى المخابرات البلشفية ، وكان «سكوبلن» الأداة الأولى لتنفيذ هذه المهمة . تزوج « فاسيليفنا» ، وبدأ يخترق حركة المنفيين ، وساعده على ذلك ماضيه النظيف ، وخبرته العسكرية ، وسجله الثابت عن تحدى البلشفية ، فلم يشك أحد فى إخلاصه . وفى أوائل الثلاثينات أصبح زعيما للمنظمات المضادة للبلشفية ، والقوى الرئيسية للمنفيين . ومن هذا الموقع استطاع أن يبلغ موسكو عن رجال المقاومة الذين اجتازوا الحدود خفية إلى روسيا ، لتشكيل وحدات مقاتلة مضادة للبلشفية . وعرف أيضاً عمليات التزوير المكثفة التى يجريها المنفيون ، والتى تشمل وثائق مزيفة قيل أنها أصلية ، من ملفات الشرطة القيصرية السرية ، تثبت أن ستالين كان جاسوسا للشرطة .

نجحت عمليات «سكوبلن» فى تحريك عمليات تقييم دورية لحركة المنفيين يجريها زعماؤها . وتوصلوا إلى أن النتائج غير مشجعة . كل فرق رجال المقاومة التى اجتازت الحدود إلى الاتحاد السوفيتى اختفت ، ولم يظهر منهم أحد . تغير اسم «**المخابرات البلشفية**» إلى اسم «**المخابرات السوفيتية**» ، وأمكنها إحباط كل حركة منفيين . علاوة على ذلك صار المنفيون الذين ينضمون كعملاء لمنظمات المخابرات المختلفة يقعون فريسة للخيانة بطريقة روتينية . وبعد ١٥ سنة من مغادرة روسيا ، لم يتمكن المنفيون من إحراز أدنى نجاح فى أية عملية بالاتحاد السوفيتى .

بناء عليه ، تحتم على زعماء المنفيين أن يتحققوا من أنفسهم ، ويلقون نظرة فاحصة على أنفسهم : هل يحتمل أن يكون شخص رفيع المستوى فى المنظمة يخون القضية ويتصل بموسكو ؟

اتجهت الشكوك نحو «سكوبلن» و «نادجيدا» . فالرجل يعرف كل صغيرة وكبيرة من أسرار المنفيين ، وهو كثير السؤال عن كل ما يستجد ويعرف عن المنظمة ما لا يعرفه غيره ، بحكم رئاسته لشعبه العمليات المضادة للجاسوسية الخارجية . ومن حقه أن يعرف خطط الحركة . ومن ناحية أخرى لفت أسلوب حياتهم المترفة ومستوى معيشتهم المرتفع الأنظار ، خصوصا وأنه لا يملك مصدراً ظاهراً لإيراد . ادعت «نادجيدا سكوبلن» أن دخلا جيدا يصلها من عملها ، لكن

عملها فى فرنسا لا يدر هذا القدر من المال الذى ينفقانه ببذخ .

ظل «سكوبلن» تحت مجهر الشك فترة ، رغم عدم وجود دليل قوى . لم يبدى أدنى اكتراث بهذه الشكوك ، وفى عام ١٩٣٦ قام بأعباء أكبر وظيفة تقلدها من المخابرات السوفيتية . وقد بدأت هذه المهمة بأن تقدم «سكوبلن» إلى مخابرات النازى الألمانى . وعرض عليهم خدماته مدعيا أنه يريد مساعدتهم له فى كسب السيطرة على حركة المنفيين كلها ، ومن ثم يجعلها تحت سيطرة المخابرات النازية ضد الاتحاد السوفيتى . وافقت المخابرات النازية لأنها لن تخسر شيئاً ، ورحبت بالفرصة ، وجعلت «سكوبلن» عميلها داخل حركة المنفيين . زعم «سكوبلن» أن له مصادر مهمة فى الاتحاد السوفيتى ، يزودونه بين الحين والحين بمعلومات على جانب كبير من الأهمية ، سوف يتقاسمها مع المخابرات النازية الألمانية . بعد الارتباط بالمخابرات النازية ، تحرك «سكوبلن» إلى المرحلة الثانية من العملية ، كانت مفاجأة «سكوبلن» أنه ادعى أن لديه وثائق تثبت أن قيادة الجيش السوفيتى كانت تخطط انقلابا ضد «**ستالين**» . وكان «سكوبلن» حريصاً جداً على طلب مليونى دولار مقابل هذه الوثائق . وكانت حركة ذكية منه ، لأنه لو قدم الوثائق بلا مقابل، لشكت المخابرات الألمانية فى صحتها . أما أن يكون الثمن غاليا فذاك دليل على أصالتها .

مما يدعو إلى السخرية فى هذه اللعبة الصغيرة أن «رينهارد هيدريك» رئيس المخابرات النازية لا يهتم كثيراً بصحة المستندات . فقد كان يدير خطة عمليته الخاصة المزيفة ، أملا فى زرع وثائق مزورة تدين كبار الزعماء السوفيت بتدبير مؤامرة انقلاب تعصف بستالين . ومن ثم يكون رد الفعل على السفاح الملتاث بجنون الاضطهاد ، أن يمزق الاتحاد السوفيتى سياسياً .

حدث لقاء غريب بين «**سكوبلن**» و «**هيدريك**» ، أدى إلى نتيجة تدعو إلى التهكم . ذلك أن «هيدريك» استنتج بسرعة أن «سكوبلن» يعمل لصالح المخابرات الروسية ، والمعروف أن «ستالين» يديرها بأسلوب مباشر ، حتى يصل إلى إثبات أركان مؤامرة الانقلاب .

مهما يكن من أمر فإن المفاوضات مع «هيدريك» سارت ناعمة ، وانتهت

بموافقة «هيدريك» على شراء وثائق «سكوبلن» . وقال إن لديه وثائق أكثر حساسية حصلت عليها المخابرات الألمانية ، وسوف يدسها لستالين عن طريق واحد من الوسطاء القلائل الذين يثق فيهم «ستالين» ، وهو «إدوارد بينيز» ، رئيس تشيكوسلوفاكيا .

كانت النتيجة واحدة من أفظع حمامات الدماء فى التاريخ . ادعى ستالين أن تمردا عسكرياً قد بات وشيكا ، وقام بعملية تطهير فى القوات المسلحة ، أعدم فيها حوالى ٣٥٠٠٠ ضابط . ولما انتهى التطهير ، كان قد أودى بحياة أكثر من ٩٠٪ من جنرالات الاتحاد السوفيتى ، و ٨٠٪ من رتبة كولونيل ، وأكثر من نصف الرتب الأخرى ، ولم تنهض العسكرية السوفيتية من كبوة المذبحة لعدة سنوات تالية. فلما بدأ الهجوم الألمانى ، وجد أمامه جيشا يكاد يكون بلا قادة ، فخسر سبعة ملايين مقاتل خلال ٢٤ شهراً .

ومهما تكن سعادة حركة المنفيين الروس لهذه النتيجة ، إلا أنهم لم يعلموا شيئاً عن دور «سكوبلن» فيها . وظل المنفيون على شكوكهم فيه وفى زوجته . رأت موسكو ـ لعدة أسباب ـ أن الجنرال «**أنتون ميلر**» ، رئيس الجناح العسكرى لحركة المنفيين ، رجل خطير تجب تصفيته . تقرر اختطافه من مقر قيادته فى باريس ، ثم نقله إلى الاتحاد السوفيتى للتصرف فيه ، وترك تنفيذ اختطافه إلى «سكوبلن» . وفى سبتمر ١٩٣٧ دعاه «سكوبلن» إلى عشاء عمل لمناقشة استراتيجية المستقبل . ومن سوء حظ الداعى أن «ميلر» كان من بين زعماء المنفيين الأكثر شكا فيه . وافق على عقد الاجتماع ، لكنه ـ مدفوعا بالحذر ـ ترك خلفه فى مكتبه قصاصة سجل فيها الموعد .

كلفت هذه القصاصة «سكوبلن» حياته ، وصل «ميلر» فى الموعد المحدد للاجتماع ، فانقض عليه فى الحال أوغاد من المأجورين . لم تدم طويلا مقاومة الجنرال العجوز ، لكن الشجار لفت أنظار شهود عيان . واستطاعت المخابرات السوفيتية فى النهاية لف «ميلر» ووضعه فى سيارة اختفت كما لو ابتلعها الظلام ، ولم تستطع الشرطة الاهتداء إلى «ميلر» الذى كان قد تم تهريبه إلى الاتحاد السوفيتى ، واختفى نهائيا . لكنهم عثروا على القصاصة التى تركها فى مكتبه ، وبحثوا عن «سكوبلن» . اختفى مؤقتا ، ثم قبضوا عليه وعلى «نادجيدا» ، وحوكم

الاثنان ، وثبتت إدانتهما بجريمة الاختطاف وحكم عليها بالسجن ٢٠ عاما ، وماتت فى السجن عام ١٩٤٠م .

أما زوجها فقد عرضت عليه المخابرات السوفيتية مساعدته على الهرب إلى الاتحاد السوفيتى حيث توفر له حياة مريحة . فات على «سكوبلن» أن «ستالين» لا يرضى ببقاء من كان حقيبة للأسرار مثله على قيد الحياة .

شوهد «سكوبلن» حيا لآخر مرة فى ميناء برشلونة بأسبانيا محروسا بمجموعة من الجنود السوفيت ، على ظهر السفينة «كوبان» ، قدموا له شرابا تناول جرعة واحدة منه ، كانت كافية لقتله فى الحال بسم دسوه له فيه . ولما وصلت جثته إلى الاتحاد السوفيتى ، أعطوها لمختبر دراسى فى إحدى كليات الطب .

★ لورد بادن باول الكشاف الأول

اشتهر «**لورد بادن باول**» بأنه مؤسس جمعيات فتيان الكشافة ، وخفى على الكثيرين أنه كان من أنشط جواسيس بريطانيا . توافرت فيه عدة سجايا أدخلته عالم الجاسوسية ، منها : حب المغامرة ، والقدرة على تمثيل المواقف، والأناقة ، وغرابة الأطوار .

أنهى «بادن باول» دراسته عام ١٨٧٦ ، والتحق بفرقة «**الهوسار**» الثالثة عشر ، وانتقلت فرقته إلى «**الناتال**» فى جنوب إفريقيا ، بعد خدمة سبع سنوات فى الهند. وهناك حصل على أولى وظائفه فى المخابرات ، كقائد استطلاع سرى لحدود الإقليم البالغ طولها ٦٠٠ ميل . وبعد عامين نقل إلى إنجلترا ، ثم عاد إلى جنوب إفريقيا عام ١٨٨٧ ، فى وظيفة ضابط مخابرات فى الحملة ضد أرض الزولو .

فى عام ١٨٩٠ عين «باول» سكرتيراً عسكرياً لعمه حاكم «**مالطا**» ، وتولى بعد عام وظيفة ضابط مخابرات منطقة البحر الأبيض المتوسط . فى هذه الوظيفة أتيح له قدر كبير من حرية الحركة والعمل ، فاستغل سلطاته ومهاراته فى خدمة الجاسوسية البريطانية ، وقد عرف عنه إجادة التنكر ، فلما طلب منه ذات مرة أن يجمع المعلومات عن كيفية تسليح إحدى القلاع ، تنكر فى زى فنان ، وتدرب على صيد الفراشات بالشبكة ورسم لوحات لها ، قبل أن ينطلق فى مهمته ، ليسجل تفاصيل المدافع والأسلحة وتحصينات القلعة .

بدأت شهرة «**باول**» تومض فى آفاق بريطانيا بعد صموده المثير ٢١٧ يوماً محاصراً فى بلدة «**مافكينج**» بجنوب إفريقيا ، أثناء حرب البوير ، إلى أن وصلته الإمدادات وفك الحصار عام ١٩٠٠ . وبلغ آنذاك من الشهرة ما جعل «**ونستون تشرشل**» يقول عنه : «لو كان هناك من يقال عنه إنه كسف بشمس شهرته غيره من الأبطال ، لكان ذلك «بادن باول» .

كان «بادن باول» يخفى نشاطه كجاسوس تحت عباءتين فضفاضتين :

* **الأولى** : كونه مفتشا لفرقة الخيالة البريطانية ، فحمله هذا المنصب إلى أمريكا، وكندا ، وألمانيا ، والهند ، ومصر ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها من الدول الدائرة فى فلك بريطانيا .
* **والثانية** : كونه رائد الكشافة الأول ومبتدع فكرتها .

كان قد نشر أثناء حصار «مافيكينج» كتابا بعنوان : «**وسائل مساعدة للاستكشاف**» . واكتشف أن هذا الكتاب لاقى انتشارا أكثر فى الأوساط المدنية مما لاقى فى الأوساط العسكرية ، وأنه كان مرجعا لتجمعات وأندية الشباب . فأثار ذلك فى نفسه اهتماما أكبر بمشاكل الشباب والأولاد ، وحفزه على محاولة تنظيمهم فى إطار يضمن لهم حرية التصرف فى العمل وفردية السلوك بما يلبى تطلعاتهم .

تنبه «بادن باول» عام ١٩٠٤ إلى أن الشباب يقبلون بالآلاف على التدريب فى صفوف الكشافة ما دام التدريب يشبع هواهم ويروق لهم ، وأن الكثيرين منهم مستعدون للتضحية بوقتهم وطاقاتهم من أجل التدريب والتنظيم . وأدرك أثناء تعامله مع فرق الأولاد أن جماهير الشباب فى العالم بحاجة إلى حركة عالمية تتيح لهم التعبير عن أنفسهم وذكائهم وروح المبادرة والمغامرة لديهم . وفى ضوء ذلك تقدم «بادن» بتوصيات لتطوير فرق الأولاد والمهام التى تقوم بها ، سواء شكل أفراد أو جماعات . ومنها أعمال : المراقبة ، والإسعاف الأولى ، وقياس المسافات تقديريا ، ومهارات إقامة المعسكرات ، وتتبع الأثر ، والسباحة ، وإشعال المواقد والنيران بعودى ثقاب فقط ، والطبخ دون أدوات طبخ ، وسباق الكشافة باستخدام البوصلات ، ومهارات الاستطلاع وكتابة التقارير .

وانطلاقاً من هنا ، شرع فى إعادة كتابة مؤلفه سابق الذكر تحت عنوان «وسائل مساعدة للاستكشاف» . وفى يوليو ١٩٠٧ أقام معسكرا فى إحدى الجزر البريطانية، صاحبه فيه ٢١ شاباً ، وكان ذلك أول معسكر للكشافة . ولم يكن بين

تلك الحفنة القليلة ممن عاشوا فى كنف ذلك المعسكر التجريبى من خطر بباله أنه سيكون رائداً فى حركة كشافة عالمية .

وفى العام التالى ألف كتابا عنوانه «**علم كشافة الأولاد**» تهافت عليه الشباب ، ونفد من الأسواق بسرعة مذهلة ، وأصبح الكتاب المرجع الأول والأهم لحركة الكشافة العالمية ، وترجم إلى ٣٥ لغة ولهجة عالمية .

وفى عام ١٩٠٩ زار «باول» البرازيل . واستقبل استقبالا حافلا فى «**ريو**» و«**بيونس إيريس**» . وكانت تشيلى أول بلد خارج بريطانيا تبنت فكرة الكشافة وطبقتها . وفى عام ١٩١٠ استعرض أول تجمع كشفى فى **قصر** «**الكريستال**» البريطانى ، الذى شارك فيه ١١٠٠٠ كشاف . وازدهرت الحركة الكشفية فى كندا والولايات المتحدة عام ١٩١١ ، وأقيم التجمع الثانى للحركة فى بريطانيا وشارك فيه ٢٦ ألف كشاف بحضور الملك جورج الخامس والملكة مارى . وعاشت الحركة الكشفية عصراً ذهبياً ترفع أعلامها فى أكثر من ١٠٠ بلد من بلدان العالم. وبلغ أعضاؤها أكثر من ١٥ مليون كشاف بين ولدان وشبان وفتيات وشابات .

هناك من يربط بين موقع «بادن باول» كقائد للحركة الكشفية العالمية ، وبين اتخاذها كمصدر لجمع المعلومات ، خاصة وأنه كان يهتم بتحليل التقارير التى ترد إليه من جميع أنحاء العالم .

كان يجيد التنكر والتمثيل . طُلب منه أن يتحقق من صدق شائعة عن إنشاء حوض بناء سفن كبير فى «**هامبورج**» . فتظاهر بأنه مجنون يترنح ، وتسكع فى المكان يفحصه ، فلما اعتقله الحراس الألمان اعتقدوا أنه مجنون بالفعل ، وعاجز عن إدراك ما يدور حوله ، فأخلوا سبيله .

فى الفترة الأولى من حرب «**البوير**» الثانية كلفوه باستكشاف جبال «**دراكنزبيرج**» ، فنجح فى عقد صداقات مع عدد من الفلاحين «البوير» وخلال حصار «**مافكنج**» استطاع تجنيد عدد من فتيان الكشافة «**الزولو**» ، ودربهم تدريبا مكثفا سريعا . واقتنع خلال الحملة أن أصابع ألمانيا تحرك المقاتلين البوير ، لكنه عجز عن إقناع السلطات البريطانية بذلك .

من المعروف أن «باول» خدم بلاده فى ميدان الجاسوسية خلال كل من أوروبا ، وجنوب إفريقيا ، وتركيا ، والجزائر ، وتونس ، وأعماق الصحراء الكبرى ، وتوفى «**لورد روبرت بادن باول**» فى ٨ يناير ١٩٤١م ، فى بلدة «**نايرى**» بكينيا .

مخابرات الحرب العالمية الثانية

كانت الحرب العالمية الثانية أكثر مجابهة من الحرب العالمية الأولى على المستوى العالمى . كما كانت أكثر استخداما للمركبات، والدبابات ، والطائرات ، وإسقاط المظلات ، مما أتاح للجيوش سرعة الحركة . لذا كانت المعلومات المسبقة عن نوايا العدو عنصراً حيوياً . من هنا تتضح أهمية جاسوس مثل «**ريتشارد سورج**» وغيره ممن بدأوا نشاطهم قبل اشتعال فتيل الحرب ، فثبتوا أقدامهم فى المجتمعات التى تجسسوا عليها ، وعقدوا الصداقات مع مصادر المعلومات وأحكموا السواتر التى تخفى أنشطتهم بحيث لا يثيروا حولهم أدنى شبهة .

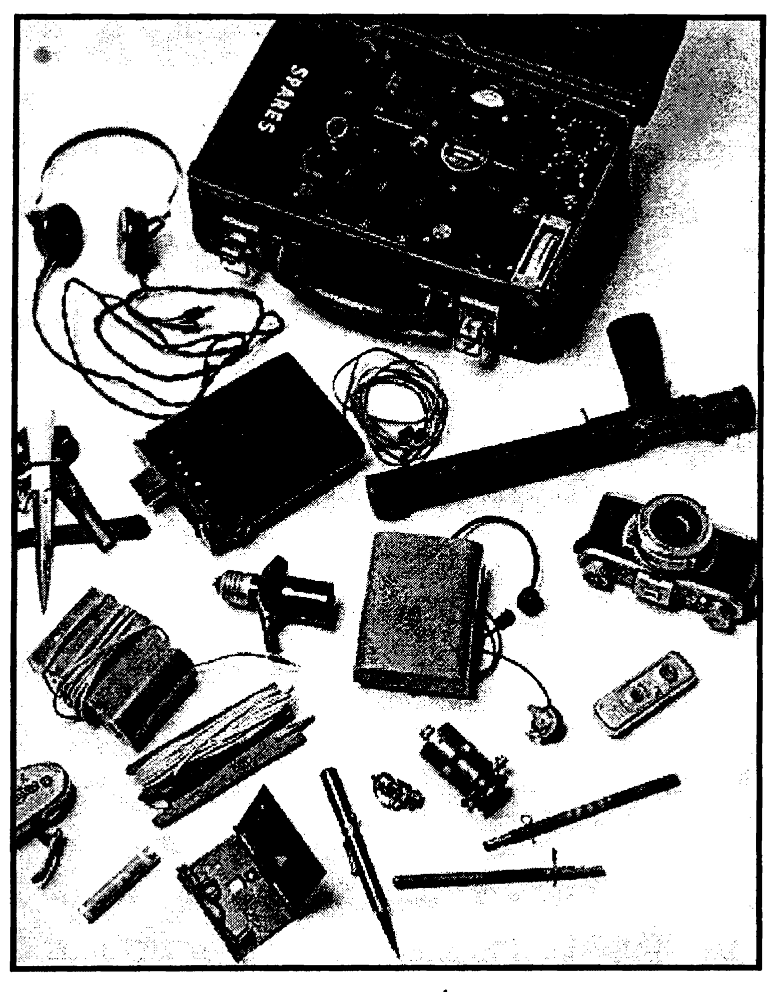
من بين أهداف «سورج» ـ مثلا ـ الحصول على معلومات مسبقة عن خطة اليابان للهجوم على قاعدة «**بيرل هاربور**» البحرية فى المحيط الهادى . لكن لسوء الحظ فاجأت اليابان أمريكا . ولكنه من ناحية أخرى زود روسيا بسيل من المعلومات السرية الهامة ، من عام ١٩٣٥ حتى يوم القبض عليه فى أكتوبر ١٩٤١م كما نفصله فيما بعد .

دبر الأمريكيون فيما بعد انتقاما بعملية جاسوسية اسمها «**عملية السحر**» ، كان اليابانيون قد ابتدعوا شفرة اطلقوا عليها اسم «**ماكينة التحويل الرمزى الأرجوانية**» . اعتقدوا أنها لا تخطئ أو تتعطل ، واستخدموها خلال الحرب فى إرسال معظم الأوامر البحرية . لكن الخبراء الأمريكيين حلوا رموزها ، وصنعوا طرازا خاصا بهم من الماكينة الأرجوانية . وبذلك استطاعوا التعرف على تحركات البحرية اليابانية مسبقا خلال حرب المحيط الهادى .

«**عملية السحر**» كانت لمحترفى الجاسوسية ، ومع ذلك كان فيها مجال للهواة. عرض خادم السفير البريطانى فى «تركيا» على الألمان أن يتجسس لحسابهم . انتحل اسم «سيسرو» . سرق وصور كل وثيقة سرية جدا مرت بالسفارة . من حسن الحظ أن الألمان اعتقدوا أن الوثائق كانت مدسوسة بواسطة الإنجليز ، ولم يتخذوا أى إجراء بصددها . لما حاول «سيسرو» أن يستخدم المبلغ الهائل الذى تقاضاه

خلال الحرب ، قبضت عليه الشرطة بتهمة التزوير ، إذ اتضح أن الألمان دفعوا له نقداً مزيفاً .

كان للشك الألمانى ما يبرره ، لأن الإنجليز دبروا عمليات خداع كثيرة . وقد قاموا أيضاً بتدريب الجواسيس على العمل مع قوات المقاومة الشعبية فى البلاد التى احتلها النازى ، وزودوهم بأدوات مفيدة ، منها تلسكوب على شكل مبسم السيجارة، وخرائط دقيقة جداً بحيث يمكن طيها وإخفاؤها فى جوف قلم . وفى القبو تحت «**متحف لندن العلمى**» ، عكف فريق كامل من العلماء على إنتاج بطاقات تحقيق شخصية مزيفة ، وتصاريح عمل ، وجوازات سفر ، لكل عميل وكل مهمة .



مجموعة أدوات يحملها الجاسوس

اهتمت مخابرات الدول فى الفترة ما بين الحربين الأولى والثانية بالحصول على المعلومات العسكرية والدبلوماسية والصناعية والعلمية بنفس الدرجة . وظلت تتطور من حيث النظم والأساليب والأهداف ، وتتقدم فى خط موازٍ لسرعة التقدم العلمى فى مختلف المجالات ولا زالت ، فتقدم الطيران ـ مثلا ـ أدى إلى استخدام التصوير الجوى فى الكشف عن مواقع المعسكرات والمصانع والمنشآت والمستودعات العسكرية والطرق والكبارى والموانى وغيرها .

وفى الحرب العالمية الثانية دخل التخريب المادى دائرة أهداف المخابرات ، إلى جانب التخريب المعنوى . وانتشر استخدام الخداع ، فكان لكل خطة حقيقية خطة خداعية تغطيها . من ذلك أن «**الجنرال مونتجومرى**» أعد فى الصحراء الغربية معسكرا تشبيهيا متكاملا . بنماذج ثكنات ، ودبابات ، وهياكل منشآت ومرافق ، بقصد تضليل استطلاعات العدو ، قبل هجومه على العلمين عام ١٩٤٢ . كذلك فعل الحلفاء عندما قرروا إبرار قواتهم فى «**نورماندى**» . أوهموا قادة المحور بأن الهجوم سيبدأ من «دوڤر» . وحشدوا هناك المدرعات والسيارات لإبعاد نظر الألمان عن نورماندى . ودسوا إشارات لاسلكية مضللة .

وتميزت مخابرات الحرب العالمية الثانية أيضاً بكثرة عدد أعضاء شبكات التجسس. وقد أكثر الحلفاء منها فى أوروبا ، وشمال إفريقيا ، وآسيا . واستخدموا أجهزة لاسلكية أكثر تطوراً ، وتوسعوا فى إدخال العملاء مواقع الاستطلاع بالمظلات والغواصات والزوارق . ومن أشهر شبكات التجسس : **الأوركسترا الأحمر وشبكة ريتشارد سورج ، وغيرهما** .

★ ريتشارد سورج ذو الوجوه الثلاثة

أجمعت كافة المؤلفات التى حللت أعمال شبكة الجاسوسية السوفيتية فى اليابان ، بإدارة «**ريتشارد سورج**» على أهمية الدور الجوهرى الذى لعبته فى انتصار القوات السوفيتية على الجيش الألمانى فى معركة **ستالينجراد** ، والذى كان بداية نهاية المد النازى ، وذلك بفضل المعلومات التى حصل عليها «سورج» وشبكته فى اليابان ، ومكنت السوفييت من نقل حوالى مليونين من جنودهم ، من حدود سيبيريا الشرقية والجنوبية ، إلى ميدان القتال ، فحالوا دون سقوط العاصمة السوفيتية فى أيدى قوات ألمانيا ، ثم هزيمتها فى كل المعارك التالية .

وصف المؤرخون الألمان «سورج» بأنه أقدر الجواسيس وأشدهم خطراً فى جميع العصور . ولقبه آخر بأنه «**الرجل ذو الوجوه الثلاثة**» . وهو ألمانى الجنسية ولد عام ١٨٩٥ من أبوين ألمانيين . قضى صباه وشبابه فى موطنه ، تأثر بهزيمة بلاده فى الحرب العالمية الأولى ، وقاسى كغيره من الظروف الاقتصادية السيئة التى عاشتها بلاده بعد الحرب . وعانى من البطالة والعجز عن مواجهة متطلبات الحياة ، مما زلزل تفكيره ومعتقداته ، ومهد للتحول الرئيسى فى آرائه ونظرته للمجتمع الألمانى ، ودفعه إلى قراءة المؤلفات الشيوعية ، خاصة كتابات «**كارل ماركس**» و «**لينين**» . وآمن بأن الأنظمة الشيوعية وحدها هى القادرة على حل مشاكل المجتمع الألمانى . وانتهى إلى الالتحاق بالحزب الشيوعى الألمانى فى «**هامبورج**» ، يوم حصوله على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية عام ١٩٢٠م

اجتهد «سورج» فى خدمة مبادئ الحزب منذ يوم انضمامه الأول له . عكف على تلقين الطلبة وعمال المناجم وغيرهم مبادئ الشيوعية ، واشترك فى اضطرابات كييل . وحرض على تمرد الأسطول الألمانى ، ولفت انتباه المسئولين عن المخابرات السوفيتية بذكائه الخارق ، وبديهته الحاضرة ، وإرادته القوية ، وتفانيه فى تحقيق أهداف الحزب الشيوعى ، فعرضوا عليه فكرة التعاون مع المخابرات ، ورحب بها ، واجتاز جميع مراحل التدريب بنجاح ، واستطاع خلال خمس سنوات إجادة جميع الوسائل الفنية اللازمة للجاسوسية ، وثلاث لغات أجنبية هى : الروسية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، بالإضافة إلى الألمانية . وتعلم اليابانية والصينية فيما بعد ، واطلع على مؤلفات سياسية واقتصادية كثيرة ، جعلته خبيراً فى الشئون الدولية . وحرص بعد توليه العمل فى اليابان على دراسة كل ما يتعلق بسياستها الخارجية ، وعلاقاتها الثقافية مع الدول الكبرى ، ومراكز القوى الداخلية التى تسيطر على سياستها .

تكونت الشبكة من خمسة جواسيس هم : سورج نفسه ، وأوزاكى ، وفوكولويتش ، وكلاوش ، ومياجى . وبدأت نشاطها عام ١٩٣٤ ، ونجح جميع أفرادها فى اتخاذ سواتر مناسبة :

سورج : حرص على أن يتستر بالعمل الصحفى لتسهيل حركته فى مجالات المعلومات ، كما حرص على الارتباط الشكلى بالنظام النازى عامة ، والسفارة

الألمانية فى طوكيو بصفة خاصة ، فانضم إلى الحزب النازى فى ألمانيا . والتحق بقسم الصحافة التابع له ، وتقرب من الأوساط النازية الرسمية فكان يدعى فى حفلات حضرها هتلر ، فظهر فى نظر أعضاء السفارة الألمانية بطوكيو والمسئولين اليابانيين بمظهر الموثوق به من الحزب النازى ، وعقد صلات عمل وصداقة مع السفير الألمانى فى طوكيو ، وكان يتناول معه طعام الإفطار يومياً ، كما كان صديقا للملحق العسكرى ، وعينه السفير مديرا للاستعلامات بالسفارة فأصحبت أدق أسرارها بين يديه .

أوزاكى : مواطن يابانى من أسرة نبيلة ، يعمل صحفيا ، له خمسة كتب فى العلاقات الصينية اليابانية ، استمد معلومات عظيمة بحكم المناصب الهامة التى شغلها ومنها : المستشار الإدارى لرئيس الوزراء ، ومستشار اللجنة الوزارية للعلاقات الصينية اليابانية ، ورئيس إدارة مباحث سكك حديد منشوريا الجنوبية ، وعضوية لجان أخرى هامة .

فوكولويتش : ضابط سابق فى جيش يوغوسلافيا . اشتغل مراسلا صحفيا لجريدة فرنسية وأخرى يوغوسلافية . كان يتولى أعمال التصوير الفوتوغرافى . ويراسل وكالة الأنباء الفرنسية ، ليتيح له مجالاً أوسع لحرية الحركة وجمع المعلومات .

كلاوش : أثبت أنه أكفأ عامل لاسلكى لدى المخابرات السوفيتية . وثق فيه «سورج» بشدة ، رغم أن زوجته روسية بيضاء معادية للنظام الشيوعى . تستر فى الأعمال الحرة . وأسندت إليه الشبكة إدارة شركة طباعة أسسوها ، واستطاعوا الحصول على عقد طباعة مطبوعات الحكومة اليابانية والخرائط البحرية ، والتصميمات السرية .

مياجى : فنان يابانى فوجئ فى الولايات المتحدة الأمريكية بالفوارق الطبقية الشاسعة ، مما جعله يعتنق المبادئ الشيوعية ويتحمس لها ، ثم يلتحق بالحزب الشيوعى الأمريكى ، فجندته المخابرات السوفيتية لخدمة أهدافها فى اليابان بحكم مركزه وشهرته .

زود «سورج» موسكو بمعلومات هامة عن تاريخ استيلاء جيش اليابان على السلطة فى فبراير ١٩٣٦ قبل حدوثه بشهر ، وتوقيت الغزو اليابانى للصين ،

وتفاصيل المحادثات بين ألمانيا واليابان لعقد اتفاقية عسكرية بينهما ، ورغبة ألمانيا فى عقد تحالف مع اليابان ضد الاتحاد السوفيتى ، والحصول على نصوص الاتفاقية بعد يومين من توقيعها ، وتقارير عن الفرق اليابانية التى أعيد تنظيمها فى الصين ومنشوريا واليابان ، وبرنامج إعادة بناء الأسطول اليابانى ، والتركيبات الجديدة فى السفن الحربية ، والتصميمات الحديثة للدبابات ، وتعديل تشكيلات الطائرات الجديدة ، وكتالوجات الآلات الصناعية والأسلحة الجديدة ، وجداول الآلات اللازمة للطائرات المقاتلة والقاذفة ، وموعد هجوم ألمانيا على أراضى روسيا فى يونيه ١٩٤١.

★ جاسوسية المقاومة

حكم الألمان أوروبا خلال الفترة من عام ١٩٤٠ـ١٩٤٥م ، لكن جماعات المقاومة واصلت القتال داخل البلاد المحتلة . كانت الجماعات تستخدم عادة الموجات اللاسلكية القصيرة لإرسال المعلومات . وكانت الأجهزة تسمى «**صناديق الموسيقى**» ، ومنها اشتق اسم شبكة شيوعية تعمل داخل ألمانيا ، سميت باسم «**الأوركسترا الأحمر**» ، ظلت «تعزف» معلوماتها إلى موسكو لمدة ثلاث سنوات ، تستقيها من داخل وزارة الخارجية الألمانية ، ووزارة الطيران ، ووزارة العمل ، ووزارة الدعاية . استبد الغيظ بزعماء النازى . ولما ضبطوا الخلايا عام ١٩٤٢ ، أعدموا ١١ زعيما بطريقة وحشية وعلقوا جثثهم على خطاطيف الذبائح مغروسة فى نحورهم .

تسبب بث المعلومات لاسلكيا فى مشكلات معينة . أمكن تحديد مواقع أجهزة الإرسال بعملية تسمى «**التثليث**» ، تعتمد على حساب المثلثات ، وفى حالة ضبط جهاز إرسال كانوا يستخدمونه فى بث معلومات زائفة . طوّر ضابط المخابرات الألمانى «**الكولونيل جيسكى**» لعبة الراديو هذه إلى عمل فنى استولى على وكر إرسال تستخدمه المقاومة الهولندية للاتصال بالمخابرات البريطانية ، فاستخدمه فى إرسال أخبار مزيفة عن نجاحات عظيمة زعم أن المقاومة حققتها فى هولندا ، وطلب بإلحاح إرسال مزيد من العملاء . لبت بريطانيا طلبه . وأسقطت بالمظلات الجاسوس تلو الآخر فى هولندا ، وكان رجال «جيسكى» فى انتظارهم يلتقطونهم بمجرد هبوطهم وينقلونهم إلى معتقلات الأسرى .



تدريب جنود المقاومة الشعبية

لم تكن المعلومات كلها من حصاد العملاء المدربين . كان المدنيون غير المدربين يمثلون العمود الفقرى لمجموعات المقاومة . آلاف المواطنين العاديين من الرجال والنساء عاشوا عهد الاحتلال الألمانى يوما فى البيت ويوما فى الخلاء ، فى خوف متواصل من خطر التعذيب والإعدام . من هؤلاء صباغ فرنسى اسمه « **رينيه دوتشى**» حصل على عمل فى «**منظمة تودت الألمانية**» ، وصار مسئولا عن بناء تحصينات ساحلية على شاطئ فرنسا الشمالى . استطاع أن يسرق خريطة هذه التحصينات التى سميت «**جدار الأطلسى**» ، والتى سلكت طريقها المحفوف بالمخاطر إلى لندن ، فى علبة بسكويت ، يحملها زورق صيد . وأثبتت الخريطة أهميتها القصوى للحلفاء ، حينما أرادوا إبرار قواتهم على شواطئ فرنسا الشمالية .

كانت مجموعات المقاومة فى قمة النشاط حيثما أقام الألمان مشروعات عسكرية جديدة . فقد كررت مجموعة نرويجية تدمير المحاولات الألمانية لصنع الماء الثقيل الضرورى لصنع القنابل الذرية .

★ ليبا دومب والأوركسترا الحمراء

كثيرا ما كان «ليبا دومب» يقول : « أنا شيوعى ، لأنى يهودى » وكان هذا هو التفسير التقليدى ، الذى يذكره يهود أوروبا الشرقية ، الذين رأوا أن فى اعتناق

الماركسية ـ أو مجرد ادعائها ـ خلاصهم من الاضطهاد فى دول أوروبا الشرقية ، قبل الحرب العالمية الثانية . خلق الخوف من المحرقة ثورة متأججة فى أعماق «دومب» وكانت وكالات المخابرات لست دول تغربل أوروبا ، بحثا عن واحد من أعتى الجواسيس على مدى الزمان .

فى عام ١٩٢٥ ، كان «دومب» فى سن التاسعة عشر . وكان ثائرا يؤمن باستخدام العنف لتحقيق الأهداف الثانوية . مما أدى إلى فصله من مصنع جلود فى وطنه بولندا . فى هذه السنة انضم «دومب» إلى الحزب الشيوعى البولندى ، حيث برز حماسه الثورى ، وظهرت مواهبه الاستخبارية ، وقدراته القيادية الطبيعية ، وأثبتت أنه كفء لأمور أعظم . وفى الوقت نفسه التفتت إليه أنظار السلطات البولندية ، فاعتقلته عام ١٩٢٨ لأنشطته الثورية . وصدر إليه أمر بمغادرة البلاد ، بدلا من الحكم عليه بالسجن . فذهب إلى «مارسيليا» بفرنسا ، ثم هاجر إلى «**فلسطين**» .

بمجرد وصلوه إلى فلسطين ، بدأ فى تنظيم خلايا شيوعية ، مما عجل بلفت انتباه سلطات الانتداب البريطانى إليه ، فأبعدوه إلى فرنسا ، حيث أصبح شخصية مرموقة فى شعبة العمال اليهود المهاجرين ، بالحزب الشيوعى الفرنسى . مرة أخرى تسببت مهارته التنظيمية وخبرته القيادية فى إلقاء الضوء الساطع عليه . فظهر خطره بوضوح للسلطات الفرنسية ، لكن الحزب تحرك قبل أن تمسه الحكومة الفرنسية بسوء . وأرسل «دومب» إلى «موسكو» ، ليحضر تدريبا حزبيا أعلى ، فى جامعة الأقليات الوطنية . التابعة لمنظمة «**ستالين**» للأحزاب الشيوعية الدولية ، التى تشرف على أنشطة الحزب فى كل أنحاء العالم .

هذا يعنى أن «دومب» يعتبر من ألمع نجوم الحزب ، وأنه يتدرب ، ويتهيأ ليقوم بدور قيادى مستقبلا . لكن دوره القيادى فى الحزب لم يتحقق ، لأن المخابرات الروسية تنبهت إلى قدراته ، مما كان له أعمق الأثر فى حياته . نفس السمات التى أعجبت قيادة الحزب فى «دومب» وهى الجرأة ، والقدرة على التوجيه ، والذكاء الخارق ، والشعور بالمسئولية ، ودقة الإنجاز ... نفس السمات والقدرات جذبت إليه اهتمام «**جان بيرزن**» ، رئيس المخابرات السوفيتية ، الذى كان يتمتع بقدرة فائقة على تمييز وتجنيد أبرع الجواسيس اكتشف «بيرزين» فى «دومب» ذلك المزيج من

السمات الأساسية للجاسوس النموذجى : برودة التفكير ، ودفء القلب ، وصلابة الأعصاب ، وقوة الشكيمة .

بدأ «دومب» أنسب ما يكون للوظيفة الجديدة : فهو قصير القامة ، قوى البنيان، يشع شخصية قوية نشطة عدوانية ، تعكس انطابعا بأنه مستعد لاختراق حائط برأسه إذا كان ذلك ضروريا للحصول على ما يريد . وكان مظهره يوحى بجرأة متناهية فى تحدى الأشخاص ، وحتى التعاليم الصارمة التى يعتقد أنها خطأ .

صقلت «دومب» سنوات العمل الحزبى السرى ، فأظهر رغبة حقيقية فى أعمال الجاسوسية . بعد فترة وجيزة من العمل مع شبكة صغيرة فى فرنسا فى أوائل الثلاثينات ، لتنشيط مهاراته الجاسوسية ، أصبح مستعدا للدور الحقيقى الذى رسمه له «بيرزن» جاسوس مقيم . فقد كان «بيرزن» يرى أن المخابرات الروسية تحتاج ـ بصفة عاجلة ـ إلى الاستعداد للحرب التى كان واثقا أنها ستشتعل خلال سنوات قلائل . كانت ألمانيا محور الارتكاز . لكن الحزب الشيوعى الألمانى ، وشبكة الجاسوسية السوفيتية فى ألمانيا ، كانا مرهقين بضغوط «هتلر» ، فكان من الضرورى إعادة بناء جهاز مخابرات جديد ، تسهر عيونه لمراقبة أخطر أعداء الاتحاد السوفيتى . راعى «برزن» فى خطته تجنب أخطار محاولة بناء شبكته فى دولة النازى البوليسية . وبدلا من ذلك اعتمد على سلسلة من أجهزة مخابرات صغيرة ، خارج حدود ألمانيا ، على أن تكون أهمها فى بلجيكا وفرنسا ، وأن يبنيها «دومب» بنفسه .

ذهب «دومب» إلى «**بروكسل**» فى مايو ١٩٣٩ وبدأ العمل بمجرد وصوله . كان عليه أن ينشئ عددا من الأغطية التجارية فى أنحاء أوروبا ، تصل مجساتها إلى داخل ألمانيا النازية نفسها . انتحل شخصية رجل أعمال كندى المولد اسمه «**جين جيلبيرت**» ، وأسس شركة تجارية سماها «**سيميكسكو**» ، وفى العام التالى أنشأ شركة «**سيميكس**» فى باريس ، ونشط فى تجنيد العملاء . وما أن نشبت الحرب العالمية الثانية ، حتى كان قد أسس شبكة محكمة التنظيم ، من خلايا تجسس ، تتكون من وكلاء مدنيين محترفين ، وشيوعيين محليين . وامتدت سلسلة خلاياه من بحر الشمال إلى سويسرا ، واشتملت على خلية صغيرة داخل ألمانيا النازية ، تتكون من فريق شيوعيين ألمان ، أخفوا ميولهم السياسية ، وحصلوا على وظائف حكومية .

بلغ عدد عملاء «دومب» حوالى ٢٠٠ عميلاً ، يحتلون مراكز فى ـ أو قرب ـ ما كان يسميها «**نقاط التشغيل**» ، أو مراكز تجمع وتجميع وتوزيع المعلومات . آمن «دومب» بأن المعلومات الحيوية يمكن وجودها حتى فى أبسط المكاتب الحكومية المغمورة ، بشرط أن يعرف العملاء ضالتهم . أثبت «دومب» صحة نظريته هذه بالتطبيق فى فرنسا ، حيث كان معظم أفضل عملائه بعد الغزو الألمانى اكتشف أن أحسن طريقة للحصول على معلومات عن مواقع ونظم القوات الألمانية فى فرنسا ، كانت عن طريق وكالة صغيرة غير مشهورة ، اسمها «**المكتب الفرنسى لإسكان الجنود**» ، وهى وكالة فى «**فيشى**» تعمل فى مجال تنظيم إسكان قوات الاحتلال الألمانية ، وفقا لنظم إسكان الجيش الفرنسى ، مع تزويدهم بتسهيلات مدنية . ومن خلال العملية كانت الوكالة تعرف تحركات واتجاهات كل الوحدات الألمانية فى البلاد . وبنفس الطريقة كانت شبكة من موظفى السكك الحديدية الفرنسية الذين يعملون مع الألمان فى تحريك القطارات العسكرية الألمانية بالنظام الفرنسى ، ومن خلال ذلك يعرفون تحركات الوحدات الألمانية داخل فرنسا وخارجها .

وتبنى «**دومب**» أيضا إنشاء شركة هامة كغطاء لنشاطه التجسسى ، تعمل مع «**منظمة تودت الألمانية**» ، لتأديه جميع أعمال البناء العسكرى ، سواء منها مبانى المكاتب والإيواء ، أو القواعد الحربية ، وكل ما يتعلق بماكينة الحرب الألمانية . وكان ممثلو شركة «سيميكس» يحصلون على جوازات مرور من السلطات العسكرية الألمانية ، تسمح لهم بدخول المناطق العسكرية الممنوعة ، وهى أقصى ما يحلم به الجواسيس .

خلال الأشهر الثمانية عشر الأولى من الحرب ، لم يدر الألمان بشئ عن شبكة «دومب» المنتشرة فى أوروبا المحتلة . كان «دومب» حذرا ، يعلم أن أجهزة اللاسلكى التى يستخدمها فى إرسال المعلومات إلى موسكو تمثل أهم نقاط ضعفه، لأن فرق الاهتداء إلى أجهزة اللاسلكى ـ الألمانية ـ كانت على جانب عظيم من المهارة والخبرة ، فكان «دومب» يغير أماكن أجهزته على فترات قصيرة ، ينقل بعدها الأجهزة إلى مواقع جديدة .

فى عام ١٩٤٠ أثمرت معلومات «دومب» عن تحركات القوات الألمانية فى فرنسا وبلجيكا ، حينما اكتشف عملاؤه تحرك القوات الألمانية المفاجئ نحو الشرق.

وطالما أن بولندا لم تكن فى خطر هجوم وشيك ، استنتج «دومب» أن «هتلر» حول انتباهه عن بريطانيا ، إلى الاتحاد السوفيتي . وتمكن «دومب» بالاشتراك مع مخابرات أخرى ، فى ديسمبر عام ١٩٤٠م، أن يرسل قدراً ضخماً من المعلومات من أجهزته المتنقلة ، عن عملية «بارباروسا» ، خطة هتلر لغزو الاتحاد السوفيتى فى ربيع عام ١٩٤١ ، بما فى ذلك الوحدات الألمانية المخصصة للعملية ، وزود موسكو بنظام المعركة كاملا .

تكلف «دومب» مجهودا جبارا لإرسال كل تلك المعلومات فى رسائل قصيرة . لكنه شعر أن العمل يستحق ما بذل فيه من جهد ، طالما أن الاتحاد السوفيتى قد أدرك الخطر . وكم كان فزعه كبيراً ، حينما رفض ستالين تصديق تقاريره واستنتاجاته . ولشدة اقتناعه بأن الألمان لن يهاجموا الاتحاد السوفيتى ، علق على تقرير المخابرات السوفيتية القادم من «دومب» ، بضرورة معاقبة كاتب التقرير . ومن حسن حظ «دومب» أن قيادة المخابرات السوفيتية تحملت مخاطر تجاهل هذا التعليق.

لم يتوقف «دومب» عن تغذية موسكو بسيل متصل من المعلومات عن الحشود العسكرية الألمانية للغزو المرتقب ، الذى استمر «ستالين» فى تجاهله.

وفجأة تغير كل ذلك صباح ٢٢ يونيه ١٩٤١ ، حينما غزت ألمانيا الاتحاد السوفيتى . وهنا فقط ثبت صدق تقارير «دومب» ، فانهالت عليه طلبات مركز المخابرات السوفيتية فى موسكو ، لإرسال كل قصاصة معلومات يمكنه جمعها عن الآلة الحربية الألمانية . واستجابة لذلك اشتغلت أجهزة اللاسكى التابعة «لدومب» على مدار الساعة تقريبا ، تضخ المعلومات نحو الشرق . واستطاع أن يحذر من خطة ألمانية لهجوم نحو «موسكو» وفى شهر نوفمبر استطاع أن يعرف تفاصيل خطة ألمانيا العدوانية على القوقاز ، التى انتهت فى «**ستالينجراد**» .

عند هذا الحد أدرك «دومب» أن عمليته تفقد قيمتها تدريجيا . كان يعلم أن نجاحه المستمر فى بث العلومات إلى موسكو ، هو ذاته بذرة هدم شبكة مخابراته بأسرها ، لأن فرق البحث الألمانية عن أجهزته اللاسلكية كانت توشك أن تهتدى إليها وتوقع بها . المأزق لا مخرج منه .. فى تلك الساعة الحرجة كان الاتحاد السوفيتى فى أمس الحاجة إلى المعلومات التى يرسلها «دومب» . ولم يكن أمامه

خيار إلا أن يشغل أجهزته اللاسلكية الساعات تلو الساعات . وهذا يعنى إعطاء الفرصة لفرق البحث الألمانية عن أجهزته اللاسلكية للعثور عليها .

كان الألمان يقتربون منها بالفعل . فقد ظلت محطات البحث الألمانية ، تستكشف الرسائل اللاسلكية الشفرية المتجهة إلى الشرق ، من عدة أجهزة إرسال فى الغرب ، منذ عام ١٩٤١ ، ورجحت أنها تابعة للمخابرات السوفيتية . وعلى الرغم من عجز الألمان عن حل الشفرة ، إلا أنهم واصلوا بذل الجهد للبحث عن الأجهزة وعن المرسلين . وخصصوا لذلك عملية مضادة للجاسوسية مشتركة بين الجستابو والمخابرات الألمانية .

فى يونيه ١٩٤١ اتضح للألمان أن البث بدأ فجأة يمتد عدة ساعات فى نوبة الإرسال الواحدة ، مما أتاح لفرق البحث اللاسلكى وقتا أطول لتتبع مصدر الإشارات . وكعادتهم فى استخدام مصطلحات موسيقية لتسمية عمليات البث السرى الحديثة ، أطلقوا على عملية شبكة دومب : «**الأوركسترا الأحمر**» ، وهو الاسم الذى عرفت به بين أساطير الجاسوسية .

حينما اقترب الألمان من محطات «دومب» ، اتخذ تدابير فك شبكته وهرب . أخفى شخصيته تحت أسماء مستعارة مختلفة ، بما فيها الاسم الأكثر استخداما ، وهو «**جين جيلبرت**» أو «**مسيو جيلبرت**» ، الذى قيل إنه توفى فجأة وفاة طبيعية ، وكان لدومب ـ بالطبع ـ شاهد مقبرة يحمل هذا الاسم أعد لمدفن فارغ ، فى مقابر باريس .

حدد «دومب» يناير ١٩٤٢ موعدا أقصى لإنهاء تصفية شبكته . لكن فى ١٣ ديسمبر ١٩٤١ عثر الألمان على إحدى محطات الإرسال الهامة فى بيت بمدينة بروكسل .. أغاروا على البيت وقبضوا على أعضاء كثيرين من الشبكة ، ومشغل لاسلكى يعمل على الجهاز . والأغرب من ذلك أن «دومب» نفسه حضر إلى البيت أثناء الغارة ... فكر بسرعة واستطاع أن يفلت ، مدعيا أنه بائع أرانب متجول، فلم يتعرض له الجستابو بسوء ، وتركوه يمضى فى سبيله .

أسفر تعذيب العملاء المقبوض عليهم عن سرعة التعرف على حقيقة شخصية بائع الأرانب المتجول ، فاتجهت قوات الجستابو إلى الانتشار فى كل مكان لصيد «دومب» . وفى الوقت نفسه بدأ الألمان يحطمون شبكة الأوركسترا الأحمر ، حتى

انهارت تماما فى كل أنحاء أوروبا بانتصاف عام ١٩٤٢ . واستطاع «دومب» أن يتهرب من الاعتقال حتى أكتوبر ١٩٤٢م، حين تعرف الألمان على أحد أسمائه المستعارة ، وتعقبوه إلى عيادة طبيب أسنان فى باريس . حيث جلس على مقعد العلاج ينتظر يد الطبيب ليخلع ضرسا مريضا .. قال لوكلاء المخابرات الألمانية وهم يقبضون عليه : «أهنئكم. لقد أجدتم العمل» .

ظل ما حدث بعد ذلك موضع جدل . قال الألمان : كانت المخابرات الألمانية تطمح إلى تنفيذ خطة ذكية . فى تقديرهم أن «موسكو» تعرف أن «الأوركسترا الأحمر» آيل إلى الانهيار ، لكنها لا تعرف الفروع التى سقطت ، كما لم تعرف بعد أن «دومب» نفسه وقع فى الأسر . خطة المخابرات الألمانية تقضى باستخدام «دومب» مخلب قط ، يغذى موسكو بمعلومات خادعة . ادعى الألمان أن «دومب» رحب بالفكرة ، بل وافق على خيانة الأعضاء الباقين من «الأوركسترا الأحمر» ، وأعضاء المقاومة الفرنسية الذين خدموا كعملاء لشبكته . قال «دومب» فيما بعد إنه وافق أن يشترك مع الألمان فى لعبة اللاسلكى الصغيرة ، على أمل تحذير موسكو فى أول فرصة وأنكر خيانته لأى عميل من عملاء عملية «الأوركسترا الأحمر» .

بدأ الألمان بث المعلومات المزيفة إلى «موسكو» موقعة باسم «دومب» . وكانت ردود السوفييت توحى بأن «موسكو» ابتلعت الطعم . لكن الحقيقة هى أن المخابرات السوفيتية شعرت من أول لحظة بسقوط المحطة ، عن طريق الإشارة السرية . وأدركت أن «دومب» أصبح يعمل تحت سيطرة المخابرات الألمانية . لذا استمر الروس فى اللعبة إلى النهاية ، وطلبوا المزيد من المعلومات عن الخطط العسكرية الألمانية . وفى يونيه ١٩٤٣ أدركت المخابرات الألمانية بطريقة ما أن الروس يخدعونها، فأنهوا المباراة .



ليبا دومب

مهما تكن خطة الانتقام التى دبرها الألمان ضد «دومب» ، فقد تفاداها بالهرب فجأة من قبضة المخابرات الألمانية الرخوة ، إذا طلب من حراسه مرافقته إلى صيدلية لشراء عقار لقلبه ، وتسلل من الباب الخلفى ، بينما هما ينتظران خروجه من الباب الأمامى ، واختفى تحت أرض باريس ، ولم يظهر إلا بعد التحرير . بعد عدة شهور من التحرير ، طلبته «موسكو» لمناقشة موضوعات غير محددة . وعندما وصل ارتكب خطأ الشكوى من تجاهل معلوماته عن عملية «بربا روسا» ، وإصرار موسكو على إطالة فترات البث مما عرض الشبكة إلى الانفضاح بواسطة الألمان .. وجهوا إليه تهمة خيانة «الأوركسترا الأحمر» لصالح الألمان ، وصدر ضده حكم بالسجن ١٠ سنوات . وأفرج عنه فى أعقاب وفاة «ستالين» عام ١٩٥٣م ، وأذنوا له بالهجرة إلى وطنه بولندا .

تخلص «دومب» من الشيوعية ، وتحول إلى قضية الصهيونية ، وأصبح زعيم البقية الباقية من أفراد الطائفة اليهودية البولندية وسرعان ما اصطدم بالسلطات حينما رفضت الحكومة السماح للطائفة بالهجرة إلى إسرائيل . وكاد «دومب» أن يغيب فى السجن مرة أخرى ، لولا أن أنقذته المخابرات السوفيتية ، إذا بدأت حملة دعاية تجلو فيها صور جواسيسها ، بنشر تفاصيل بطولات أشهرهم ، ومن بينهم «دومب» . وهكذا أنقذه النشر من السجن فى بولندا ، لكن السلطات ظلت متمسكة بعدم السماح له بالهجرة إلى إسرائيل ليعيش سنوات عمره الأخيرة . وأخيرا ـ تحت ضغط من موسكو ـ أذنوا له بالهجرة عام ١٩٧٤م ، وتوفى فى «القدس» عام ١٩٨٣م .

★ فريتز كودرز وانتصار المحتال

اسمه الحركى «ماكس» والمستعار «**ريتشارد كلات**» ، والحقيقى «**فريتز كودرز**» ولد فى فينا عام ١٩٠٣ ، ولا يعرف حتى الآن متى مات ولا أين دفن . كان وسيما ، حلو اللسان ، جم الأدب ، منافقاً ، كثير المجاملة ، لا يكف عن الرياء والملق ، كما كان حاد الذكاء ، تتجسد فيه سمات الأقليات ، بما فى ذلك النعومة ولين الجانب وبرود الأعصاب ، وشكلت منه هذه السمات نموذجا مثاليا لجواسيس أوروبا فيما قبل الحرب العالمية الثانية .

كان لمولده من أم يهودية وأب كاثوليكى أثر كبير فى تكوين شخصيته . وعاش

سنى ما قبل حرب عام ١٩٣٩ حياة مبنية على الخداع والاحتيال ، بدأ حياته فى العشرينات صحفيا ، وسرعان ما اكتشف أنه يستطيع أن يثرى سريعا عن طريق الصفقات المريبة ، وبيع أوراق تحقيق الشخصية ، والتوسط لطالبى الهويات وجوازات السفر لدى المرتشين من موظفى إدارات الجنسية فى أكثر من خمسة بلاد أوروبية . وهكذا توطدت العلاقة بينه وبين شبكة من موظفى الحكومات الأوروبية ، فيما بين بحر البلطيق ، والبحر الأبيض المتوسط .

ما إن أقبل عام ١٩٣٩ حتى اكتمل نضج كودرز كمشروع جاسوس . لفت أنظار شخص غمض اسمه «أندرى توركهول» ، فضمه إلى شبكة جاسوسيته الضخمة ، التى شكلت أساسا من الروس البيض المنفيين ، لحشد المعلومات من جميع أنحاء أوروبا ، بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى ، أو هكذا زعم «توركهول» لمشغليه الموهوبين ـ وكالة المخابرات الألمانية ـ بينما هو يدين بالولاء الحقيقى للمخابرات السوفيتية ، التى جندته قبل عشرين سنة تقريبا ، وكان «توركهول» مواظبا على إبلاغ السوفيت بعمليات المخابرات الألمانية أولا بأول . وأوحى تجنيد «كودرز» إلى المخابرات السوفيتية بفكرة لعبة أكبر لخداع ألمانيا النازية ، وتتطلب هذه اللعبة خطة صبورة جسورة ، يستغرق تنفيذها سنوات ، يتم خلالها تزويد «كودرز» بالتعليم والتدريب المكثف حتى يصبح جديرا بالثقة قادرا على القيام بكل ما يعهد به إليه من أعمال .

تولى «**توركهول**» تطوير «كودرز» بأناة ، وكان الأخير يختفى وراء اسم مستعار، هو «**ريتشارد كلات**» الذى يعمل كرجل أعمال . وبمساعدة موسكو أخذ يغذى المخابرات الألمانية بسيل من معلومات الدرجة الثانية ، ليعزز نمو سمعته ، كما افتعل بنفسه بعض العمليات البطولية ، كسرقة أوراق دبلوماسية حساسة من مكتب القنصلية الأمريكية فى «زغرب» بيوغوسلافيا .

كان «كودرز» يتقاضى مرتبا شهريا طيبا من المخابرات الألمانية ، لكنه كان يريد شيئاً آخر ، وهو قطعة من الورق لا تقدر بثمن ، وهى شهادة إثبات الجنسية الآرية . تصدر هذه الوثيقة حكومة النازى ، وتشهد بأن حاملها «آرى» طبقا لتحريات خبراء الأجناس . وتعتبر هذه الورقة بمثابة منقذ من الهلاك ، بالنسبة لأبناء الزواج المختلط من أمثال «كودرز» ، وبدونها يمكن التقاطه فى أية لحظة ، وشحنه إلى معسكر الموت .

لم يكن الحصول على هذه الشهادة أمراً سهلاً ، فقد كان النازى يتشددون جداً فى صرفها لأى شخص تشم فيه رائحة النسب اليهودى ، وحتى كبار ضباط المخابرات ، لم يكن لهم حظ كبير من النفوذ حيال التوصية بصرفها ، بل إنهم كانوا يخشون التعرض للشبهة . لم تتمكن المخابرات الألمانية من تزويده بهذه الشهادة ، التى تقيه من الجستابو إذا خالف قيداً من قيود النازى الألمانى الصارمة . لم يكن مسموحا لأى يهودى بالخدمة فى وكالة المخابرات الألمانية ، ومما يثير الدهشة أن «كودرز» لم يحظ بحماية المخابرات الألمانية وحدها كعميل يهودى ، وإنما شملته مخابرات النازى الألمانية أيضاً بحمايتها ، فتوافرت له إمكانيات أعظم .

أما السبب فهو أنهم كانوا يعتبرون «كودرز» المصدر الأصلى لمعلومات الاتحاد السوفيتى ، وهو بذلك مصدر ثمين ، يستحق المغامرة بتوظيفه مهما يكن يهوديا . واستطاع الجاسوس اليهودى أن يثبت للألمان حسن ظنهم به ، وأن يجلو سمعته لدى المخابرات الألمانية ببعض الأعمال ، وأوصى «توركهول» به خيرا فى تقرير ذكر فيه أن «لكودرز» شبكة اتصالات خاصة به داخل الاتحاد السوفيتى ، امتدت إلى بعض كبار ضباط قيادة الجيش .

التقط الألمان الطعم الذى ألقى لهم فى الوقت المناسب . كانوا قد غزوا الاتحاد السوفيتى ، ويتلهفون على معلومات عن الجيش الأحمر . وقال «كودرز» إنه قادر على تزويدهم بها ، بشرط أن يمدوه بجهاز اتصال لاسلكى ، وأن يطلقوا له حرية الحركة بين مصادره العليا والمخابرات الألمانية ، وأن لا يطلب منه كشف النقاب عن شخصية مصادر معلوماته .

وافقت المخابرات الألمانية على شروطه ، وأطلقوه فى «**صوفيا**» عاصمة بلغاريا ومعه جهاز الاتصال ، وأثبت «**ماكس**» ـ وهو اسمه الحركى ـ منذ اللحظة الأولى أنه عميل بارع . إذا أعطى رؤساءه سيلا من تقارير ممتازة عن نظم الجيش السوفيتى ومواقعه ، واتضح أنها معلومات صحيحة ، وإنها أدت إلى انتصارات فنية . وفى عام ١٩٤٢ صار «كودرز» عميل ألمانيا الأوحد ، وأهم مصدر للمعلومات عن الاتحاد السوفيتى ، وامتدحه عمالقة الجاسوسية من أمثال : «**رينهارد جيهلن**» رئيس المخابرات العسكرية الألمانية ، و «**ويلهيلم كاناريز**» رئيس المخابرات الألمانية .

من ناحية أخرى كان وكلاء المخابرات الألمانية فى صوفيا لا يشعرون بارتياح

لكودرز ، بل ساورتهم الشكوك فيه منذ البداية ، وتعمقت شكوكهم على مر الأيام. كانوا يسألون بعضهم البعض : من أين يحصل على تلك المعلومات بالغة الأهمية؟ ... كان يدعى أن مصادره تضم ضباطا كبارا فى القيادة الروسية العليا ، وأن له مصادر مقربة من «ستالين» نفسه . وقال إن تلك المصادر كانت تبث له القرارات سراً بعد دقائق من صدورها فى اجتماع ستالين بمجلس الحرب .

مثل هذا الكلام لا يصدقه ضابط مخابرات يعرف حكم ستالين البوليسى ومقدار الدقة والإحكام الذى كان يتميز بهما نظام الأمن الداخلى الروسى لذا راقب بعض ضباط المخابرات الألمانية فى صوفيا فترات تشغيل جهاز راديو «كودرز» ، فاكتشفوا أن مدة التشغيل لا تضاهى حجم المعلومات التى يدعى كودرز أنه يستقبلها ، فضلا عن أن فكرة وجود خونة ضمن القيادة السوفيتية العليا ، وقيامهم ببث المعلومات من الكرملين مباشرة ، لا يصدقها حتى السذج .

وبناء عليه انتهى رجال المخابرات الألمانية فى صوفيا إلى أن «كودرز» عميل سرى زرعه السوفيت فى المخابرات الألمانية بقصد تمرير الخدع والأضاليل الاستراتيجية . وعلى الرغم من تكرار الشكوى لقيادة المخابرات الألمانية فى «**برلين**» إلا أن الثقة فى «كودرز» لم تهتز ، لأن المعلومات التى كان يحصل عليها كانت حقيقية وقوية ، ولا يهم معرفة مصدرها .

لم يعرف الألمان أن الروس يرخون لهم حبل الوقت فى انتظار اللحظة المناسبة . ضحوا كثيرا من أجل تغطية «كودرز» وإثبات صدقه ، وفى أواخر شتاء عام ١٩٤٢ تحرك الروس ، وقال «كودرز» للألمان إن مصادره الروسية أخبرته بخطة مواجهة الجيش السادس الألمانى فى «ستالينجراد»(٭) وأوامر ستالين بالدفاع عن المدينة لآخر قطرة دماء وأضاف «كودرز» تفاصيل أخرى ، فحدد فرق الجيش الروسى المخصصة للمعركة ، وخطة نقل الوحدات عبر نهر «الفولجا» ليلا ، وأسماء القادة المكلفين بإجلاء الألمان عن المدينة .

بدت المعلومات كأنها كاملة ممتازة ، لكن سرعان ما اكتشفت المخابرات الألمانية أن «كودرز» لم يعرف أن خطة السوفيت تضمنت الهجوم بحركة كماشة ضخمة تكتسح شرق وغرب المدينة ، مع تركيز الضغط على الأجنحة الضعيفة ، المكونة من القوات المجرية والرومانية المتحالفة مع الألمان ، وهكذا حاصرت الجيش السادس الألمانى بأسره ، وقوامه ٢٥٠٠٠٠ جندى. وأحاط المدافعون السوفيت بستالينجراد

خلال شهر ، وأرغموا ما بقى من الجيش السادس على الاستسلام وكانت هزيمة لم تقم للجيش النازى بعدها قائمة .

رغم هذه الكارثة ، ظل الجاسوس اليهودى موضع اعتبار واضح ، وفى عام ١٩٤٤ حبك السوفيت خدعة أخرى كانت القاضية ، وأنهت دوره المزعوم كأعظم جواسيس ألمانيا . الخدعة تتعلق بقرار شن هجوم عسكرى سوفيتى عام ، لتحطيم الجيوش الألمانية فى الشرق وأبلغ «كودرز» المخابرات الألماينة بأن الهجوم الروسي وشيك ، وأنه موجه إلى جنوب «أوكرانيا» ، بقصد احتلال «البلقان» ، مما دفع الألمان إلى تركيز قواتهم فى الجنوب ، ولما هبت العاصفة ، اتضح لهم أن الهجوم الروسى تركز فى الجبهة الوسطى ، على بعد أكثر من ٤٠٠ ميل وهلك فى المعركة حوالى نصف مليون جندى ألمانى ، لم يتوقف نزيف دماء الألمان ، ولم يتوقف الزحف الروسى بعد هذا الهجوم ، إلا بعد أن قرعت أقدام الجنود السوفيت شوارع «برلين» بعدة عدة أشهر .

بدأ النزاع يدب بين «كودرز» وضباط الاتصال الألمان فى «صوفيا» . اكتشفوا أنه يدير عددا من العمليات الخاصة ، ويرشو رجال الشرطة البلغار ليغضوا الأبصار عن بعض عملياته ، مما ينم عن خلل فى شخصيته وتصرفاته ، جعلهم يعيدون النظر فى عملية «ماكس» برمتها ، وأخيرا اختفى كل شك فى أن «كودرز» عميل زرعه الروس فى جسد المخابرات الألمانية .

توصلت المخابرات البريطانية إلى النتيجة نفسها ، أثناء قيامها بعملية «**ألترا**» لقراءة الشفرات المتبادلة بين صوفيا وبرلين عام ١٩٤٣ ، أبلغ الإنجليز حلفاءهم الروس بأن للألمان جاسوساً يحصل على معلوماته من مصادر عسكرية روسية عالية ، ويغذى بها المخابرات الألمانية بواسطة الراديو فى «صوفيا» ، حيث يوجد عميل مقيم، يحول المعلومات إلى «**برلين**» ، واسمه الحركى «ماكس» . واتضح للمخابرات البريطانية أن الروس لم يكترثوا رغم خطورة البلاغ ، وهذا البرود الشديد لا يعنى سوى أن ماكس عميل روسى يلعب دوراً ماكراً .

فى الوقت نفسه انتهت المخابرات الألمانية إلى أن ماكس يعمل فى خدمة السوفيت . وهذا يكفى فى الظروف العادية للحكم عليه بالموت . لكن «كودرز» نجا لأن المخابرات الألمانية كانت مرتبكة فى ذلك الوقت العصيب بعد إجهاض مؤامرة الإطاحة بهتلر عام ١٩٤٤م ، التى ثبت تورط «كودرز» فيها ، صدر قرار بحل وكالة المخابرات الألمانية ، وإسناد وظيفتها إلى إدارة أخرى . ومما يثير الدهشة أن

الإدارة الجديدة استمرت فى الاعتقاد بأن «كودرز» عبقرى ، وصممت على إنقاذه وحمايته . نقلته للعمل فى خدمة المخابرات المجرية ، تهربا من القانون الذى يجرم استخدام عميل يهودى فى وكالة المخابرات الألمانية أو فروعها . لكن هذه الحيلة فشلت ، فقد استشاط غضب هتلر حينما علم أن وكالة مخابراته كانت تستخدم عميلا يهوديا ، فأمر بإرساله إلى معسكرات الاعتقال . تدخل الجنرال «**هينز جوديريان**» رئيس الأركان العامة ، لإلغاء أمر اعتقاله ، واستغرق ذلك وقتا قضاه فى سجن عسكرى ، وأفرج عنه فى مايو ١٩٤٥م حينما كانت ألمانيا النازية تنهار . فهرب إلى النمسا تحت حماية «**توركهول**» ، وبعد أسابيع قليلة قبض عليه الأمريكيون باعتباره عميلاً نازياً.

أمضى فى المعتقل الأمريكى عاما ، لكنه استطاع باحتياله أن يحصل على الإفراج ، بل أنه تمكن من إقناع «**مكتب الخدمات الاستراتيجية**» بوضعه فى قائمة العملاء العاملين ضد الاتحاد السوفيتى فى النمسا . استاء السوفييت من تحوله المفاجئ ، حينما أبلغهم به «توركهول» وفى فبراير ١٩٤٦م حاولوا اختطافه بواسطة فريق من العملاء يرتدون زى الشرطة العسكرية الأمريكية ، لكن عملاء المخابرات أحبطوا المحاولة ، وفطن «كودرز» إلى ما يراد به فاختفى . وفى عام ١٩٦٤م ظهر مرة أخرى فى «**فينا**» ليعرض خدماته على وكالة المخابرات الأمريكية، لكن أحدا لم يثق به من رجال الوكالة ، فرفضوا عرضه ، واختفى مرة ثالثة .

مرت سنوات عديدة قبل أن يهتدى الأمريكيون إلى وثائق ، حللوها ، فتحققوا من أن «كودرز» هو ذاته صاحب الاسم الحركى المزيف «ماكس» العميل الخفى الذى فعل الكثير من أجل تلغيم عمليات ألمانيا العسكرية فى الجبهة الشرقية .

ترك اختفاء «كودرز» علامات استفهام كثيرة حول «عملية ماكس» ، فى مقدمتها سؤال حول دوافعه .. لماذا وضع رأسه فى فم الأسد ، بممارسة خدعة يعرف أنها قد تكتشف؟ .. لا دليل على أنه كان ذا ميول شيوعية ، وإلا قلنا إن دوافعه كانت سياسية .. هل وافق على الإسهام فى تدمير النازى لأنه كان يهوديا يبغى الانتقام من هتلر؟ ... ربما ، مع أنه لم يكن متدينا يهوديا ، وكان يصر دائما على أنه كاثوليكى؟ ... هل كان الحصول على المال هو الدافع؟ ... ربما ، وقد كان يتقاضى أجره من الجانبين .

★ جثة تقوم ببطولة عملية اللحم المفروم

فى عام ١٩٤٣م ، كان الحلفاء قد سيطروا على شمال إفريقيا ، واستعدوا لغزو أوروبا المحتلة ، قرروا أن « **صقلية**» أنسب مكان لإبرار القوات ، لكنهم وجدوا أن الألمان سوف يستميتون فى الدفاع عن «صقلية» . وفكروا فى خداع المحور ، وإيهامهم بأن أساطيل الحلفاء سترسو فى مكان آخر . وجدت المخابرات البريطانية حلاً للمشكلة فى مشروع فذ ، اسمه الرمزى «**عملية اللحم المفروم**» ، وكان بطلها جثة .

حصل رؤساء المخابرات على جثة رجل مات بذات الرئة . ألبسوها زى ضابط بالبحرية الملكية . وزودوها بأوراق تشير إلى أنه «الميجور مارتن» ، وأنه فى مهمة سرية إلى قادة الحلفاء فى شمال إفريقيا ، يحمل وثائق سرية توحى بأن الغزو الكبير لن يقع فى «صقلية» ، وإنما فى «**سردينيا**» و «**اليونان**» .

تم نقل الجثة بالغواصة سرا إلى شاطئ « **هيولفا**» فى إسبانيا ، وتركت للأمواج تدفعها ، لتبدو وكأن «**الميجور مارتن**» قد غرق بعد حادث سقوط طائرته فى البحر. كان فى «هيولفا» عدد من الجواسيس الألمان ، وافترضت المخابرات البريطانية أنهم سيعرفون أن أمواج البحر ألقت على الشاطئ جثة تحمل وثائق ، ومن ثم يبلغون القيادة الألمانية العليا .

يتوقف نجاح الحيلة على مقدار ما يبدو عليه مظهر الجثة من إقناع وكان على المخابرات أن تختلق للميجور مارتن المزيف قصة حياة كاملة . وأضفت عليه شخصية كاملة التفاصيل . اختلقوا له قصة حب أثناء الحرب . وجعلوا له حبيبة اسمها «**بام**» ، تعمل فى الأدميرالية ، وضعوا صورتها الفوتوغرافية فى حافظة نقوده. وزودوه بخطابات غرامية تبدو بالية من كثرة القراءة ، وفاتورة شراء خاتم الخطوبة ، وخطاب قاسٍ من مدير البنك ، وآخر يفيض عطفاً وحناناً من والده ، وكعبى تذكرتى مسرح للإيهام بأنه أمضى الليلة الأخيرة مع «بام» قبل قيامه بالمهمة السرية التى أنهت حياته . وحتى تستكمل الحبكة آخر لمساتها ، نشر ضباط المخابرات نبأ وفاة «**ميجور مارتن**» فى صفحة الوفيات بجريدة «**التايمز**» .

وضعوا الجثة فى صندوق معدنى كبير مكتوب عليه «**أدوات بصرية**» ؛ ونقلوه إلى غواصة وأخرجوها من الصندوق لتدفعها الأمواج فى ٣٠ أبريل عام ١٩٤٣م .

وكما كان متوقعا ، تم اكتشاف الجثة فى «**هيولفا**» . وكشفت أوراق الجاسوسية الألمانية بعد الحرب ، كيف أنها اعتبرت الوثائق السرية ضربة حظ وبناء عليها أرسل الألمان الجيوش والأساطيل إلى اليونان وسردينيا ، وحولوا اهتمامهم عن صقلية ، فوقعت فريسة سهلة لغزو الحلفاء .



إنزال الجثة من الغواصة

ومما يذكر أن مخابرات الحلفاء قد حشدوا كل مقومات النجاح لعملية «**اللحم المفروم**» . يرجع اختيار شاطئ أسبانيا ـ مثلا ـ لإسقاط الجثة ، إلى أن أسبانيا كانت صديقة لألمانيا ، متعاطفة معها ، رغم أنها كانت على الحياد ، ومن ثم فإن إذاعة أسرار الجثة ونقلها إلى ألمانيا تكون مؤكدة . وقد اتضح أن حقيبة المستندات السرية مربوطة برسغ الجثة للتأكد من أنها لن تغرق . وقد شعر ضباط المخابرات أن أى ضابط حقيقى فى مهمة سرية لابد أن يتبع نفس أسلوب الحيطة والحذر ، حتى لا تتعرض حقيبته للضياع أو السرقة .

واجهت المخابرات البريطانية مشكلة الحصول على صورة فوتوغرافية للبطاقة الشخصية . حاولوا تصوير وجه الجثة فى البداية ، لكنهم لم يستطيعوا الحصول على صورة تبدو حية . وفى النهاية استقر الرأى على صورة شخص مشابه لصاحب الجثة .

★ جواسيس الذرة

اخترع علماء الغرب القنبلة الذرية خلال السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . وأيقن العالم أنها سلاح رهيب قادر على تخريب مدينة كاملة بضربة واحدة. وحرص قادة الحلفاء الغربيين على ألا يشركوا روسيا معهم فى أسرار الذرة. وصممت روسيا على معرفتها ، فأنشأت شبكة تجسس متعددة الخلايا فى كندا والولايات المتحدة الأمريكية ، حيث كانت مؤسسات أبحاث الذرة الغربية قائمة .

لم يفطن الحلفاء إلى وجود الشبكة الروسية إلا فى سبتمبر ١٩٤٥م . ولما استسلم اليابانيون انتهت الحرب . وبعد أيام قلائل هرب «**إيجور حوزينكو**» كاتب الشفرة الروسى بالسفارة الروسية فى «أوتاوا» بكندا ، ولجأ سياسيا إلى السلطات الكندية ، ثم بدأ اصطياد أفراد شبكة التجسس الروسية فى كندا .



إيجور جوزنكو مقنعا يدلى بحديث صحفى

من هؤلاء عالم اسمه «**كلاوس فوتشس**» ، الذى اعتقل فى لندن عام ١٩٤٩م، وكان كغيره يعمل فى مفاعل «**تشوك ريڤر**» بأونتاريو ، لكنه اشتغل أيضاً فى «**لوس ألاموس**» بالولايات المتحدة الأمريكية . واتضح أن خلية واحدة على الأقل كانت تعمل هناك . اعترف «**فوتشس**» بأنه أفشى بأسرار ذرية لوسيط يحمل

اسم «ريموند» وأنه لا يتذكر عن «ريموند» هذا إلا أنه كان بدينا ، مستدير الرأس ، فى منتصف العمر ، وأنهما التقيا فى عدة مدن مختلفة متباعدة ، مثل «**سانتا ـ فى**» ، و«**نيويورك**» ، وكان «ريموند» يحمل قفازا بنى اللون وكتابا بغلاف أخضر.

كان «ريموند» محور الخلية الوحيد ، لذا كان اختفاء أثره أمراً حيوياً . وهنا واجه مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكى مهمة صعبة . بدأوا بتمشيط سجلات الفنادق فى المدن التى كانت ملتقى الجواسيس فى ليالى معينة . فرزوا آلاف الأوصاف بحثا عن شبيه لريموند ، وبدأت القوائم تتناقص شيئا فشيئاً .

حدثت إحدى المقابلات فى «**بوسطن**» حيث تعيش أخت «فوتشس» . وأثناء الحديث معها قدمت خيطاً جديداً، إذا تذكرت أن الوسيط تحدث عن الكيمياء حديث متخصص . وتذكر زوجها مفتاحا هاما آخر ، وقال إن الرجل ذكر شيئاً عن «**فيلاديلفيا**» . ضاقت الشبكة ، وحملت الطائرة إلى بريطانيا صور المشتبه فيهم للتعرف على الوسيط ، حيث أودع «فوتشس» السجن .

فى مايو ١٩٥٠م ، فتش اثنان من رجال المخابرات الأمريكية بيت كيميائى فى «فيلاديلفيا» اسمه «**هارى جولد**» ، مدرج فى قوائم المشبوهين . خضع للاستجواب أربعة أيام ، أصر خلالها على أنه برئ ، وأنه ليس جاسوساً . وكان يتساءل دائما : كيف أقابل فوتشس فى كل هذه الأماكن ، مع أنى لم أعبر المسيسيبى غربا طوال حياتى؟ .. وأثناء تفتيش بيته ، وجد أحدهما خريطة شارع فى مدينة «سانتا ـ فى» ، ولما واجه بها «جولد» انهار واعترف ، وأرشد عن أعضاء الخلية ، فسقطوا الواحد تلو الآخر، ما عدا «رودولف آبل» الذى فر ، وظل يعمل إلى أن قبض عليه عام ١٩٥٧م .



رودلف أبل هرب حتى عام ١٩٥٧

★ ويتاكر شامبرز

فى صباح يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٩م ، وفى إحدى غرف فندق بمدينة نيويورك ، حدث لقاء أثبتت الأيام أنه أخطر اجتماع فى الجاسوسية الحديثة ، بين رجلين ، صمما على إصابة المخابرات السوفيتية بخسارة قاسية.

كان الرجلان متناقضان إلى أبعد الحدود : أحدهما بدين قصير أشعث ، أسنانه سيئة ، اسمه «**ويتاكر شامبرز**» ، يعمل محررا فى مجلة «تايم» . والآخر مواطن سابق للاتحاد السوفيتى ، أجنبى مقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية ، اسمه «**شيمكا جينزبيرج**» ، واسمه المستعار الذى يستخدمه منذ عدة سنوات «**والتر كريفيتسكى**» كان ضئيل الجسم أنيقاً رشيقاً .

على الرغم من تناقضهما ، إلا أنهما يشتركان فى ماضيهما العام ، إذ كانا جاسوسين سابقين . كان «**شامبرز**» آنذاك ٣٨ سنة ، شيوعياً أمريكياً انضم إلى الحزب عام ١٩٢٤م ، وبعد ثمان سنوات اختير للجهاز السرى التابع للحزب ، وكان الجهاز يجند الشيوعيين البارزين ، ويجردهم رسميا من عضوية الحزب ، ويكلفهم بعمليات تجسس مختلفة لحساب المخابرات السوفيتية . وفى عام ١٩٣٣م سافر «شامبرز» سرا إلى موسكو للتدريب على الجاسوسية ، ولما عاد إلى أمريكا كلف بالعمل رسولا لعدة خلايا شيوعية تعمل فى مواقع بحكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، تزود الحزب بالمعلومات . لكنه سئم الشيوعية فانقطع عن كل من الحزب ، والعمل السرى ، عام ١٩٣٧م .



ويتاكر شامبرز

أما «كريفيتسكى» فكان عمره ٤١ سنة عندما انضم إلى المخابرات السوفيتية عام ١٩٢٣م ، ولما تغيرت إدارة المخابرات السوفيتية عام ١٩٣٦م نقل للعمل فى «**لاهاى**» ، مسئولاً عن التنسيق بين عمليات المخابرات السوفيتية فى غرب أوروبا .. وفى عام ١٩٣٨م حينما قتل رفيقه فى العمل وصديق العمر «**إجناس يوريتسكى**» فى مذبحة ستالين لتصفية الوكلاء اليهود ، لجأ

«كـريفـيـتـسكى» إلى فـرنسـا ، ثم واصل رحـيله إلى كندا ، واتصل بمكتب التحقيقات الفيدرالية ، فأعطوه ملاذا فى الولايات المـتحدة الأمريكية . وهكذا تحرر «كريفيتسكى» نهائيا من أوهام الشيوعية، وعزم على الانتقام لأصدقائه ضحايا المخابرات السوفيتية .

انضم «شامبرز» إلى «كريفيتسكى» وشاركه فى هذا العزم . واتفقا فى ذلك اليوم من أيام الربيع على فضح عمق اختراق المخابرات السوفيتية لديمقراطيات الغرب . لكن سرعان ما اكتشف الرجلان أن المهمة ليست سهلة ، لأن الاتحاد السوفيتى احتاط لاحتمال حدوث تلك المحاولة .

فى أواخر عام ١٩٣٩م اتصل «شامبرز» بمساعد وزير الخارجية «**أدولف بيرل**» ، وأخبره عن اختراق المخابرات السوفيتية لوزارته ، لكنه ـ على ما يبدو ـ أراد أن يحتفظ بأسماء الأشخاص الذين يعرف أنهم كانوا أعضاء فى خلايا شيوعية ويعملون لحساب المخابرات السوفيتية . وبالطبع : لا قيمة لتأكيدات «شامبرز» بدون أسماء ، وبالتالى قرر البيت الأبيض فى عهد «**روزفيلت**» تجاهل الموضوع برمته . وفى عام ١٩٤٢ ، كرر «شامبرز» ذكر أسماء العملاء ، حينما اتصل بمكتب المخابرات الفيدرالية .

لكن مكتب المخابرات الفيدرالية كان على الدرب . كان «**كريفيتسكى**» قد حذرهم ، وقال لهم إنه سمع أن للمخابرات السوفيتية ٦١ عميلا فى بريطانيا أرسله مكتب المخابرات الفيدرالية إلى لندن ، ليتحدث مع المخابرات البريطانية نتيجة لذلك ، استطاع «كريفيتسكى» أن يحدد عميلين هامين للمخابرات السوفيتية : «**جون هيربيرت كينج**» كاتب شفرة فى وزارة الخارجية ، و «تايلر كينت» كاتب شفرة فى الشعبة الأمريكية ، كان يزود المخابرات الأمريكية ـ أيضا ـ بمعلومات .

كان «كريفيتسكى» معنياً أكثر بفضح الخونة البريطانيين الكبار العاملين لحساب روسيا . كان لديه أدلة تدين «**هـ.ر. فيلبى**» ، و «**دونالد ماكلين**» ، وغيرهما ، لكن السلطات البريطانية لم تهتم ببلاغاته . وفشل أيضا فى إقناع الولايات المتحدة بالتحقيق فى بلاغاته ، فدفعه اليأس والإحباط إلى الانتحار عام ١٩٤١م .

احتار مكتب المخابرات الأمريكية الفيدرالية فى أمر امتناع «شامبرز» عن ذكر

أسماء العملاء . كان قد اعترف بأنه خدم كرسول للخلايا السوفيتية العاملة داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن ثم فهو يعرف أسماء كل العملاء . لذا شك مكتب المخابرات الأمريكية الفيدرالية فى أن «شامبرز» كان يتستر على صديق عزيز .

لم تتأكد هذه الشكوك إلا فى أغسطس ١٩٤٨م ، مثل «شامبرز» أمام لجنة مختصة بنظر الأنشطة المضادة لأمريكا ، وألقى قنبلة كان لها أثر مدوٍ ، إذ صرح بأن صديقه القديم «**ألجر هيس**» ، واحد من عملاء المخابرات السوفيتية ، الذين تسلم منهم معلومات . كان التصريح مذهلا ، لأن «هيس» كان كبير موظفى شعبة الشرق الأقصى فى وزارة الخارجية حتى عام ١٩٤٤م وأصبح بعدها أحد أعمدة السياسة الأمريكية الخارجية .

لما علم «هيس» بالدعوى ، طلب من لجنة التحقيق عقد جلسة علنية ، وأنكر الاتهام . أصر على أنه لا يعرف «شامبرز» ، ولم يقابله أبداً ، حينئذ واجهت اللجنة مأزقا : بدا من الصعب تصديق أن «شامبرز» يغامر بتعريض نفسه لتهمة الحلف كذبا ، بتلفيق تهمة ضد هيس ، لكن من ناحية أخرى كان إنكار «هيس» بادى الصدق والصراحة ، فمن الصعب تصديق أن من كان فى مركز مرموق مثله يمكن أن يكذب .

وعلى الرغم من أن «هيس» استطاع أن يقنع الجميع بصدقه ، إلا أن عضوا واحداً دون أعضاء اللجنة جميعاً ، كان واثقاً من كذب «هيس» . ذلك العضو هو «ريتشارد نيكسون» عضو الكونجرس عن «**كاليفورنيا**» آنذاك ولكى يثبت صحة رأيه، طلب من «شامبرز» الحضور إلى اللجنة ، وسرد كل التفاصيل التى يستطيع تذكرها خلال الثلاثينات ، عن علاقته«بهيس» وطلب من «هيس» أن يحضر جلسة مماثلة ، ويروى تفاصيل حياته فى نفس الفترة . تناغمت تفاصيل الروايتين . وأتضح أن «شامبرز» عرف «هيس» تماما ، وبدأ هيس يرتبك عليه القول ، وأخيرا قال إنه تذكر أنه عرف رجلا اسمه «**چورچ كروسلى**» يشبه «شامبرز» .

ظل الإثبات مشكلة ، فقد ذكر «شامبرز» أن «هيس» أعطاه وثائق رسمية لينقلها إلى المخابرات السوفيتية ، وأن «شامبرز» صورها ، وأعاد الأصل إلى «هيس» ، لكن كلامه هذا لم يكن مدعما بما يثبته . وبعد عدة أشهر قدم «شامبرز» الدليل . وهو عبارة عن مخبأ لوثائق مسجلة على «**ميكروفيلم**» ، والأغرب من ذلك أن بعض

تلك الأفلام كانت مخبأة في يقطينة فى مخزن بمزرعته ، وتحتوى بعض الأفلام على صور ملاحظات مكتوبة بخط «هيس» ، ومواد ثبت فيما بعد أنه طبعت بآلة كاتبة كانت تملكها زوجة «هيس» .

أخيرا ، أدين «هيس» بحلف اليمين كاذبا ، لكن القضية امتدت إلى أبعد من ذلك . فقد صنعت هذه الواقعة بداية العمل السياسى لـ« **ريتشارد نيكسون**» ، وأثارت حنق الشعب على الشيوعية ، لم تكن النتائج تتفق مع رغبة «شامبرز» ، لكن ما من أحد استطاع التنبؤ بالانفجار الذى دبره يوم اجتمع بـ« **والتر كريفيتسكى**» ظل حتى وفاته عام ١٩٦١م ، راضيا عن نجاحه فى كشف عدد كبير من خلايا الشيوعيين الأمريكيين ، الذين يعملون فى الدوائر الحكومية . **فضح** أمر أكثر من ٤٠ عميلا من عملاء المخابرات السوفيتية . وحتى ذلك اليوم لم يتأكد أحد من أبعاد خدماتهم للاتحاد السوفيتى ، لكن المعروف أن ثلاثة منهم على الأقل اشتغلوا فى مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال سنى الحرب ، عدا «**لاشلين كورى**» الذى شغل منصب مستشار الرئيس الأمريكى «**روزفيلت**» .

الأكثر من ذلك أن «شامبرز» يمكن اعتباره الأب الأمريكى لحركة المحافظين ، لأن حملته كانت تهدف إلى صبغ جيل بأكمله بالصبغة المحافظة ، ومن بينهم الرئيس «**رونالد ريجن**» ، الذى كان آنذاك رئيسا لنقابة ممثلى السينما ، والذى بدأ فى عام ١٩٥٠م تطهير تلك المنظمة من الشيوعيين وبعد ٣٦ سنة من هذا التاريخ قرر الرئيس الأمريكى «رونالد ريجن» منح روح « **ويتاكر شامبرز** » ميدالية الحرية ، وهى أسمى وسام مدنى .

★ روث كوزينسكى ورحلة بلا عودة

ذات صباح من ربيع عام ١٩٤١م ، وقف شرطيان أمام كوخ متوسط الحال قرب بلدة جامعة «**اكسفورد**» ، وطرق أحدهما الباب ، وهما متأكدان من أنهما يطاردان قطا بريا له خطره . لقد تسلما بلاغا من تلك البلاغات التى كانت شائعة فى أيام الحرب ، عن وجود جواسيس أعداء . وكان المواطنون يقدمون هذه البلاغات عند أقل شبهة .

لم يكن الكوخ يشبه فى شئ عرين الجواسيس . استأجره عريف فى سلاح الطيران الملكى البريطانى اسمه «**ليون بورتون**» ، وزوجته «**روث**» ، ومعهما طفلان

صغيران . كان الجار قد أبلغ الشرطة أنه رأى جهاز راديو قصير الموجات فى الكوخ. والقانون يحتم على أصحاب تلك الأجهزة تسجيلها رسميا لدى السلطات فى زمن الحرب . لكن الشرطيان وجدا أن مثل هذه العريف ضئيل الأجر ، لا يمكن أن يمتلك مثل هذه القطعة التكنولوجية الثمينة .

أجابت طرق الباب سيدة قصيرة ، بدينة ، ترتدى مريلة ، وعلى إحدى ركبتيها طفل تهدهده ، تحملق بعينين واسعتين فى الشرطيين ، وأدهش «روث» ما قاله الرجلان ، فدعتهما إلى الدخول بلهجة أوروبية غليظة ، وعرضت عليهما راديو لعبة طفل قائلة : «هل يمكن أن يكون ذلك الراديو ذا الموجة القصيرة الذى رآه الجار؟» .

ابتسم الشرطيان ، وقالا : «ربما!!» . قدمَا اعتذاراً للسيدة ، وانصرفا ومر وقت طويل قبل أن يتذكرا أنهما تواجدا ذات مرة فى مكان واحد مع أذكى جواسيس الاتحاد السوفيتى فى بريطانيا . وكالمعتاد ، لعبت «**روث كوزينسكى**» دورها كاملا. بمظهرها الرث ، كأم منهكة للأطفال صغار ، غفر الشرطيان لنفسيهما لعدم التدقيق فى التفتيش . ولم تكن المرة الأخيرة التى خدعت فيها هذه الممثلة أعداءها.

تحت مظهرها كانت «كوزينسكى» تخفى شخصية كرست حياتها تماما للشيوعية ، وكانت قد ولدت بين عائلة شيوعية جداً . أبوها «رين» اقتصادى مرموق ، من أوائل أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى ، وكذلك كان أخوها «جورجين» . انضمت «روث» إلى حركة شباب الحزب عام ١٩١٧ عندما بلغت التاسعة من عمرها . وفى عام ١٩٢٦ انضمت إلى الحزب يافعة ، وفى السنة نفسها ذهبت إلى نيويورك لتدير مكتبه ، والتقت بـ«**رودلف همبورجر**» الذى كان يدرس الهندسة فى الولايات المتحدة الأمريكية . وربط بينهما الحب فتزوجا ، ولحقت به فى «**شنغهاى**» عام ١٩٣٠ ، حيث اشتغل مهندسا .

لم يكن «همبورجر» شيوعيا . تجاوز عن معتقدات زوجته السياسية ، لكنه أعلن اعتراضه على إفصاحها عن عزمها على مزاولة العمل الحزبى فى المهجر «شنغهاى» . لم يكن متأكدا من معنى ذلك ، لكنه رفض فكرة قيام زوجة ألمانية تقدس واجبها ، بالمشى فى المظاهرات ، والتحرش برجال الشرطة، وإقامة المتاريس ،

والهتاف بالشعارات .. تجاهلت «روث» اعتراضه ، وسرعان ما انشغلت بالعمل مع منظمة العمال الأجانب فى المدينة . ولم يمض وقت طويل حتى صارت شخصية مرموقة فى عالم الشيوعية الخفى ، واشتهرت بذكائها ، وإمكانياتها اللغوية ، إذ كانت تتقن أربع لغات بطلاقة ، كما كانت شجاعة جداً . وكانت من ذلك النوع الذى لا تخطئه عيون مجندى الجواسيس . وفى أواخر عام ١٩٣٣م رشحها «**ريتشارد سورج**» للمخابرات السوفيتية ، وكان آنذاك يقيم فى الصين .

تنبأ لها «سورج» بمستقبل باهر فى عالم الجاسوسية ، وأرسلها إلى موسكو للتدريب على الشفرة والاتصال اللاسلكى ، فأثبتت أنها تلميذة نجيبة ، ولما عادت إلى الصين بعد عام ، كلفها «سورج» بمسئوليات متزايدة ، وأسند إليها إدارة مختلف الخلايا .

فى عام ١٩٣٥م تلقت «**كوزينسكى**» أمرا من المخابرات السوفيتية بأن تطلق زوجها «المتعب» «**رودولف همبورجر**» أطاعت الأمر ونفذته ، ثم تزوجت عميلا سوفيتيا اسمه «**ألفريد شولتز**» ، يعمل فى الصين أيضا . اختفى «شولتز» بعد عامين فى حملة التطهير التى شنها «**ستالين**» ، وأخطرت زوجته بأن زوجها الثانى كان خائنا ، فأجابت بهدوء أن إعدامه كان عدلا . وصارت بعدها أرملة تعول طفلا يتيما .

أصبح لكوزينسكى رصيداً كبيراً من الإنجازات لدى المخابرات السوفيتية التى أعدت لها خططا مهمة . كانت موسكو تنظم سلسلة من الشبكات فى أوروبا موجهة نحو ألمانيا النازية ، سميت «**الأوركسترا الأحمر**» . ورسمت المخابرات السوفيتية لكوزينسكى أن تلعب فيها دورا رئيسيا . أرسلوها إلى «**وانزيج**» لتنشيط مهاراتها ، وأرسلوها عام ١٩٣٨م مكلفة بإيجاد عملاء بين الجنود البريطانيين الشيوعيين الذين حاربوا ضمن الحرب الأهلية الإسبانية . وهناك جندت «الكزاندر فوت» الذى قاتل فى الحرب ، وأظهر مهارة ملحوظة فى تشغيل اللاسلكى ، وانضم فيما بعد إلى حلقة فى المخابرات السوفيتية بسويسرا ، سماها الألمان «**الثلاثة الحمر**» .

مهمة «كوزينسكى» التالية غاية التحدى . تلقت أمرا بالذهاب إلى بريطانيا لإنشاء فرع بريطانى «للأوركسترا الأحمر» . ولأنها مواطنة ألمانية ، لا تستطيع

دخول بريطانيا بدون جواز سفر . لكن حكومة النازى لا تصرف جوازات لشيوعية . حلت «كوزينسكى» المشكلة بأن عرضت على عدد من الشيوعيين البريطانيين الزواج فى سويسرا حتى تحصل على الجنسية البريطانية بالزواج . اعتذر «**فوت**» ، ووافق «ليون بورتون» وهو شاب شيوعى اشترك فى الحرب الأهلية الإسبانية . وفى عام ١٩٤٠م استقرت مع زوجها فى بلدة «**كيدينجتون**» قرب «**اكسفورد**» ، واستدعى «بورتون» لخدمة سلاح الطيران الملكى البريطانى . أمرتها المخابرات السوفيتية بالتزام الراحة إلى حين .

كانت آنذاك تربى طفلا من زوجها السابق «شولتز» ، وأنجبت طفلا آخر لم تتوقعه من «بورتون» . أصبح لديها طفلان صغيران يحتاجان إلى رعايتها . فلما جاءتها الأوامر فى مايو ١٩٤١م باستئناف الحركة ، كان عليها أن تنفذ الأمر بالإضافة إلى أعبائها الأسرية . نجحت عن جدارة . بدأت تنشئ شبكة جاسوسية من عائلتها التى هربت إلى بريطانيا بعد أن استولى «هتلر» على السلطة . كانت العائلة بأسرها مستعدة لتلبية نداء الواجب كشيوعيين مخلصين . يعمل أبوها الآن مدرس اقتصاد فى اكسفورد ، وأصبحت له علاقات كثيرة بالمجتمع البريطانى ، فبدأ يجمع معلومات سياسية عالية المستوى . وأخوها «جيورجين» يعمل محللا اقتصاديا فى وزارة الطيران البريطانية كان يحصل على معلومات عسكرية بالغة الأهمية ولما دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ، التحق بمكتب الخدمات الاستراتيجية ، واستطاع أن يحصل على معلومات أكثر أهمية . وقرب بيتها عرفها زوجها بضابط كبير فى سلاح الطيران الملكى يعتنق الشيوعية سرا ، ويزودها بعينات من آخر تكنولوچيات الطيران البريطانى ، مشفوعة بتقارير فنية ، رتبت «روث» أمر إرسالها إلى موسكو .

ومن بلدتها اتصلت «روث» بأعضاء الحزب الشيوعى الألمانى المنفيين فى بريطانيا . اكتشفت أنهم مخلصون لمبادئهم ، وأنهم يواصلون دفع التزاماتهم المالية للحزب ، ويعقدون اجتماعات الخلايا بانتظام . بعد الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتى فى يونيه ١٩٤١م أصبحوا متلهفين لمساعدة موسكو ، ونظمتهم «روث» فى شبكةعلماء ذات درجات تبعا لمقدار الفائدة ، فازداد عطاؤهم .

فى أواخر عام ١٩٤١م قابلت «روث» عالما ألمانيا شابا هاجر من ألمانيا عام

١٩٣٣م ، عندما استولى «هتلر» على الحكم . واصل الشاب حضور اجتماعات الحزب فى المنفى ، وأخبر «روث» أنه شغوف بمساعدة الاتحاد السوفيتى بأى طريقة، ولم يكن فى حالة تسمح له بتقديم الكثير . بعد اعتقاله لمدة عام فى معسكر اعتقال فى بداية الحرب ، جنده البريطانيون للعمل فيما يسمى « **مشروع خلط الأنابيب**» . لاحظ الشاب أن «روث» لم تهتم بقوله ، فأخبرها أن اسم المشروع كان غطاء لأعظم سر فنى تنجزه بريطانيا وأمريكا ، وهو صنع قنبلة ذرية . وسألها عما إذا كان ذلك يهم روسيا؟ .

لاشك فى ذلك . وهكذا أصبح «فوتشس» نجما لامعا فى شبكة «كوزينسكى» . وأصبحت هى وجها لوجه أمام مشكلة إرسال كل هذه المعلومات إلى محطة المخابرات السوفيتية الرئيسية فى السفارة الروسية بلندن . يمكن إرسال كثير من المعلومات التى تجمعها عن طريق وسيط ، لكن المعلومات العاجلة ينبغى إرسالها باللاسلكى . إذن فهى محتاجة إلى جهاز إرسال ، وهذا ليس أمرا سهلا فى زمن الحرب . كررت السفر بالقطار مع ابنها عدة مرات خلال عدة أسابيع . ظهرت مع الطفل عدة مرات حتى صار منظرهما مألوفا والطفل يحتضن دميته الدب الكبير . وفى إحدى المرات قابلت «روث» عميل المخابرات السوفيتية فى لقاء خاطف ، وناولها لفافة ، أخرجت منها أجزاء الراديو ، وأخفتها داخل الدمية ، وعادت إلى بيتها فى أكسفورد بالقطار .

بدأت «روث» بث المعلومات بحذر شديد . وعمدت إلى تقصير الإشارات ، عن علم بأن جهاز مقاومة الجاسوسية البريطانى يقظ ، بتصيد أى إشارة راديو . وزيادة فى التمويه طلبت من جارها مساعدتها فى تثبيت حبل الغسيل ، الذى لم يكن سوى هوائى الراديو . فى ظل الحرص والحذر ظلت فى مأمن من الانكشاف، رغم كثرة المواد التى أرسلتها إلى موسكو خلال الحرب . بل استطاعت أن تنجو من تطور كاد يودى بها . فى عام ١٩٤٥م تم القبض على «فوتشس» فى بريطانيا بتهمة التجسس ، واعترف لكنه تجنب الإشارة إلى روث «كوزينسكى» فى اعترافاته، فنجت .

بعد عامين ، فى عام ١٩٤٧م أفشى سرها «**الكزاندر فوت**» ، الشيوعى البريطانى الذى ضمته قبل عشر سنوات . كشف للبريطانيين عن كل عملاء

السوفييت الذين اتصل بهم ، بما فيهم «كوزينسكى» ، وزعم أنها كفت عن العمل للمخابرات السوفيتية منذ عام ١٩٤٠م . ولأسباب لم يوضحها ذكر ذلك ليحميها بطريقة ما . وقد كان : ظهر رجال مقاومة الجاسوسية البريطانية ببابها ، وبدأوا توجيه أسئلة عن علاقتها بالمخابرات السوفيتية ، فاستعرضت بعض ردود الفعل الساذجة ، فانصرفوا يتساءلون عما إذا كان «فوت» مخطئا . لم يصدقوا أن مثل هذه السيدة البدينة القصيرة ذات العينين الواسعتين البريئتين يمكن أن تكون لديها أى فكرة عن أشياء شريرة مثل التجسس ، ولا حتى قبل عام ١٩٤٠م .

قبل أن تفكر المخابرات البريطانية فيما عساها تكون الخطوة التالية ، أدركت كوزينسكى أن دورها قد انتهى ، فرحلت مع زوجها وطفليها إلى ألمانيا فيما قالت إنها رحلة لزيارة أقاربها ، لكنهم لم يعودوا ، ولم يرهم أحد. اختفوا فى ألمانيا الشرقية ، ومن ورائهم العائلة .

لم تأسف المخابرات البريطانية على اختفاء «روث» ، معتقدين أنها ـ على الأكثر ـ عميلة متدنية المستوى لسنوات خلت ، لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون قد خدشت أمن بريطانيا ، خصوصاً وأنها لم تصل إلى بريطانيا إلا فى عام ١٩٣٩م ، وكانت الصدمة قاسية حينما اكتشفوا فى عام ١٩٥٩م أن سيلا لا ينقطع من المعلومات تدفق من السفارة الروسية فى لندن إلى موسكو ، وأن رئيسة الشبكة التى كانت تجمع هذه المعلومات خلال سنى الحرب تحمل اسما شفريا هو «**سونيا**» وسرعان ما أسفر البحث عن أن «سونيا» هى ذاتها «**روث كوزينسكى**» ، ربة البيت القصيرة ، البدينة ، ذات العيون الواسعة البريئة ، التى خدعتهم قبل سنوات .

استقرت «كوزينسكى» فى ألمانيا الشرقية مواطنة ملتزمة تدين بالولاء للنظام القائم ، عينوها بوظيفة لا علاقة لها بالجاسوسية . ولما تقاعدت عام ١٩٨٢م تفرغت لكتابة مذكراتها ، التى صدرها مدير المخابرات السوفيتية بكلمة قال فيها : «لو كان لدينا خمس نساء مثل سونيا لانتهت الحرب فى وقت أسرع» .

★ إيجور جوزينكو الرجل الأول

روسى ، عمره ٢٦ سنة ، اسماه الحركيان « **كوربى**» ، أو « **كلارك**» . واسمه المستعار « **ريتشارد براون**» . وصل إلى كندا حديثا ، وقال إنه لم ير شيئا مثلها .

قطع قصاصة القصة القصيرة من جريدة «أوتاوا» المحلية وعرض القصاصة على كل زملاء العمل ، وسألهم : «أليست هذه أغرب ما رأيتم؟» .

تروى القصة حادثا روتينيا فى مدينة «أوتاوا» ، بشأن تاجر فاكهة يونانى، كان يقاضى بلدية المدينة على إنشاء طريق بأسلوب يفسد تجارته . قرأها «**إيجوز جوزينكو**» مرارا ، وكلما كرر قراءتها كلما ازدادت دهشته ، لأن فكرة مقاضاة مواطن سوفيتى مخلص عادى للحكومة كانت خارج نطاق التصديق .

كانت قصة تاجر الفاكهة أول دروس الحياة الكثيرة فى الغرب التى سببت تغييرا أساسيا فى «جوزينكو» التناقض الشديد بين مستوى المعيشة بين المواطن العادى فى كندا ، والفقر الكالح الطاحن الذى يعانيه المواطن السوفيتى . وكلما شاهد جوانب حياة أخرى أكثر إشراقاً فى الغرب ، اتجه بثبات نحو رفض مبادئ الشيوعية والتحرر من أوهامها .

كان جوزينكو وكيلا للمخابرات السوفيتية ، مقره السفارة السوفيتية فى «**أوتاوا**» ، يعمل تحت وظيفة كاتب شفرة مدنى لنظام الاتصالات الدبلوماسية بالسفارة .

وصل إلى «**أوتاوا**» ـ أول وظيفة له خارج روسيا ـ فى يونيه ١٩٤٣م ، بعد التخرج من مدرسة الجاسوسية . كان جنديا يافعا فى الجيش عام ١٩٤١م ، يعمل فى الاتصالات اللاسلكية ، فلما ظهرت براعته فى التعامل بالشفرة وضعته فى مجال انتباه مطوعى الجواسيس .

كان على «جوزينكو» أن يعلم أن المخابرات السوفيتية فى مسيس الحاجة إلى خبراء شفرة ، لأن الغزو الألمانى للاتحاد السوفيتى اضطر المخابرات السوفيتية إلى تعبئة أقصى قواها ، ومن بينها مئات العملاء ، بما فيهم من شيوعيين وهبوا أنفسهم للقضية السوفيتية . وغير شيوعيين تحدوهم الرغبة فى كسر «**هتلر**» ، كانت أجهزة اللاسلكى ، وخبراء الشفرة عناصر أساسية للمخابرات فى العالم الحديث سريع الحركة ، حتى تصل الرسائل إلى موسكو فى أسرع وقت ممكن .

فى «أوتاوا» علم «جوزينكو» أن محطة المخابرات هناك أهم المخافر الأمامية فى نصف الكرة الغربى ، وبها مجسات استخبارية تصل إلى جميع أنحاء أمريكا الشمالية . لها فى كندا وحدها ٢٥ موقعاً لعملاء اختيرت أماكنها بعناية . لكن

«أوتاوا» تمثل شيئاً آخر «لجوزينكو» ، وهو ابن أب وأم فقيرين ، فهو كالطفل اليتيم إذا دخل بيت رجل ثرى ، من الصعب عليه أن يفهم أو يصدق أن مثل هذه المدينة الأسطورية لها وجود . حال وصوله إلى «أوتاوا» من «موسكو» التى يكاد سكانها يتضورون جوعا بسبب الحرب ، استبدت به الدهشة حينما رأى أهل «أوتاوا» يجدون فى كل اللحظة ما يكفى ويفيض من صنوف الطعام ، رغم قيود الحرب . وكانوا ـ علاوة على ذلك ـ أحرارا بشكل لا يمكن أن يدركه أى مواطن فى روسيا الستالينية . فالناس يستطيعون التعبير عما فى أذهانهم علنا ، ولا حرج إذا وجهوا النقد إلى الحكومة .

كان ينتاب « **جوزينكو**» شعور غامض بالخوف من التجول فى «**أوتاوا**» ليتذوق نسيم الحرية ثم التحدث إلى رفاقه عنه ، كان يشعر بأن هذا عمل خطير جدا ، لأن جوزينكو كان كاتب شفرة ، وهذا يعنى أنه يعرف كل الأسرار التى وردت إلى السفارة أو صدرت منها . سبب آخر هو أن جنون الارتياب الستالينى كان يحكم المخابرات السوفيتية ، وتفشى فى محاطتها داخل المبانى ، لدرجة أن عددا كبيرا من رجال المخابرات الذين يزيد عددهم على ١٠٠ فى المحطة ، مكلفون بوظيفة محددة، هى مراقبة زملائهم الآخرين ، وتسجيل أى إشارة تدل على ضعف الولاء .

ولابد أن شخصا ما من السفارة أبلغ عن «جوزينكو» ، لأنه استلم فى سبتمبر ١٩٤٤م استدعاء رهيبا للعودة إلى «موسكو» لمناقشة أمر غير محدد . كان قد اشتغل فى المخابرات السوفيتية طويلا بما يكفى لمعرفة معنى الرسالة . عرف أنه فى مأزق خطير . قد يكون محاصرا بالشك فى انحرافه نحو الأيدولوجية الغربية . بل إن هناك خطراً أعظم ، فقد سمع «جوزينكو» همسا أحيانا يدور بين زملائه عن أمر غريب تتبعه المخابرات السوفيتية مع كتبة الشفرة . يقول الهمس إن لدى موسكو عادة استدعاء كتبة الشفرة الذين اشتغلوا مددا طويلة فى سفارات حساسة ، ومن ثم يختفون بمجرد عودتهم إلى «موسكو» . ويقال إن المخابرات السوفيتية تتخلص من كتبة الشفرة على فترات منتظمة ، واستبدالهم برجال جدد ، والسبب فى غاية البساطة وهو أنهم عرفوا الكثير من الأسرار . وموسكو لا تريد أن تنال لطمة من كاتب شفرة يرتد ، أو يتحول إلى الأعداء ، فيكشف ما رآه وما سمعه من أسرار روسيا ، بما فيها الأعمال غير القانونية التى تؤديها السفارة ، والعملاء الذين يعملون تحت إشراف وكلاء المخابرات السوفيتية .

أيا كانت حقيقة الشائعات ، فإن رؤساء «جوزينكو» فى محطة «أوتاوا» أنقذوه باعتراضهم على عودته إلى موسكو ، بحجة أن مهارته لا يمكن تعويضها أو استبدالها فى تلك اللحظة الحساسة . واستجابت موسكو للطلب فى ذلك الوقت على الأقل .

لم يكن رؤساء جوزينكو فى محطة «أوتاوا» يبالغون حينما قالوا : «**اللحظة الحساسة**» . لأن محطة أوتاوا كانت قد نقلت كل ثقلها إلى مهمة أخرى . كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تشتركان فى مشروع سرى للغاية ، وهو صنع قنبلة ذرية . وهو سر حجبوه عن روسيا . وصدرت الأوامر إلى المخابرات السوفيتية بكشف النقاب عن المشروع بأى ثمن . لم يكن «**ستالين**» يترك حلفاءه يصنعون سلاحا يسمح لهم بالسيطرة على عالم ما بعد الحرب .

خصصت المخابرات السوفيتية لهذا الهدف عملية أسمتها «**عملية كاندى**» ، وركزت الكثير من جهودها على «كندا» ، حيث يحاول فريق من العلماء التغلب على مشاكل إنتاج يورانيوم قابل للإنشطار . قام «جوزينكو» بدوره فى بث رسائل المخابرات السوفيتية إلى شبكة اتصالاته اللاسلكية ، تطلب من العملاء الحصول على أى معلومات ممكنة عن مشروع القنبلة الذرية . بعد عدة أشهر اتضح له أن المخابرات السوفيتية نجحت أيما نجاح . بدأ يبث مجلدات من معلومات فنية ، يبدو أنها مستقاة بطريق مباشر من عملاء يعملون فى برنامج القنبلة الذرية . ذكر «جوزينكو» أن العميل الرئيسى كان رجلا اسمه الشفرى «**اليكس**» . ويبدو أنه كان واحدا من العلماء الذين يعملون فى البرنامج .

فى أوائل صيف عام ١٩٤٥م بث «جوزينكو» تقريراً من رئيسه الكولونيل «**نيكولاى زابوتين**» ـ واسمه الشفرى «**جرانت**» ـ يشير إلى أن المخابرات السوفيتية قد اخترقت البرنامج الأمريكى حتى النهاية . «زابوتين» لم يقتصر على تزويد موسكو بتفاصيل ما يجرى فى «**لوس ألاموس**» بنيومكسيكو ، المركز الرئيسى لتطوير القنبلة الذرية . ولكنه عرف أيضا التاريخ المحدد للتجربة الأولى ، والتفاصيل الفنية لكيفية صنعها ، والأثمن من ذلك كله أنه حصل على عينة من اليورانيوم المخصب «**يو ـ ٢٣٥**» ، من «**اليكس**» . وأرسلت طائرة خاصة من موسكو لنقل العينة إلى الاتحاد السوفيتى ، حيث استخدمت فى تطوير برنامج الأسلحة النووية السوفيتية .

وتدفقت المكافآت ، ومنح التكريم ، والترقيات على محطة المخابرات السوفيتية فى «أوتاوا» ، جزاء على جاسوسيتها البطولية ، لكن «إيجور جوزينكو» لم يكن بين المكرمين ، أيقن أنه ما يزال موضع شبهة ، وأن وقتا طويلا لن يمر قبل أن تعيد موسكو موضوع استدعائه للعودة إلى أرض الوطن ، مع احتمال قوى بتسديد رصاصة إلى رأسه .

قرر «جوزينكو» الهرب ، لكنه فكر فى أن السلطات الكندية قد تسلمه إلى روسيا ، طالما أن كندا والاتحاد السوفيتى حليفتان عدل فى خطة هربه ، وقرر أن يحمل معه أكثر ما يمكن من الوثائق الخاصة بعمليات التجسس السوفيتى على كندا ، فإذا أدرك الكنديون عمق التجسس السوفيتى عليهم ، استحال تسليمه للروس .

فى مساء ٥ سبتمبر ١٩٤٥م ، أنهى «جوزينكو» عمله المعتاد فى غرفة الشفرة بالسفارة ، وغادر المبنى حاملا معه ١٠٩ برقية مرتبة فى حقيبة أوراق صغيرة . ولمعرفته بنظام الأمن الصارم فى السفارة ، عرف أن السوفيت سوف يكتشفون اختفاء البرقيات بعد ساعات لن تطول . لذا كان أمامه وقت محدود ينفذ فيه خطته.

أصاب الفزع جوزينكو حينما اكتشف أنه لم يتمكن حتى من جعل الكنديين يفهمون ما يحاول عمله . كانت مكاتب جريدة «**أوتاوا جورنال**» أول باب طرقه ، وكانت هى الجريدة التى قرأ فيها قصة تاجر الفاكهة اليونانى قبل سنوات لم يبد على محرر الجريدة أنه فهم ما كان يتحدث «جوزينكو» عنه ، وأمره بالخروج من المبنى .

زار «جوزينكو» بعد ذلك عدة مكاتب حكومية أعادته بخفى حنين ، اشتد به اليأس ، فسجن نفسه وزوجته وابنه البالغ من العمر عامين فى مسكنه . يحبس أنفاسه من الخوف . وفجأة سمع وكلاء المخابرات السوفيتية يطرقون بابه الأمامى ، يطلبون خروجه . وفى نوبة يأس روى «جوزينكو» قصته لجاره الملاصق . وهو رقيب فى سلاح الطيران الكندى ، وافق على أن يحميه ويجعل مسكنه ملاذا له ولأسرته، تحرك «جوزينكو» فى الوقت المناسب ، وما أن انتقل إلى شقة جاره ، حتى سمع أربعة من رجال المخابرات السوفيتية يحطمون الباب الخارجى لشقته ، ويدخلونها عنوة ، ويقلبون أثاثها رأسا على عقب .

أثار رجال المخابرات السوفيتية ضجة خدمت «جوزينكو» ، إذ حضر رجال الشرطة إلى المسكن ، وعرفوا أن الشخص المحاصر غير عادى ، وأن الأوراق التى يبحث عنها رجال السفارة غير عادية أيضا ، تصادف وجود الجاسوس الأسطورى «**وليم ستيفنسون**» فى كندا ، وهو كندى المولد ، يحتل منصبا خطيراً فى المخابرات البريطانية فى نيويورك . انتشر خبر الحدث الغريب الذى كانت تجرى فصوله فى السفارة السوفيتية «بأوتاوا» . وكانت تفاصيله تترى إلى جهاز الأمن الكندى أولاً بأول . حينما سمع «ستيفنسون» بعض التفاصيل الأولى ، تبين ما حدث فى الحال . وبادر باستخدام اتصالاته عالية المستوى ، فاستطاع أن يحرك فرسان الشرطة الملكية الكندية ، وخدمات الأمن التابعة لها ، لوضع «جوزينكو» وأسرته تحت جناح حمايتها . وفى الوقت نفسه كان الروس يطالبون بتسليم «جوزينكو» مدعين أنه سرق قدراً كبيراً من أموال السفارة ، وأنه لابد من نقله إلى موسكو ليواجه نتائج جريمته .

تجاهل الكنديون طلب السوفييت ، لأن المحادثات التى جرت مع «جوزينكو» والمعلومات المستقاة من برقيات غرفة الشفرة ، كشفت النقاب عن أن صيداً ثميناً قد وقع فى أيديهم ، وأن أمورا لابد أن تتخذ فى الحال ، وفى مقدمتها القبض على ٢٥ مواطنا كنديا ، أثبتت الأوراق أنهم عملاء للمخابرات السوفيتية . وترتبت على حادث هرب «جوزينكو» صدمات كبيرة ، منها إبلاغ الرئيس الأمريكى «ترومان» أن سر القنبلة الذرية الأمريكية العظيم ، الذى تمنت أمريكا أن تستطيع الاحتفاظ به عشرين سنة على الأقل قد انكشف ، وأحيطت بريطانيا علماً بأن واحداً من علمائها على الأقل كان يعمل لحساب «**روسيا**» . واتضح فعلا أنه الدكتور «**آلان نان ماى**» ، الرجل الذى يستعير اسم «أليكس» .

وبالمناسبة : حوكم دكتور «**ماى**» عام ١٩٤٦م ، وثبتت إدانته بتهمة التجسس، وصدر الحكم عليه بالسجن ١٠ سنوات . واعترف بأنه كان متعاطفا مع الشيوعيين، جندته المخابرات السوفيتية فى أوائل سنى الحرب ليزود روسيا بمعلومات التطور العلمى البريطانى ، ولعل أغرب ما فى قصة «ماى» وأسرار القنبلة الذرية ، أن مجمل ما فاز به من تقدير لجهوده من جانب المخابرات السوفيتية مبلغ ٧٠٠ دولار وزجاجتى ويسكى ، وتلك أعجب صفقة فى تاريخ الجاسوسية .

كان لموضوع «جوزينكو» وقع الصاعقة على العالم الغربى . لم تكن الحرب الباردة قد بدأت ، وكان الروس مازالوا فى حكم الحلفاء الذين ضحوا بكل شئ فى الصراع من أجل هزيمة هتلر . لكن موضوع جوزينكو كشف أكذوبة التحالف بين الشرق والغرب . الغرب يخفى أسرار الذرة عن الشرق ، والشرق يجند الجواسيس ، ويغرى مئات المواطنين بخيانة أوطانهم ، الغرب ليس أحسن حالا . لقد انكشفت أيضاً أكذوبة عدم وجود نوايا عدوانية بين الكتلتين .

أسفر موضوع «جوزينكو» عن سلسلة طويلة من محاكمات الخيانة . فقد ثبت من البرقيات التى حملها «جوزينكو» أن المخابرات السوفيتية جندت مئات العملاء للحصول على كل سر مهم فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، ودول أخرى .

كان لدى «جوزينكو» الكثير مما يقال لرجال مكافحة الجاسوسية فى دول الحلفاء الأربعة : أمريكا ، وإنجلترا ، وكندا ، وفرنسا ، عن نظام العمل وشخصيات العاملين فى المخابرات السوفيتية ، سواء فى موسكو أو خارجها ، ونوع المعاملة التى يلقاها العاملون فى الجهاز .

أخرج «جوزينكو» من جعبته أخبارا مزعجة لممثلى المخابرات الأمريكية . ذكر أن أصدقاءه فى «موسكو» أخبروه عن عميل أمريكى جندوه . وقالوا عنه إنه يشغل منصبا رفيعا فى إدارة الدولة . ولما كان **«ويتاكر شامبرز»** قد أخبر الأمريكيين أن **«ألجر هيس»** كان يتجسس لحساب روسيا ، استقر فى ذهنهم أن «جوزينكو» كان يقصد «هيس» ، وكانت لديه أخبار مزعجة للبريطانيين أيضاً . قال إنه سمع عن عميل اسمه الحركى **«إللى»** ، عرف أنه موظف كبير فى جهاز مكافحة الجاسوسية الإنجليزى . ولم يكن لديه مزيد من المعلومات لتحديد ذلك المصدر ، لكنه تذكر أن بعض موظفى المخابرات السوفيتية أشاروا إلى شئ روسى فى ماضيه . أسقط رجل المخابرات البريطانى **«روجر هوليس»** ـ الذى


روجر هوليس مدير المخابرات البريطانية

كان يستجوب «جوزينكو» ـ هذه الإشارة تجاهلها لأن «إللى» كان الاسم الحركى أيضا لواحد من العملاء الكنديين للمخابرات السوفيتية ، ولا يحتمل أن يستخدم السوفيت نفس الاسم لعميلين فى وقت واحد ومكان واحد .

بعد سنوات عديدة ، أدى حفظ موضوع «جوزينكو» بطريقة مقتضبة جافة ، إلى الشك فى أن «هوليس» نفسه كان جاسوسا للمخابرات السوفيتية وفى الوقت نفسه كان «جوزينكو» قد استقر فى كندا ، تحرسه شرطة الفرسان الكندية الملكية على مدار الساعة . حصل على هوية جديدة ، كمهاجر تشيكى اسمه «ريتشارد براون» لينسجم مع لهجته السلافية الثقيلة ، ألف كتابا عن حياته وتجاربه فى المخابرات السوفيتية ، وقصة هربه، كما ألف رواية مدحها النقاد ، عن الحياة فى الاتحاد السوفيتى ووضع على الكتابين اسمه الحقيقى .

لم تكن العلاقة دافئة بين «جوزينكو» وشرطة الفرسان الكندية الملكية . وطالما اشتكى من قلة المعاش الذى كانت تصرفه له الحكومة ، وكان محبا للمال ، يبدو كما لو كان يحلم بالثراء ويرغب فى أن يصبح رأسماليا ، وكان ذلك مستحيلا بالطبع لأنه كان مسرفا إلى حد بعيد ، مما ورطه فى ديون كثيرة أساءت إلى سمعته . وأصيب برمد عضال ساقه إلى العمى تدريجيا . وزاده إحباطا زيارة محققين بريطانيين له فى السبعينات ، وأعادوا معه مناقشة موضوع اختراق السوفييت للمخابرات البريطانية ، واستجوبوه فيما ذكره للمخابرات البريطانينة عام ١٩٤٥م .

اشتد غضبه وهو يستمع إلى الوكلاء البريطانيين وهم يقرأون تقارير المخابرات البريطانية المأخوذة عنه عام ١٩٤٥م ، لأن التقارير لا تمت بصلة لأقواله السابقة ، خاصة تحذيره من وجود خائن بريطانى ذى رتبة كبيرة فى صفوف المخابرات البريطانية يتجسس لصالح روسيا .

توفى «جوزينكو» فى يونيه ١٩٨٢م ، وحضر جنازته عدد قليل من أصدقائه المقربين ، وتبعا للعادة الروسية القديمة ، اصطفوا أمام التابوت واحدا تلو الآخر ، ينحنون ويقبلون الجثمان . ووصف المتوفى بأنه : «السيد براون ، القادم إلينا من براغ» .

★ كلاوس فوتشس سارق القنبلة الذرية


كلاوس فوتشس

كان «**كلاوس فوتشس**» أقرب الشبه إلى لوحة كاريكاتيرية ، منه إلى عالم ذرة.. طويل ، نحيل ، بعوينات دقيقة الإطار ، جبهته عالية عريضة ، ينطق الإنجليزية بلهجة ألمانية . هكذا كان فى نظر المحقق «**وليم سكاردون**» ، الذى يعتبر أبرع مستجوبى المخابرات البريطانية ، والذى كان يواجه فى ذلك اليوم من أيام يناير ١٩٥٠م تحديا كبيرا ، وهو يحاصر «كلاوس» بأسئلته ، واثقا من أنه جاسوس سوفيتى . وأن عليه أن يدفعه إلى الاعتراف بهذه الحقيقة التى تعرفها المخابرات البريطانية والأمريكية .

لقد سرق «كلاوس فوتشس» برنامج إنتاج القنبلة الذرية ، وسربه إلى المخابرات السوفيتية ، وعلى الرغم من أن مخابرات الغرب كانت على يقين من ذلك ، إلا أنهم لم يجرؤا على الإفصاح عن مصدر المعلومة فى قضية تجسس ، لأن محاكمة «فوتشس» على أساس ذكر هذا المصدر ، تكشف سراً خطيراً من أسرار مخابرات الغرب . فلا مناص إذن من الاعتماد الكلى على براعة «سكاردون» فى الاستجواب. وقد كان أن ركز على محاولة إقناع «فوتشس» بأنه يعتقد أن شيوع معرفة أسرار صناعة القنبلة الذرية ، يؤدى إلى توازن القوى ، ومن ثم يرجح احتمالات السلام العالمى ، وتلك نظرية لها احترامها .

وقال «سكاردون» فى نبرة أبوية إنه متعاطف مع معتنقى هذه النظرية ، ويعتبرهم أنصار قضية سلام ولا ينظر إليهم من حيث هم خونة الأمانة ، وهكذا بدأ «فوتشس» يفضى بمكنون صدره «لسكاردون» ، ولما انتهى من حديثه ، كان قد اعترف فخورا بأنه أعطى الاتحاد السوفيتى القنبلة الذرية . وقد كلفه هذا الاعتراف حكما بالسجن لمدة ١٤ عاماً .

ولد «**كلاوس فوتشس**» لعائلة ألمانية معظمها يساريون ، وانضم إلى الحزب الشيوعى الألمانى عام ١٩٣٢م حينما كان فى سن التاسعة عشر ، ودرس فى جامعة «كييل» ، ونبغ فى علم الفيزياء ، وتنبأ له أساتذته بمستقبل باهر فى

الأبحاث والتدريس الجامعى . لكن «هتلر» قطع خيط آماله حينما جعل الحياة مستحيلة بالنسبة للشيوعيين الألمان ، فهرب «فوتشس» إلى بريطانيا حيث تنقل بين عدة أعمال علمية مملة ، وانضم إلى جماعة مهاجرى الحزب فى «بريستول» ، وكرس جهوده للبحث عن طرق لمساعدة «موسكو» وفى عام ١٩٤١م استقطبوه للعمل فى مشروع «**خلط الأنابيب**» ، وهو اسم برئ استعير لتغطية مشروع «**القنبلة الذرية**» .

استنتج «فوتشس» أن العلماء البريطانيين والأمريكيين قد خطوا خطوات عظيمة نحو التغلب على العقبات العلمية والهندسية الرئيسية فى صناعة القنبلة النووية . عرف أيضاً أن بريطانيا وأمريكا حرصت على كتمان هذا السر العظيم عن حليفهما الاتحاد السوفيتى . حينئذ فقط اطمأن إلى أن لديه شيئاً يستطيع أن يساعد به روسيا. كانت «روث كوزينسكى» قد ضمته إلى شبكة المخابرات التى ترأسها فى بريطانيا ، فأخبرها بالخبر ، وبدأ يسرق الوثائق خلال أيام من المشروع ويسلمها «لكوزينسكى» لكى تصورها على أفلام دقيقة ، ويضيف إليها تقديراته وملاحظاته العلمية .

كيف حصل شيوعى ألمانى مثله على تصريح العمل فى مشروعى سرى خطير مثل مشروع القنبلة الذرية؟ فى تلك الأيام كان قسم خاص من المخابرات الإنجليزية المقاومة للجاسوسية ، يراقب بحذر شديد أنشطة الشيوعيين فى بريطانيا . كيف أخطأ «فوتشس» ؟ اكتشف صائدو الجواسيس من المخابرات البريطانية بعد سنوات أن خائنا من داخل المخابرات نفسها ، عميل للمخابرات السوفيتية ، دبر أمر إخفاء اتجاهات «فوتشس» الشيوعية ، وربما كان هو المسئول أيضا عن إخفاء أسرار أخرى جانبية تضيره .

فى عام ١٩٤٥م استحوذت المخابرات البريطانية على كل ملفات «**الجستابو**» تقريبا ، من مكتب المخابرات الألمانية الميدانى فى «كييل» . احتوت الملفات على سجلات مفصلة عن كل الشيوعيين فى «كييل» ، كانت قد جمعت من قبل أن يصل «هتلر» إلى سدة الحكم . من بين هذه السجلات كانت هناك أضابير ضخمة عن «كلاوس فوتشس» . فحصت المخابرات البريطانية تلك السجلات فى محاولة للعثور على أى شيوعى هاجر إلى بريطانيا خلال الثلاثينات واشتغل لحساب المخابرات السوفيتية . ومما يثير الدهشة أنهم لم يجدوا دليلا على أن المخابرات

البريطانية سبق أن تحققت من شخصية «فوتشس» ، وتلك هفوة شنيعة غير قابلة للشرح .

فى عام ١٩٤٣م عُين «فوتشس» فى مشروع «**مانهاتن**» «**بلوس ألاموس**» فى نيوميكسيكو ، حيث يوجد جهاز أمن محكم يستعين بشاشة كمبيوتر تستبعد أى عميل للعدو يحاول اختراق المشروع ، لكنه لم يفلح فى اكتشاف «فوتشس» المزود بتصريح أكيد من المخابرات البريطانية ، يسمح له بدخول أى مكان فى المشروع . وقبل أن ينقضى عام ١٩٤٤م كان قد زود السوفييت بمفاتيح أسرار القنبلة ، بما فى ذلك جهاز التفجير الداخلى الذى يسبب قوة السلاح التدميرية . لكن المخابرات السوفيتية ارتكبت فى لحظة انتصارها خطأ فاحشا كلفها الكثير .

من فرط اللهفة على المعلومات التى يقدمها «فوتشس» ، قررت المخابرات السوفيتية تعيين واحداً من عملائها الأمريكيين ، هو «هارى جولد» ، لالتقاط بعض المواد من «فوتشس» ، خلال اتصال عابر ، قرب «لوس ألاموس» وبعد ست سنوات ، حينما أدلى «فوتشس» باعترافه ، كشف النقاب عن اتصاله بالعميل «جولد» واستفادت المخابرات الأمريكية كثيرا من هذا الكشف ، لأنه أكد شكوكهم السابقة فى «جولد» .

مرة أخرى كشفت عملية «**فينونا**» للبحث عن الموجات اللاسلكية العاملة ، عن وجود ثلاث حلقات تجسس رئيسية تعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب ، وتحصل على أسرار مشروع القنبلة الذرية . إحدى الحلقات تعمل فى جامعة «شيكاغو» حيث أدار «**إنريكو فيرمى**» أول رد فعل نووى خاضع للسيطرة . والحلقة الثانية كانت تعمل فى مختبر الإشعاع بجامعة كاليفورنيا فى «بيركلى» . والحلقة الثالثة كانت مكونة من ٢٢ شيوعياً أمريكياً جندوا قبل سنوات لسرقة الأسرار الصناعية والتكنولوچية الأمريكية ، وقد عملت هذه خارج «نيويورك» ، وتحولت عام ١٩٤٣م إلى التجسس الذرى .

تلك كانت الحلقة التى اشتغل لها «جولد» كوسيط وموجه فى البداية . كان لدى المخابرات الأمريكية بعض الإشارات إلى وجود الحلقات ، من خلال تحقيقاتها فى موضوع سرقة تكنولوچيا الرادار قبل ذلك بسنوات . وفى عام ١٩٤٥م تقدمت الشيوعية المرتدة «**إليزابيث نبتلى**» للمخابرات الأمريكية وقالت إنها كانت مساعدة

لرئيس المخابرات السوفيتية الموجه لعدد من الحلقات التى ارتكبت عددا من السرقات التكنولوچية . قالت إنها لا تعرف أعضاءها ، لكنها تذكرت أن رئيسها اتصل بأحد الأعضاء ، وهو رجل اسمه «**جوليوس**» .

عرفت المخابرات أن فريقا من رجل وزوجته تورطوا فى عملية التجسس الذرى ، ولهم قريب يعمل فى مشروع «مانهاتن» ، وانطبق ذلك على «جوليوس» ، و «إيثيل روزنبيرج» التى يعمل أخوها «ديڤيد جرينجلاس» فى «لوس ألاموس» . عرضت المخابرات الأمريكية مجموعة من صور المشتبه فى أنهم عملاء للسوفييت على «فوتشس» ، فتعرف على «جولد» باعتباره الرجل الذى يتسلم منه المعلومات فى «لوس ألاموس» .واعترف «جولد» بأنه كان يقود حلقتين ، أرشد عن أعضائهما . أما «فوتشس» فقد أمضى مدة سجنه فى هدوء ، وأطلق سراحه عام ١٩٥٩م ، فهاجر إلى ألمانيا الشرقية ، واشتغل فى معهد الطبيعة النووية حتى تقاعد عام ١٩٧٩م ، وتوفى عام ١٩٩٣م .

المخابرات بعد الحرب العالمية الثانية

بعد الحرب العالمية الثانية ، انقسم العالم إلى كتلتين : الاتحاد السوفيتى وتوابعه من مكونات الكتلة الشرقية ، والحلفاء وتوابعهم من الكتلة الغربية . وحصلت المستعمرات على استقلالها تدريجيا . وسادت العالم أيديولوجيتان : الشيوعية ، والرأسمالية . وانقسم العالم إلى شرق وغرب . وتبنى غربيون المبادئ الشيوعية . واعتنق شرقيون الرأسمالية . وانشق البعض عن مجتمعاتهم وحكوماتهم . ولجئوا إلى دول أخرى . وسجلوا بأعمالهم أساطير جاسوسية عجيبة . منهم :

* **إيجور جوزينكو** الدبلوماسى بالسفارة السوفيتية فى أوتاوا ، الذى لجأ إلى السلطات الكندية فى سبتمبر ١٩٤٥م ، كما سبق ذكره .

* ومنه أيضا **فلاديمير بتروف** وزوجته ، موظفا السفارة السوفيتية فى استراليا اللذان كشفا عن عملاء استراليين يتجسسون لصالح روسيا .

وتميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بازدياد عمليات التجسس ، والتسلل ، واللجوء السياسى . وانبث الجواسيس والعملاء فى المؤسسات الهامة ، والمصالح الحكومية ، والمصانع ، وهيئات البحث العلمى ، يتسترون فى مظاهر بريئة . وأدى هذا الانتشار إلى اهتمام دوائر المخابرات بالأمن الوقائى المضاد للجاسوسية ، وحماية شبكاتها ومؤسساتها ووسائلها وأنشطتها من التسلل إلى الخارج ، ومن اختراق عملاء العدو لها . وكانت بريطانيا أقدر الدول على مكافحة الجاسوسية بسبب موقعها الجغرافى كجزيرة ، وتجانس عناصر شعبها ، على عكس الاتحاد السوفيتى الذى كان يضم شعوبا كثيرة متباينة الأصول ، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية التى يتكون شعبها من أصول شتى .

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية ، قسم الحلفاء ألمانيا إلى شطرين : حكمت روسيا الشيوعية الشطر الشرقى ، وحكم الإنجليز ، والفرنسيون والأمريكيون الشطر الغربى . وبدأت مواجهة سميت بالحرب الباردة ، بدون قتال حقيقى بين جيوش الشرق والغرب . الدبلوماسية والجاسوسية كانتا ميدانى الحرب الباردة ، كانت مدن

ألمانيا الغربية الخربة مرتعا للجواسيس . بعض هؤلاء الجواسيس كانوا مجرد عصابات ـ مثل ـ **أولاد المائة مارك** ـ يجوبون فى الشرق ويعودون بمعلومات يبيعونها . وآخرون ـ مثل «**رينهارت جيهلين**» ـ يقدمون أكثر من ذلك .

★ رينهارت جيهلين مخابرات خاصة

خلال سنى الحرب ، كان جيهلين واحداً من أرقى ضباط مخابرات هتلر تخصص فى التجسس على روسيا وأوروبا الشرقية . حينما أحاط الحلفاء بزعماء النازى لمحاكمتهم بعد الحرب . استطاع «**جيهلين**» أن يحافظ على حياته وحريته . أمر جواسيسه فى الشرق أن يظلوا فى أماكنهم ، وأخفى صناديق عديدة مملوءة بالملفات الثمينة . ولما اعتقله الأمريكيون ، ظل هادئا كان لديه شئ ثمين يقدمه مقابل حريته . كان لديه جواسيسه وملفاته .


رينهارت جيهلين

وافق الأمريكيون على الصفقة ، وأرسلوا «جيهلين» بالطائرة سرا إلى واشنطن ، لأنهم لا يريدون أن يقع هذا الجاسوس الثمين فى أيدى الروس ، وحينما عاد عام ١٩٤٦ أنشأ وكالة مخابراته الخاصة ، يدعمه الأمريكيون ، وسرعان ما أثبت جدارته ، وزودته وكالة المخابرات الأمريكية الجديدة ، خلال العشر سنوات التالية بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار ، لمنظمته السرية ، التى أصبحت فى عام ١٩٥٦م منظمة المخابرات الرسمية لألمانيا الغربية ، برئاسة «جيهلين» حتى تقاعد عام ١٩٦٨م .

اتخذ «جيهلين» لمنظمته مقرا فى «ولاتش» قرب «ميونيخ» . وجعلها قلعة للجاسوسية ، تتستر تحت اسم شركات مزيفة ، مثل «**شركة الستائر الفينيسية**» التى كانت غرفها مكاتب عامرة بالجواسيس .

أنجزت المخابرات الأمريكية ومنظمة «جيهلين» معاً عمليات كثيرة ، ولعل أهمها

«نفق التليفونات» فى عام ١٩٥٥م انهمك الأمريكيون فى بناء محطة رادار جديدة فى ضاحية «**رودو**» ببرلين الغربية . وانتهزت المخابرات الأمريكية الفرصة لتحفر بمساعدة خبراء «جيهلين» ـ نفقا طوله ٦٠٠ متر ، يمر تحت سياج الأسلاك الشائكة ، إلى داخل ألمانيا الشرقية ، وكان الهدف من ذلك هو التنصت على خطوط التليفونات الرئيسية فى ألمانيا الشرقية . كان عملا فذا مدهشا . اقتضى حفر آلاف الأطنان من التربة ، ونقلها على عربات سكك حديد ضيقة صغيرة خاصة بالجيش الأمريكى . وتم لحام أجزاء النفق تحت الأرض ، وحشو الجدران بمعدات التسجيل وتضخيم الصوت . وفى نهاية النفق لوحة مفاتيح يمكنها أن تتعامل مع ٤٣٢ محادثة تليفونية منفصلة فى وقت واحد .

ظل النفق مسرحا للعمليات تسعة أشهر . وفى ٢٢ أبريل ١٩٥٦م اندفع الروس فجأة فى الطرف البعيد . أدى جهاز التحذير الكهربائى واجبه ، فلم يبق فى النفق أحد من الجانب الغربى . ووجده الروس مهجورا رغم وجود كل المعدات فى أماكنها . ترك العمال كل شئ فى مكانه ، وبارحوا النفق بسرعة ، حتى أن الروس وجدوا القهوة تغلى فى غرفة بعيدة .

قيل إن الجاسوس «**جورج بليك**» خان «جيلهين» وبلغ الروس عن سر النفق . و«بليك» شيوعى ذو وجهين ، فى عام ١٩٦١م اكتشف أمره ، وحوكم كجاسوس ، وصدر الحكم بسجنه ٤٢ سنة ، لكنه استطاع الهرب من السجن ، والفرار إلى روسيا . وسيأتى الكلام عنه بالتفصيل .

★ جورج بليك أفشى سر النفق

رجل نحيل القوام ، يتدثر بمعطف صينى مبطن ، يبدو كشبح شخص كان ممتلئ الجسم فيما مضى ، اجتاز خط الحدود ذات صباح فى ربيع ١٩٥٣م ، يبدو كأنه أفاق توا من كابوس ، ولا غرو ، فهو «**جورج بليك**» ، نائب القنصل ومعه زملاؤه الدبلوماسيون البريطانيون ، الذين أطلق سراحهم أخيرا بعد حوالى ثلاث سنوات من الأسر فى شمال كوريا ومنشوريا .

سيق «بليك» إلى نقطة استبدال السجناء مع آخرين ، وهناك التقى بوكيلين للمخابرات البريطانية ، لعملية استخلاص معلومات فورية . كانت مهمة «بليك» كنائب قنصل هى مجرد التغطية ، كان وكيلا للمخابرات البريطانية ، ذهب إلى

سيئول عام ١٩٤٨م ليفتتح أول محطة للمخابرات فى كوريا . وفى عام ١٩٥٠م اجتاح الغزو الكورى الشمالى سيئول ، فلم يجد «بليك» ورفاقه الدبلوماسيون وقتا للفرار ، وسجنوا ليذوقوا مرارة الأسر فى كوريا الشمالية ثم فى منشوريا فيما بعد .

كانت المخابرات البريطانية فى أشد الحاجة إلى توجيه سؤال عاجل إلى «بليك» لتعرف ما إذا كان الشيوعيون قد اكتشفوا صلته بالمخابرات؟ ... أكد لهم «بليك» أنهم لم يعرفوا ، وأنه خلال مدة أسره بطولها أقنع الشيوعيين بأنه «بليك» نائب القنصل . كان زملاؤه الأسرى يتحدثون عنه بإعجاب مرددين أنه يؤدى دوره بشجاعة وثبات، ويتصرف كملهم للأسرى الآخرين . حدثت استجوابات أخرى من جانب المخابرات البريطانية أثناء وجود «بليك» فى «هونج كونج» للراحة والاستجمام ، لكن المخابرات البريطانية لم تعرف أن «بليك» قابل ذات مساء ممثلا لمخابرات أخرى ، يحمل لها الولاء الحقيقى ، وهى المخابرات السوفيتية .

من الصعب تصديق أن ولاء «بليك» لقضية الشيوعية ظل ثابتا لم يهتز بعد تجربة الأسر فى منشوريا ، ولكنها إحدى التناقضات الكثيرة المتعلقة بالرجل الذى يجسد قصة أغرب جاسوس على مدى الزمان .

لكى نفهم «بليك» ، من الضرورى أولا أن نعرف أنه ولد عام ١٩٢٢م باسم **«جورج بيهار»** ، وهو ابن واحدة من أقدم العائلات اليهودية المعروفة فى أمستردام ـ توفى أبوه بينما كان سن الولد ١٤ سنة ، وبناء على وصية أبيه المتوفى ، أرسل ليلتحق بالمدرسة الإنجليزية المشهورة فى القاهرة . عاش مع أقاربه ، يمضى معظم وقته مع عمه **«هنرى كوريل»** ، الذى كان عضوا رئيسيا فى الحزب الشيوعى المصرى ، وعميلا قديما للمخابرات السوفيتية . توسم العم فى ابن أخيه الذكى سمات تؤهله لكى يكون جاسوسا بارعا ، فأخذ يسقيه مبادئ الشيوعية رشفة رشفة، فما أن عاد إلى أمستردام ، حتى كان مشبعا بها تماما . التحق بمدرسة عليا فى



جورج بليك

روتردام ، لكن الألمان اجتاحوا البلاد عام ١٩٤٠م ، فانقطعت دراسته وفرت أمه واختاه إلى إنجلترا. أما هو فقد قرر البقاء ، والانضمام إلى صفوف المقاومة وحرب العصابات ، منتحلا اسم «**ماكس دى فريز**» ، ولما وقع فى أيدى الجستابو وحّضروه للمحاكمة استطاع الإفلات ، وهرب إلى لندن عن طريق بلجيكا ، متنكرا فى زى راهب لا ترابى . وفى إنجلترا غيرّ اسمه إلى «بليك» ، وتطوع فى البحرية الملكية ، وأكد على أمله فى العمل بالمخابرات .

سرعان ما تحققت أمنيته ، لكنه أستاء حينما تحقق من أنه عمل مكتبى . لكنه فاز فى عمله المكتبى بمن غرق فى حبها حتى أذنيه ، وهى سكرتيرة فى المخابرات البريطانية اسمها «**إيريس بيك**» ، وقررا الزواج لكن عائلة «بيك» اعترضت ، فلم يكن هناك سبيل أن تسمح عائلة بريطانية لابنتها بالزواج من يهودى ، وهكذا انحنت الفتاة للضغوط وانهارت العلاقة بينهما.

صار «بليك» فريسة اليأس والإحباط ، واستبد به الحنق والغضب ، وأقسم على الانتقام من المجتمع الذى حرمه من أعظم حب فى حياته ، بث شكواه لعمه «هنرى كوريل» أقرب الناس إليه . استمع العم إليه باهتمام ، واقترح عليه نوع الانتقام ، وهو أن يعمل فى خدمة «قضية الثورة العالمية» ، بمعنى أن يخترق «بليك» المخابرات البريطانية ، وفى اللحظة المناسبة يصل إلى منصب يستطيع منه أن ينتقم ، ويضرب ضربته .

استغرق «بليك» وقتا طويلا فى الوصول إلى هدفه الرئيسى وهو الالتحاق بالمخابرات البريطانية . فى نهاية الحرب العالمية الثانية ظل يعمل لشعبة مخابرات البحرية ، ونقل إلى «هامبورج» رئيسا لوحدة صغيرة ، وأبلى بلاء حسنا فنقل إلى المخابرات البريطانية ، ثم عين عام ١٩٤٨م ـ بعد عام واحد ـ فى أول وظيفة رئيسية يشغلها رئيسا لمحطة سيئول الجديدة .

لم تضعف سنوات الأسر الثلاث تصميم «بليك» على الانتقام من المجتمع البريطانى . ولم تحن الفرصة إلا فى عام ١٩٥٥م ، بعد عامين من العمل المكتبى فى القيادة ، حين نقل إلى إحدى وظائف المخابرات البريطانية الأكثر أهمية في «برلين» . لم يكن هناك أفضل من «برلين» عام ١٩٥٥م لعميل المخابرات السوفيتية . فقد كانت المدينة معبرا حيويا للجاسوسية من الشرق والغرب ، وهى

بمثابة المخفر الأمامى لما لا يقل عن عشرة وكالات استخبار . و «بليك» يعمل فيها كواحد من ممثلى المخابرات الأنجلو أمريكية التى تشرف على عمليات التخابر الرئيسية المختلفة ، فضلا عن إشرافه على محطة مخابراته الحساسة .

فاز «بليك» بأول فرصة كبيرة بمجرد وصوله إلى برلين . علم أن المخابرات الأنجلو أمريكية مشغولة فى «**عملية الذهب**» ، وهى خطة جريئة لحفر خندق تحت حدود شرق وغرب برلين ، وإجراء توصيلات بخطوط التليفون ، للتنصت على كل العسكريين ، والدبلوماسيين ، ومحادثات المخابرات . مستخدمين أجهزة تسجل كل إشارة على خطوط التليفون الروسية .

حذر «بليك» الروس من العملية ، فلعبت المخابرات السوفيتية وصوبت هدف الفوز بمهارة . سمحت للخندق باكتمال الحفر دون أن يؤدى إلى نتيجة تذكر . وفى نفس الوقت انفقت المخابرات الأمريكية ملايين الدولارات لتمويل العملية وتوظيف جيش من المترجمين لترجمة ملايين المحادثات التليفونية. واعتبرت المخابرات الأمريكية أن عملية النفق ناجحة بكل المقاييس ، على الرغم من أنهم بدأوا يستغربون من قلة الفائدة الحقيقية الناتجة عن كل الاتصالات المترجمة . ولم تطل حيرة المخابرات الأمريكية كثيراً . لأن المخابرات السوفيتية ردمت النفق بعد أن اكتشفه حراس ألمانيا الشرقية بالصدفة ، أو هكذا قالوا .

بعد عملية النفق سدد «بليك» ضربة خيانة أخرى ، وهى الإرشاد عن أسماء كل عملاء المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية الذين يعرف أنهم يعملون فى محطة برلين . استفادت المخابرات الروسية كثيراً من هذه العملية وأفشلت حركة المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية فيما وراء الستار الحديدى ، هذه الخيانة الضخمة جعلت عملاء مخابرات الغرب تتركز على احتمال وجود خائن فى محطة برلين . استطاع بليك أن يبعد عنه الشبهة فى كل استجواب ، حتى حينما صرح «**هورست إتنر**» ، العميل الألمانى بمحطة برلين ، بأنه كان يعمل لحساب المخابرات السوفيتية ، وأشار إلى أن «بليك» ربما اشتغل هناك أيضاً . قال «بليك» إنه كان يتظاهر أحيانا بأنه متعاطف مع المخابرات السوفيتية ، ليكشف مَن بين عملاء المحطة الألمان ذا وجهين .

شعر «بليك» بحرارة نار الخطر تقترب منه ، واقترح عليه عمه «كوريل» طلب

النقل إلى وظيفة أخرى ، فطلب من المخابرات البريطانية نقله للعمل فى الشرق الأوسط . وافقت المخابرات البريطانية . وفى عام ١٩٦٠م سافر إلى لبنان ليدرس دراسات عربية فى كلية الشرق الأوسط ، تمهيدا لإلحاقه بمحطة بيروت للمخابرات البريطانية . لكنه لم يوفق ، وأصبح على وشك الانهيار .

وصل «بليك» إلى لبنان . وكان هناك عميل بولندى يعمل فى نفس الوقت لحساب المخابرات السوفيتية ، بدأ يرسل تقارير فى أعلى درجات الأهمية إلى المخابرات الأمريكية ، يذكر فيها بين أمور أخرى ، أن محطة المخابرات الأنجلو أمريكية فى برلين اخترقها خائن اسمه «جورج بليك» . وفى يناير ١٩٦١م اتضح أن اسم العميل «**ميكيل جولينويسكى**» ، وأنه ارتد إلى المخابرات الأمريكية ، وقدم أدلة لا تقبل الجدل ، من ملفات المخابرات السوفيتية، وثائق تثبت أن «بليك» عميل لروسيا .

استدعت المخابرات «بليك» إلى لندن ، بحجة أن كبار موظفى المخابرات البريطانية ، يريدون مناقشته بشأن منصبه الجديد . وعلى غير ما كان متوقعا وصل «بليك» إلى قيادة المخابرات البريطانية ، وهناك وُجه فورا بالتهم الموجهة إليه ، وأدهش مستجوبوه باعترافه فى الحال ، ورسم صورةً للأضرار التى تسبب فيها ، بما فيها القضاء على ٤٢ عميلا على الأقل ، تم إعدامهم جميعاً ، وسر نفق برلين ، وقائمة طويلة من عمليات أخرى . منها قضية «**بيوتر بوبوف**» الحزينة .

فى عام ١٩٥٢م ألقى كولونيل روسى اسمه «**بوبوف**» رسالة فى سيارة دبلوماسى أمريكى فى فينا . يتطوع فيها لخدمة المخابرات الأمريكية ، التى سرعان ما علمت أنه تحرر من وهم النظام السوفيتى ، وعزم على الاشتراك فى هدمه . عاش حياة ابن فلاح ، ثم امتلأ سخطا على ما يستمتع به الموظفون السوفييت من بحبوحة العيش . بينما معظم أفراد الشعب يعيشون على هامش الفقر . وقبل أجراً ضئيلا على خدماته للمخابرات الأمريكية ، منحها لأخيه كى يشترى بقرة .

زود «بوبوف» المخابرات الأمريكية بأول معلومات عن العسكرية السوفيتية ، ذلك العالم المقلق ، على أسلحته الجديدة ، ونظام نشر وحداته فى شرق أوروبا ، وكيف خطط السوفيت لخوض حرب ذريه فى حالة اعتداء الغرب . وفى عام ١٩٥٦م نقل إلى محطة المخابرات السوفيتية فى برلين الشرقية ، وفى الوقت الذى علم فيه

«بليـك» بأمر «بوبوف» ، أخبر المخـابرات السوفيتية .

طُلب من بوبوف أن يعود إلى موسكو للتشاور ، واعتقل بمجرد وصوله إلى العاصمة . وبدلا من إعدامه ، قررت المخابرات السوفيتية إعادته بعد تهديده بقتل أسرته ، .أمروه بلبس جهاز تسجيل بدنى ، ومقابلة وكيل المخابرات الأمريكية المعين حديثا ، الذى سيكون موجهه الأمريكى فى موسكو وفى أول لقاء بينهما فى إحدى غرف فندق معين ، فك «بوبوف» ضمادا كان حول إحدى يديه ، دون أن ينبس بكلمة واحدة ، ليكشف عن كلمة «**تعذيب**» مكتوبة على الإبهام بالحبر ، ثم صنع حركة دائرية بيديه محذرا المخابرات الأمريكية من أنه يلبس سلكا ، أى أنه مزود بجهاز تسجيل .

بالكشف على أشرطة التسجيل ، أدركت المخابرات السوفيتية أن «بوبوف» حذر المخابرات الأمريكية بطريقة ما من الفخ المنصوب . يئست المخابرات السوفيتية فى النهاية . وبينما كان «بوبوف» والوكيل الأمريكى يلتقيان فى شاحنة بموسكو ، فى أحد أيام أكتوبر ١٩٥٩م ، ألقى القبض عليهما ، وكان «بوبوف» قد كتب تحذيرا بأن العسكرية السوفيتية اكتشفت الارتفاع العمودى للطائرة «يو ـ٢» . وعزمت على إسقاط إحدى الطائرات ، تقرر طرد رجل المخـابرات الأمريكيـة من البـلاد باعتباره دبلوماسيا . لكن «بوبوف» تعذب ، وقاسى ما أصبح مصيرا تقليديا لكل من يخون المخابرات السوفيتية ، جعلوه غذاء حيا لأحد الأفران ، تحت بصر زملائه .

أما «بليك» فقد قضت المحكمة العليا بسجنه ٤٢ سنة ، وكان عمره آنذاك ٣٩ سنة . لكن ذلك الحكم لم يكن الصفحة الأخيرة فى حياة «بليك» ، إذ هرب من السجن عام ١٩٦٧م ، بعد أن أَمضى فى السجن ستة أعوام . قيل إنه هرب بمساعدة المخابرات السوفيتية . والواقع أن هروبه كان من تدبير أحد أصفيائه القدامى . عضو فى الجيش الأيرلندى الجمهورى ، اسمه «**سين بورك**» أخفاه عن الأعين عدة أسابيع حتى خفت حدة البحث عنه مقابل مكافأة سخية ، ثم اتصل بالروس ، فهربوه إلى موسكو ، وذهب معه «بورك» أيضا إلى موسكو ، لكنه عاد بعد عدة أشهر إلى وطنه أيرلندا . وصمم خلال السنوات التى عاشها ، على أنه دبر أمر هروب «بليك» من السجن بدافع من الصداقة ، ولم يكن هناك أدنى اتفاق على ذلك مع المخابرات السوفيتية .

لم يصدقه سوى أشخاص قلائل . أما إذا كان «بورك» قد قام بهذه المغامرة

لحساب المخابرات السوفيتية ، فإنه يكون قد أخذ معه هذا السر إلى القبر .

وفى موسكو منحت المخابرات السوفيتية «بليك» مسكنا مريحا ، حيث كان يستمتع بقراءة الكتب المسلية ، مثل رواية «**ريتشارد كوندون**» : «**الزميل المنشورى**» ، التى نسجت أصلا من قضيته ، تزوج امرأة روسية ، تاركا زوجته وطفلين فى بريطانيا . وفى عام ١٩٩٠م أجرى معه التليفزيون السوفيتى لقاء تفاخر فيه بأنه خان أكثر من ٦٠٠ وكيل للمخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية .

★ حلقة بورتلاند والجواسيس الخمسة

فى أوائل عام ١٩٦٠م ، بدأ ضباط الأمن السريون فى مؤسسة أسلحة الأعماق البريطانية بمدينة «**بورتلاند**» ، التحرى عن واحد من كتبة المؤسسة ، اسمه «**هارى هوتن**» ، أثار حوله الشبهات منذ حين ، وقد دأب مؤخرا على شراء أشياء غالية الثمن ، وهى كوخ خلوى للعطلات ، وسيارة جديدة .. من أين له أسباب الترف والرفاهية هذه ؟ .

وضعت المخابرات البريطانية «هارى هوتون» تحت المراقبة اللصيقة تسعة أشهر . راقبوا أيضا زوجته «**إثيل جى**» التى تعمل فى بورتلاند أيضا ، اكتشفوا أنهما يذهبان فى رحلات إلى لندن بين الحين والآخر ، وهناك يقابلان رجلا اسمه «**جوردون لونسديل**» . فى هذه المقابلات يتبادل «هوتون» و«لونسديل» لفافتين ، لم يكن صعبا تخمين ما يجرى . كان «هوتون» و «جى» يستبدلان الأسرار بالمال . كانا جاسوسين ثانويين .. فماذا عن «لونسديل» ؟ .

كان «جوردون لونسديل» فى ظاهره رجل أعمال كندى ناجح يعيش فى بريطانيا منذ خمس سنوات . وكان مدير شركة محترماً . محبوبا . ليس فى سلوكه ما ينم عن حقيقته . والحقيقة هى أنه عميل روسى مخلص، اسمه الحقيقى «**الكولونيل كونون تروفيموفيتش مولودى**» . وهو جاسوس متدرب ، يعيش ويعمل تحت اسم مستعار . تسلل إلى كندا فى عام ١٩٥٤م وأمضى عاما هناك فى تحسين لهجته والحصول على جواز سفر وأوراق تحقيق شخصية . قبل الذهاب إلى بريطانيا كانت بطاقته الشخصية دقيقة ومقنعة جداً ، حتى أنه حينما تعرف على «هوتون» وزوجته اعتقدا أنه كان عميلا أمريكيا ، يؤدى عملا جاسوسيا وديا فى مؤسسة بورتلاند .

فى ٧ يناير ١٩٦١م تم القبض على «هوتون» و «جى» و «لونسديل» ، أثناء تبادل لفافات ، قرب مسرح «**أولد فيك**» فى لندن ، اعترف هوتون قائلا : «لقد كنت غبيا» . وحاولت «جى» التظاهر بالبراءة . أما الجاسوس المحترف «لونسديل» فقد أصر على الصمت المطبق .

اتجهت «**سكوتلانديارد**» إلى التحرى عن أصدقاء «لونسديل» ، وقرر مديرها «**سميث**» أن يزور البيت الريفى الذى يسكنه «**بيتر كروجر**» وزوجته «هيلين» . كانا يتاجران فى الكتب النادرة . وكانا كنديين مثل «لونسديل» ، الذى تعود على زيارتهما بين الحين والحين فى بيتهما فى «**رويزليب**» كانا ودودين تبدو عليهما البشاشة .

بيت بيتر وهيلين كروجر

طلب منهما المدير «سميث» أن يرافقاه إلى «سكوتلانديارد» لاستكمال الاستجواب . وافقت السيدة كروجر بأدب ، وسألت عما إذا كان فى استطاعتها إطفاء السخان قبل مغادرة البيت . أجابها «سميث» قائلا : «بكل تأكيد ، لكن دعينى أولا أرى ما فى حقيبة اليد التى تحملينها» . رفضت السيدة «كروجر» ، فسحب الحقيبة من يدها عنوة . وإذا به يعثر فيها على رسالة باللغة الروسية من ست صفحات . وثلاث صفحات مثقبة ، وصفحة مطبوعة بالشفرة .

«كروجر» وزوجته «هيلين» ، كانا يقيمان فى بريطانيا بطريقة غير مشروعة مثل «لونسديل» . عثر فى بيتهما الريفى على معدات جاسوسية متقدمة . من «**كارنلى درايف**» فى «رويزليب» دأبا على إرسال أسرار «لونسديل» خلال الرموز المثقوبة ، والبث اللاسلكى ، إلى مركز المخابرات السوفيتية فى موسكو .

عثر «سميث» أثناء التفتيش على حمام يمكن تحويله إلى غرفة مظلمة لأعمال التصوير ، وجوازات سفر مزورة ، وجهاز إرسال لاسلكى مخفى فى تجويف تحت أرض المطبخ الخشبية . وبعد القبض على كروجر وزوجته ، عثر الساكن الجديد على جهاز إرسال لاسلكى آخر فى أرض الحديقة .

اتضح أن الاسم الحقيقى لكروجر وزوجته ، هو «**موريس ولونا كوهين**» ، وأنهما جاسوسان مدربان ، اشتغلا ضمن حلقة «**رودلف آبل**» فى أمريكا ، وهربا إلى إنجلترا حينما انهارت الحلقة فى أمريكا . قضت المحكمة بسجن «لونسديل» ٢٥ سنة ، وكروجر وزوجته ٢٠ سنة ، وهوتون وزوجته جى ١٥ سنة لكل منهما .

★ هارولد كيم فيلبى أستاذ الخيانة

اسمه الرسمى «**هارولد أدريان روميل فيلبى**» ، لقبه «كيم» وله اسمان حركيان هما «**ستانلى**» و «**العميل توم**» .

سئل قبيل وفاته عما إذا كان لا يشعر بأنه خان وطنه بريطانيا ، فقال : «الخيانة تتطلب الانتماء أولا . وأنا لم أشعر أبدا بالانتماء» . ومهما يكن هذا القول مبهما، فإنه التفسير الوحيد الذى قدمه أغرب عميل فى تاريخ الجاسوسية . كان «فيلبى» جاسوسا لوكالة المخابرات السوفيتية . سرب أسرار مخابرات بلاده قرابة ثلاثين عاما . وصل إلى قيد شعرة من منصب رئيس المخابرات ، وهو فى نفس الوقت يتجسس للعدو بنتائج تتجاوز الأحلام ، وصارت قصته مصدر وحى لعدد لا يحصى من الروائيين ، والقصاصين ، والكتاب الذين حاولوا تفسير ظاهرة فيليبى ، وتحليل شخصيته ، وتحديد دوافعه على الخيانة .


هـ - أ - ر - فيلبى

ركز المحللون على طفولته وحياته المبكرة ، بحثا عن بؤرة ترديه فى وهدة خيانة الوطن ... فهو من مواليد الهند قبيل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٢م ، أمه بريطانية ، وأبوه المستعرب «**سانت جون فيلبى**» رجل غريب الأطوار ، بنى لنفسه اسما فى الشرق الأوسط حيث اشتغل لحساب المخابرات البريطانية ، وكانت مهمته تحريك الثورة العربية ضد تركيا بعد الحرب ، اقتنع العرب بأن بريطانيا خانتهم ، انتقل إلى المملكة العربية السعودية ، واعتنق الإسلام ، وتزوج امرأة عربية زوجة ثانية، وكان دائما يحذر ابنه من تصديق كلام الحكومة البريطانية .

كان «فيلبى» وابنه متقاربان ، لكن الأب لم يكن يتدخل فى ميول ابنه السياسية نحو الشيوعية . والواقع أن هذا الاتجاه لم يبدأ إلا حينما التحق الابن بجامعة «كامبريدج» عام ١٩٢٩م ، بعدما أصبح صديقا حميما لكل من «**جاى بيرجيس**» و «**دونالد ماكلين**» ، وكانا من غلاة الماركسيين ، ، ونجحا فى إشباعه بالأفكار الشيوعية ، وخلال الإجازات كان يتجول فى أوروبا حيث كانت مسارح الرعب النازى ، مما ثبت اعتناقه للشيوعية وقوى حماسه للماركسية ، وخلال صيف عام ١٩٣٤م كان فى «فينا» حينما قرر أن يصبح جنديا فى الصراع ضد الفاشية .

انغمس فى دوامة الاضطراب السياسى . كان اليمين الحكومى مشتبكا فى صراع حياة أو موت مع الخصوم اليساريين ، وسجل «فيلبى» اسمه متطوعا فى قائمة الثوار الاشتراكيين الذين يساندهم الشيوعيون النمساويون ، وبدأ بالعمل مراسلا بين عدد من المخافر الأمامية المضادة للحكومة . والتقى فى هذه الفترة بفتاة شيوعية نمساوية أحبها ، وهى «**أليس فريدمان**» ، المعروفة باسم «ليتز فريدمان» . كانت غارقة لأذنيها فى الصراع الذى يهز المدينة ، والذى بلغ القمة حينما قصفت قوات الحكومة مساكن العمال وقتلت مئات وشاهد «فيلبى» المذبحة فتحول من يومها إلى متطرف راديكالى .

تصادف أن كان للمخابرات السوفيتية رجلان يعملان فى المدينة ، وهما المجرى «**تيودور مالى**» ، وهو قسيس سابق تحول إلى الشيوعية ، و«**جابور بيتر**» وهو أيضا شيوعى ، وقد توسم كلاهما فى «فيلبى» سمات نادرة تؤهله للجاسوسية والتفانى الأعمى فى خدمة الشيوعية ، فجندوه لخدمة ما سميت بقضية الثورة العالمية . وكان عليه أن يخفى ولاءه للشيوعية ، ويحاول أن يتسلل إلى وظيفة فى الحكومة البريطانية ، وياحبذا فى خدمة المخابرات . بادر «فيلبى» بعمل كل ما من شأنه محو ماضيه الشيوعى كمدخل أساسى للالتحاق بخدمة الحكومة البريطانية ، وانضم إلى عضوية الجميعة الأنجلو ألمانية ، وهى جمعية يمينية يدور نشاطها حول تنمية فكرة عقد حلف مع ألمانيا النازية ، وزيادة فى التمويه بأنه تنصل من الشيوعية طلق «أليس فريدمان» . وسنحت فرصة اختراقه للعمل الرسمى عام ١٩٣٦م ، حينما حصل على وظيفة مراسل لجريدة «لندن تايمز» فى الحرب الأهلية الأسبانية ، إلى

جانب «فرانكو» ، وتعمد أن تكون تقاريره الصحفية متحيزة للجنرال فرانكو ، فذاعت شهرته على أنه يمينى متطرف ، على الرغم من أنه كان يزود المخابرات السوفيتية بما يلتقطه من معلومات من حاشية فرانكو . وكادت حياته الجاسوسية تنتهى فى مهدها حينما اشتبه فيه جنود وطنيون وحجزوه للاستجواب ، وكان معه أوراق تدينه ، ولما طلبوا منه تقديم حافظة أوراقه ، تظاهر بأنها سقطت منه عفوا تحت الطاولة ، وانحنى الجنود لالتقاطها ، فانتهز الفرصة وازدرد الأوراق .

فى عام ١٩٣٩م كان لا يزال مراسلا لجريدة «التايمز» وحانت الفرصة التى طالما انتظرها ، ذلك أن زميله فى الدراسة ، ورفيقه فى الشيوعية «جاى بيرجيس» ، كان يعمل فى وكالة المخابرات البريطانية فضمه إليها . وظلت الوكالة تتحرى عن ميوله وأنشطته بين الحين والآخر . وسئل أبوه عما إذا كان «فيلبى» شيوعيا حقا ، فنفى ذلك بشدة قائلا: «كانت مجرد حماقات سياسية مما يقع فيها المراهقون» وانتهت بذلك التحريات ، وانزاحت عن طريق مستقبله خلفيته المشبوهة .

فى عام ١٩٤١م ألغيت إدارة المخابرات البريطانية واستبدلت بوكالة أخرى أعادت تنظيم جهازها ، واكتشفت أن «فيلبى» يعانى من فأفأة فى النطق ، فجنبته العمل الميدانى ، وعينته فى الأعمال المكتبية بشعبة الاستخبارات المضادة فى الدول الأجنبية ، وكان ذلك هو الموقع الذى لم يحلم بأحسن منه ، لا هو ، ولا وكالة المخابرات السوفيتية ، لأنه سيطلع فى هذا الموقع على آفاق بعيدة من المعلومات والتقارير ، التى لا تتوافر لأى عميل ميدانى .

كان «فيلبى» معروفا بين رجال المخابرات البريطانية ، محبوبا منهم . ومن ناحية أخرى كان ملفه عامراً بما يكفى من الوثائق التى تـوفر فيه ثقة رؤسائه ، واشتهر فى الوقت نفسه بسهولة تآلفه مع الأقل مرتبة . ولأنه ولد فى الهند مثله مثل الشاعر «**روديارد كيبلبخ**» .. ولأنه كان رجل مخابرات موهوب ، تنبؤا له برئاسة وكالة المخابرات بأسرها فى المستقبل ، وأطلقوا عليه اسم «**كيم**» .

فى أواخر عام ١٩٤٤م واتت «فيلبى» صفقة حظ مدهشة ، إذ أسندوا إليه رئاسة الشعبة التاسعة بوكالة المخابرات البريطانية ، وهى الشعبة المنوط بها التصدى لعمليات الهدم والجاسوسية السوفيتية التى كانت مجمدة حينما كانت روسيا حليفة لبريطانيا . فلما قاربت الحرب على الانتهاء ، واتضح أن الاتحاد السوفيتى

سوف يكون عدو الغرب التالى ، فكرت المخابرات البريطانية فى بعث الشعبة تحت إدارة «فيلبى» ، وزودته بمائة عميل .

كسبت المخابرات السوفيتية موقعا فوق التصور . قد لا يعرف سوى أرشيف مخابرات موسكو مقدار ونوع الخيانات التى اقترفها «فيلبى» بالتفصيل ، والموضوعات التى نقلها إليها ، لكن بات من المؤكد أنه أسدى للسوفيت خدمتين حيويتين أثناء الحرب . **الأولى** هى الإحباط التام لكل جهود أعداء النازية الألمان السريين للحصول على دعم بريطانى للإطاحة بهتلر . كان هؤلاء بمثابة أفظع كابوس لموسكو . فلو أن حكومة ألمانية جديدة قامت على أشلاء النازى . فإنها ستسعى بكل تأكيد إلى عقد اتفاقية سلام منفصلة مع الغرب ، وهو ما يمثل كارثة حقيقية للاتحاد السوفيتى ، خصوصا إذا احتفظ الألمان بكل جيوشهم وساقوها نحو الشرق . لكى يجهض فيلبى هذه الخطة ونتائجها ، فعل كل ما من شأنه تشويه تقارير معارضى هتلر ، وتجريدها من فاعليتها وجدواها ، ووصمها بأنها لا تستحق النظر .

أما **الخدمة الثانية** التى قدمها «فيلبى» للمخابرات السوفيتية فهى تزويدهم بأسماء عملاء المخابرات البريطانية العاملين فى أوروبا الشرقية ، فلما استولت موسكو على المنطقة فيما بعد أحاطت بهم . وفى الوقت نفسه خان «فيلبى» شبكة الجاسوسية المضادة للسوفييت التى نسجها بنفسه كرئيس للشعبة التاسعة . وكانت المخابرات السوفيتية تحصل منه على التحذيرات والمعلومات ، وتعيد إليه معلومات مضللة ، خدعت المخابرات البريطانية سنوات .

فى عام ١٩٤٥م واجه «فيلبى» أزمة هددت بوضع نهاية لوظيفته على الأقل . ذلك أن رجلين من مخابرات السوفييت لجأا إلى الغرب : أحدهما «**إيجور جوزينكو**» ، وهو كاتب شفرة فى السفارة السوفيتية بكندا هرب بكمية برقيات سوفيتية سرية جدا ، وما يحتويه رأسه من معلومات خطيرة والرجل الثانى هو «**كونستانتسين فولكوف**» ضابط مخابرات روسى كبير فى «إستانبول» ، لم يكن قد هرب بعد ، لكنه تقدم للسفارة البريطانية بطلب لجوء سياسى ، قرر فيه أنه يعلم علم اليقين أن المخابرات السوفيتية اخترقت المخابرات البريطانية . لم يعرف فولكوف شخصية العميل السوفيتى ، لكنه أشار إلى عدة علامات ، تكشف عن شخصية

العميل «فيلبى» ، لو فحصت بدقة .

استشار «فيلبى» موجهه «**يورى مردين**» وكيل المخابرات الروسية الأسطورى ، الذى يشرف فى لندن على شبكة الخمسة العاملين فى بريطانيا وهم : «**فيلبى**» و«**ماكلين**» و «**بورجيس**» و «**أنتونى بلانت**» و «**جون كيرنكروس**» .

وجد «**مودن**» أن فيلبى لا يستطيع التعامل مع الجاسوسين الروسيين المرتدين ، وأن على المخابرات السوفيتية أن تختار أشدهما خطرا وتتخلص منه واستقر الرأى على «**فولكوف**» ، وكان على «فيلبى» ـ بحكم رئاسته للشعبة التاسعة ـ أن يستخلص المعلومات من «فولكوف» بنفسه ، عن أشخاص قال إنهم اخترقوا المخابرات البريطانية لصالح روسيا .

سافر «فيلبى» إلى «إستانبول» فى الوقت نفسه الذى قررت فيه المخابرات السوفيتية التخلص من التهديد المتمثل فى ارتداد «فولكوف» ، ولم يكشف النقاب حتى الآن عما جرى لفولكوف ، غير أن شهود عيان رأوا جسما ملفوفا بأربطة الضمادات من الرأس إلى القدم ، يزج على متن طائرة سوفيتية فى مطار إستانبول ، فى نفس يوم اختفاء «فولكوف» فجأة .

اتضح أن «**جوزينكو**» لم يكن على دراية بعمليات المخابرات السوفيتية داخل بريطانيا ، وهذا ما كان متوقعا ، ومن ثم عاد «فيلبى» إلى لندن مطمئنا . فى نهاية الحرب ارتفع نجمه بثبات متألقا فى سماء المخابرات البريطانية ، التى غابت عنها خيانته تماما ، بما فى ذلك الإرشاد عن الفدائيين من رجال المخابرات البريطانية العاملين ضد الشيوعية فى دول البلطيق ، وعمليات أخرى مشابهة فى أوروبا الشرقية .

دار حديث فى وكالة المخابرات البريطانية عن قرب ترقية فيلبى خلفا لمدير المخابرات «**ستيورات منزيس**» . وتأكدت الترقية بنقله عام ١٩٤٩م رئيسا لمحطة المخابرات البريطانية فى واشنطن ، تحت ستار وظيفة سكرتير أول سفارة بريطانيا فى أمريكا . وكان من بين أهم واجباته المنوطة به . أن يعمل كحلقة اتصال بين المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية . واعتبرت المخابرات السوفيتية هذا النقل ضربة حظ لم تكن فى الحسبان ، لأن «فيلبى» يستطيع من منصبه الجديد تزويد موسكو بأسرار المخابرات الأمريكية والبريطانية معا .

انتـقل «فيـلبى» للإقامة فى «واشنطن» وسرعان ما عرف سر أمريكا الأكبر ، شفرة اسمها **«ف ى ن و ن ا»** تستخدم فى عملية حل الشفرات ، موجهة مباشرة من لندن ، ونيويورك ، وواشنطن ، ضـد شبكة المواصـلات اللاسلكيـة للمـخابرات السـوفيـتيـة خـلال الحـرب . شعـرت واشنطن ولندن أن تغيـيـرا طرأ على كـثـافـة الاتصـالات ، وسـاورهمـا الشـك فى أن ذلك راجع إلى أن «مـوسكو» تحث كـل عملائها على تزويدها بالمعلومات فى وقت تعاظم فيه الخطر على النظام الشيوعى ، وكان شكهما صحيحا .

بدأت العـمليـة باكـتشاف كـتاب شفرة سوفيتى محـترق جزئيا فى «فنلندا» ، كشف عن مفاتيح شفرية حيوية كثيرة لحل رسائل السوفيت الشفرية . ويبدو أن عـدد عمـلاء روسيا فى كـل من الولايات المتحدة الأمـريكيـة وبريطانيا كـان يقـدر بالمئات . وهؤلاء لا يمكن التعـرف عليـهم إلا بأسمـائهم الحركـيـة . ومع ذلك استطاع قراء الشفـرة مقارنة الأسماء الشـفرية بمفـاتيح أخرى مستمـدة من رسـائل مختلفة . وركزوا اهتمامهم على الشخصيات البارزة ، خاصة عميل سرب معلومات عن مشروع القنبلة الذرية ، اتضح فيـما بعد أنه **«كلوز فوشز»** ، بل دوى ناقوس الخطر فى صدر «فيلبى» ، حينما أشاروا إلى عميل بريطانى يشغل منصبا مرموقا اسمه الحركى **«هومر»** ، يسرب معلومات على جانب كبير من السرية ، من وزارة الخـارجيـة البـريطانيـة . وجـاء فى رسـالة شـفـرية أن «هومـر» سـافـر من واشنطن إلى نيـويورك ذات مـرة ليـزور زوجتـه الحـامل المريضـة . وأشـارت الرسـالة مـبـاشـرة إلى دبلوماسى بريطانى يعمل فى السفارة البريطانية فى وشنطن هو **«دونالد ماكلين»** .

باعتبـاره مسـئول الاتصـال البـريطانى فى «واشنطن» ، كـان «فيلبى» عـضوا فى فريق المخابرات الذى راقب تطور نقد عملية «ف ى ن و ن ا» ، ومدى تقدم محاولة تحديد شخصيات عملاء السوفييت ، ومن ثم بادر إلى تحذير المخابرات الروسية عام ١٩٥١م ، بأن قراء الشفرة قد دمغوا «ماكلين» . بهذا التحذير خشى «مودن» إذا قبض على «ماكلين» أن تنهار أعصابه ويسئ إلى الشبكة السوفيتية باعترافاته ، فقرر تهـريبـه إلى موسكو ، على أن تتم العـمليـة بحذر ومهـارة ، لأن فـشلهـا يعنى أيضـا وضع نهاية لفوائد «فيلبى» .

أسند «مودن» مهمة إخراج «ماكلين» من بريطانيا إلى واحد من أهم عملائه ،

وهو «**جاى بورجيس**» ، الذى كان صديقا حميما «لماكلين» ، وكان فى الوقت نفسه صديقا حميما لفيلبى ، يعيش فى بيته منذ انتقل للعمل فى أمريكا . كانت هذه علاقة مشئومة ، ازدادت سوءا حينما قرر «بورجيس» فجأة ولأسباب غامضة ، مرافقة «ماكلين» فى رحلته الجوية نحو الشرق ، مما ركز الشك فى «فيلبى» ، واعتباره الرجل الثالث الذى حذر «ماكلين» من اعتقال وشيك .

كان الموقف برمته بمثابة كارثة أصابت المخابرات السوفيتية فى توقيت مذهل ، إذ شغل «فيلبى» منصبا استخباريا حساسا جعله قيد شعره من تولى رئاسة المخابرات البريطانية ، وفجأة يتحطم كل شئ بعمل طائش من جانب «بورجيس» بعد شهور قلائل أرسل مدير المخابرات الأمريكية «**بيدويل سميث**» رسالة جافة مقتضبة إلى «**ستيوارت منزيس**» مدير المخابرات البريطانية نصها : « استعيدوا فيلبى ، وإلا نقطع العلاقات الاستخبارية » . وهكذا انتهت خدمة «فيلبى» الحقيقية للمخابرات السوفيتية . احتفظت به المخابرات البريطانية لكن فى سحابة من الشك ، فلم يعد فى موقف يتيح له تزويد موسكو بالمعلومات التى تتوقعها منه . علاوة على ذلك صار عرضة لهجوم المخابرات البريطانية والأمريكية المضادة ، التى شكت فى أنه كان الجاسوس الأعلى المشار إليه فى عملية «ف ى ن و ن ا» بالاسم الشفرى «ستانلى» . وزاد الأمر سوءا أن عددا من المرتدين السوفييت فى لندن وواشنطن قدموا أكوام المعلومات عن ضلوعه فى الخيانة . وأصبح واضحا فى عام ١٩٦١م أن الخناق قد ضاق عليه . ذلك أن عميلا آخر داخل المخابرات البريطانية اسمه «جورج بليك» تم القبض عليه ، وأدلى باعتراف كامل ، ذكر فيه بعض شواهد تشير إلى تورط «فيلبى» .

تحرك «مودن» لإنقاذ «فيلبى» ، فلجأ إلى بند قديم فى قانون المخابرات البريطانية ـ دله عليه شخص مازال مجهولا ـ يمنح «فيلبى» الحصانة مقابل اعتراف كامل . أسرع «مودن» إلى بيروت ، حيث كان «فيلبى» يعمل جاسوسا للمخابرات البريطانية ، تحت ستار وظيفة مراسل صحفى * .

وكانت خطة «مودن» تتلخص فى أن يتقدم «فيلبى» للمخابرات البريطانية بطلب استجوابه لمعرفة نوع ومقدار ما تأخذه عليه ، ثم يهرب إلى موسكو بمجرد

* مراسلا لجريدة الأوبزيروفر .

أن يكشف مستجوبوه كل أوراقهم . وأدلى فيلبى ـ بالفعل ـ باعتراف محدود ، لا يتجاوز ما استشعر أن المخابرات البريطانية تعرفه ، وفى ٢٣ يناير ١٩٦٣م تسلل من حفل عشاء واختفى ، ثم أعلنت موسكو بعد ستة أسابيع أنها منحته حق اللجوء السياسى .

رحب الروس بفيلبى ترحيبا بالغا . منحوه مسكنا فخما ، وتزوج فتاة صغيرة روسية لا تتجاوز سن بناته ، بعد طلاق زوجته الثالثة . وأجزلوا له العطاء ، وصرفوا له مرتبا شهريا سخيا ، دون أن يكلفوه بأى عملية استخبارية، لأنهم لم يضعوه موضع ثقة كاملة ، فليس هناك ما يضمن لهم ألا يتحول إلى خدمة الطرف الآخر ، وألا يقوم بدور الجاسوس ذى الوجهين ، فيعمل لصالح الغرب ما فعله لصالح موسكو . وبناء عليه صار «فيلبى» رجلا إنجليزيا منفيا بائسا ، يتجول فى طرقات موسكو ، حاملا نسخة من جريدة «لندن تايمز» وهى ميزة سمحت له بها المخابرات السوفيتية ، مع ممارسة لعبة الكريكيت . كان سكيرا ذكيا سريع البديهة حاضر النكتة ، كثيرا ما كان يرحب بزيارات الصحفيين البريطانيين ، ويسعده احترام كل الرسميين السوفييت له ، ظل محافظا على مراسلة بعض أصدقائه الإنجليز القدامى ، خصوصاً «**جراهام جرين**» ، الروائى المعروف الذى كان زميله فى المخابرات البريطانية ، والذى استنكر خيانة «فيلبى» حينما جعله بطلا لروايته «**العنصر الإنسانى**» .

لم تتغير علاقة المخابرات الروسية «بفيلبى» حتى عام ١٩٨٠م ، حينما دعاه رئيسها «**يورى أندروبوف**» للخدمة مستشارا لعمليات روسيا فى بريطانيا. ولم يعرف أحد نوع المشورة التى قدمها «فيلبى» ، لكن فرصة عودته إلى ميدان الاستخبار أسعدته كثيرا ، ولكنه أصبح معتلا ، ولم يظهر فى أى مكان بدون قفاز أبيض ، يقى كفيه من حساسية جلدية خبيثة ، كما أصيب بعدد من العلل التى استنزفت قواه ، ثم توفى فى مايو ١٩٨٨م .

لم يدخر السوفيت جهدا فى تكريم أعظم عميل لهم على مدى تاريخهم حضر جنازته كل سياسى مهم ، وكل رجال الجاسوسية الروس ، وشيعوا جثمانه فى موكب عسكرى ، وأُنعم على جثمانه برتبة «جنرال» ، ودفن حسب وصيته فى مقبرة روسية ، وثبتت على صدره الأوسمة والنياشين قبل دفنه . ومن بينها وسام لينين أرفع الأوسمة السوفيتية .

★ أنتونى بلانت خلية العملاء الخمسة

اسمه الحركى «**جونسون**» ولد عام ١٩٠٨م ، وتوفى عام ١٩٨٣م . كان أبوه رجل دين ، اشتغل فترة من حياته قسيسا للسفارة البريطانية فى باريس ، تنتمى أمه بصلة قرابة إلى الملكة الأم ، وهذا ما جعل تجنيده جاسوساً للمخابرات السوفيتية على بلاده أكثر غموضا .

كغيره من أعضاء «**خلية الخمسة العلماء الإنجليز**» التحق بجامعة «كمبردج» فى وقت انتشار الماركسية بين الطلبة ، وانضم «بلانت» إلى الحزب الشيوعى ، ولم يكتف بالخطوة السياسية ، وإنما بلغ به عمق الاقتناع بمبادئ «**ماركس**» أنه أسرع بالاضمام إلى الجاسوسية . ومن المعتقد أن تجنيده للمخابرات السوفيتية تم عام ١٩٣٣م ، وأنه الرجل الأول فى «خلية العملاء الخمسة» ، والذى حث رفاقه الماركسيين الأربعة على عمل شئ من أجل الحيلولة دون سقوط بريطانيا والنظام الرأسمالى فى هاوية ، كما أكد الحاجة العاجلة الماسة إلى مساعدة الاتحاد السوفيتى ، الذى اعتبره منارة خلاص العالم .

كان «**جاى بيرجس**» أول من جندهم «بلانت» ، وهو شاب وسيم . تبعه آخرون وهم «**دونالد ماكلين**» و «**ميشيل ستريت**» ، وهو طالب أمريكى تطور فيما بعد ليصبح أبرع مما تصور «بلانت» .


أنتونى بلانت

قد يبدو من الوهلة الأولى غباء المخابرات السوفيتية لبذل جهودها فى تجنيد طالب مغمور فى جامعة كمبردج ، ومؤرخ فنى خامل ، فماذا يستطيع مثل هذين تزويد المخابرات به . لكن الواقع أن اختيار المخابرات السوفيتية كان موفقا بعيد النظر ، إذا علمنا أن الحكومة البريطانية كانت تحصل على زعمائها السياسيين ، وكبار الموظفين ، ووكلاء مخابراتها ، من جامعتى كمبردج وأكسفورد . وهكذا كانت المخابرات السوفيتية تربى أفراخ جواسيسها فى وقت مبكر بالجامعتين ، وتشبع

عقولهم ونفوسهم بمبادئ الشيوعية ، حتى تتمكن من اختراق الحكومة الإنجليزية والمخابرات البريطانية بسهولة فى وقت مبكر ، وتنسفها باسم «**البروليتاريا**» ، فهم بمثابة خلايا سرطانية زرعتها المخابرات السوفيتية فى الجسم السياسى الإنجليزى .

هناك سبب آخر لتجنيد «بلانت» ، فقد كان له شبكة اتصالات واسعة الأطراف، تمتد على طول وعرض المؤسسة الإدارية البريطانية . وكما كانت المخابرات السوفيتية تعلم ، فإن أحد أصدقاء «بلانت» المقربين واسمه «**جاى ليديل**» ، كان يشغل منصبا رئيسيا فى المخابرات البريطانية ، تذرعت المخابرات السوفيتية بالصبر ، فلم تحاول مضايقته بالابتزاز ، لأنه يستطيع تقديم خدمات أهم ، بتسهيل التحاق عملاء مخنثين فى المخابرات البريطانية ، وحمايتهم من أى استجواب عن ماضيهم الماركسى ، أو شذوذهم الجنسى .

حاول «بلانت» الالتحاق بالمخابرات ألبريطانية فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، فانضم إلى فرقة أمن الميدان التابعة لمخابرات الجيش ، لكنهم لم يلبثوا أن فصلوه ، حينما اكتشفت مباحث الأمن خلفيته الشيوعية . لجأ بلانت إلى صديقه «**ليديل**» ، فألحقه بالمخابرات البريطانية . وفى الوقت نفسه التحق «بورجيس» بمخابرات الأمن البريطانى . واستطاع «بورجيس» فيما بعد ضم «فيلبى» ، فصار للمخابرات السوفيتية ثلاثة عملاء زرعتهم فى جسم المخابرات البريطانية . وكانت قد زرعت «**مالكين**» فى وزارة الخارجية البريطانية من قبل ، فحان وقت الحصاد .

أسندت إلى بلانت عملية فتح الحقائب الدبلوماسية سرا ، الخاصة بسفارات الدول المحايدة فى لندن ، واتبع فى ذلك طريقة إغراء سعاة السفارات وحملة الحقائب . فضلا عن المكافآت المالية . ابتهجت المخابرات البريطانية لحصولها على أسرار استقتها من الأوراق التى صورها «بلانت» من بين محتويات الحقائب ، وكذلك ابتهجت المخابرات السوفيتية التى كان يزودها «بلانت» بصورة من كل وثيقة وفى الوقت نفسه كان «بلانت» يبلغ موسكو عن أنشطة عدد من المنفيين الروس المقيمين فى لندن ، وكذا البولنديين والتشيك .

فى عام ١٩٤٤م عين «بلانت» ممثلا للمخابرات البريطانية فى القيادة العليا لقوات الحلفاء فى أوروبا ، مما وضعه فى موقع حساس ، وجعله على بينة من عمليات شفرية سرية رفيعة المستوى ، كعملية «**ألترا**» التى أصابت الشفرات

الألمانيةَ بصدع ، وعملية غزو «**نورماندى**» وغيرها . ولا يعرف أحد الخدمات الأخرى التى قدمها «بلانت» للمخابرات السوفيتية ، لكنه ـ قبيل نهاية الحرب ـ قام بعملية لا صلة لها بالحرب ولا بالمخابرات السوفيتية ، ولكنها عملية وضعت العائلة المالكة فى جيبه .

خلال الثلاثينات انشغل البريطانيون بمشكلة «**دوق وندسور**» الذى كان متحمسا لمناصرة النازية . وقد اضطر إلى التنازل عن العرش البريطانى ، لرفضه قطع علاقته بالسيدة «**والاس سمبسون**» ، المطلقة الأمريكية فى عام ١٩٣٧م علمت المخابرات البريطانية أن الدوق قابل «هتلر» أثناء زيارته لألمانيا ، وعبر له عن مزيد مناصرته للنازية ، لدرجة أن «**الفوهرر**» قرر تنصيبه رئيسا لحكومة صورية بمجرد أن تهزم ألمانيا إنجلترا . فيما بعد ، عينت بريطانيا الدوق حاكما عاما لـ«**برمودا**» بعد أن علمت باحتمال استعداده لمعاونة النازية .

استطاعت حكومة بريطانيا أن تحافظ على هذه الأسرار ، وكانت تعلم باحتمال وجود وثائق خطيرة فى ألمانيا ، معظمها وسائل من الدوق يعبر فيها عن أعذب أمانى النصر للنازية الألمانية ، وأرادت أن تسترد هذه الرسائل بأى ثمن . أدى «بلانت» المهمة بنجاح وكافأته العائلة المالكة بوظيفة : أمين مكتبة الصور الملكية ، وقُلِّد وسام الفروسية عام ١٩٥٦م .

على الرغم من أن «بلانت» استقال رسميا من المخابرات البريطانية فى نهاية الحرب ، إلا أنه ظل ذا قيمة للمخابرات السوفيتية ، استمرت اتصالاته مع شبكة الرفاق والأصدقاء القدامى ، وكان يلتقى فى حفل عشاء أسبوعى مع كبار موظفى المخابرات البريطانية ، وكان يحصل من هذا النشاط على معلومات يمررها إلى المخابرات السوفيتية .

وظهرت قيمة «بلانت» مرة أخرى للمخابرات البريطانية حينما تورطت فى أول موجة من حالات جاسوسية ما بعد الحرب ، وهرب «بورجيس» مع «ماكلين» إلى «موسكو» عام ١٩٥١م . وجعل «بلانت» الأمور أصعب للمخابرات البريطانية بالتسلل إلى مسكن «بورجيس» قبل وصول شرطة الجاسوسية إليه ، وأزال أوراقا تدينه ، من بينها مذكرات بخط «**جون كيرنكروس**» أحد أفراد خلية الخمسة ، وبعض خطابات كتبها «بورجيس» إلى «أنتونى بلانت» ذاته .

والمعروف أن «بورجيس» لم يدرس اللغة الروسية ، فلما هرب إلى المنفى فى روسيا . اسكنته المخابرات الروسية فى شقة صغيرة ، ورتبت له وظيفة بسيطة فى إحدى دور النشر ، وتوفى عام ١٩٦٣م . وظل «فيلبى» غاضبا يعض أنامل الحسرة على الرحلة الجوية التى قطعت طريق مستقبله كأعظم جواسيس المخابرات السوفيتية . ولعل هذه الحسرة هى التى منعته من حضور جنازة «بورجيس» ، كما أنه لم يحضر جنازة «ماكلين» أيضا حينما توفى متأثرا بداء السرطان عام ١٩٨٣م. فى منفاه بروسيا وكان ينشر مقالات باسم مستعار هو «**إس . بى . مادزوفسكى**» . ولما هربت زوجته من لندن إلى موسكو لتلحق به أغراها «فيلبى» وتزوجها .

ونعود إلى «بلانت» حيث لم تثبت التحقيقات ـ رغم كثرتها ـ ضلوعه فى الخيانة ، ومع ذلك أحاطت به سحابة الشكوك ، باعتباره صديقا حميما «لبورجيس» ، فعرض عليه مراقبة السوفيتى «يورى مودن» تهريبه من بريطانيا إلى شاطئ الأمان فى الاتحاد السوفيتى ، لكنه رفض ، واستجوبته المخابرات البريطانية ١١ مرة خلال السنوات التالية دون أن تقيم عليه دليلا .

فى عام ١٩٦٣م قرر أحد أتباع «بلانت» ـ وهو أمريكى اسمه «**ميشيل ستريت**» ـ أن يتقدم لوظيفة فيدرالية . ولعلمه بأن تحريات المخابرات الأمريكية عن خلفيته سوف تكشف أسرار ماضيه ، تطوع بذكر أنه انضم إلى المخابرات السوفيتية عن طريق بلانت ، وأنه أدى بعض مهام تجسس بسيطة قبل انشقاقه عن الحزب الشيوعى . تذرعت المخابرات البريطانية بهذه الواقعة وشهرتها فى وجه «بلانت» ، عارضة عليه صفقة مؤداها أن يذكر كل شئ مقابل منحه الحصانة . وافق «بلانت» على الصفقة ، لكنه لم يفصح إلا عن ما يعرف أن المخابرات البريطانية تعرفه بالفعل . كشف النقاب عن أن «**ليو لونج**» ـ وهو ضابط فى المخابرات البريطانية أثناء الحرب ـ انضم للمخابرات السوفيتية كمصدر معلومات . أكد أيضا شكوك المخابرات البريطانية فى أن «**جون كيرنكروس**» كان الرجل الخامس فى «**خلية الخمسة**» . واعترف فيما بعد كل من «لونج» و «كيرنكروس» . وأرشد «بلانت» عن ضباط المخابرات السوفيتية الذين عمل معهم ، خصوصا «ورى مودن» ، الذى يعتبر المتخصص الرئيسى فى معاملة العملاء الشواذ جنسيا . وكان «بلانت» يعلم أن أقواله ذات قيمة محدودة ، طالما أن هؤلاء الروس غادروا بريطانيا منذ زمن .

والمعروف عن «يورى مودن» أنه كان مقيما فى لندن عام ١٩٥٦م ، ولما نقل إلى «موسكو» قوبل بحفاوة تكريم المخابرات السوفيتية ، جزاء حسن قيادته للعملاء البريطانيين ، وتدبيره خطة هرب «فيلبى» إلى موسكو . سرعان ما رقى كبيرا لمعلمى الجاسوسية فى الاستخبارات السوفيتية ، درب جيلا كاملا من العملاء والوكلاء على أساليب العملاء الأجانب . وفى عام ١٩٩٠م - كنجم للمخابرات السوفيتية - كان مقصد رجال الصحافة ومقدمى برامج التليفزيون والإذاعة الشرقيين، يحدثهم عن أشهر عمليات الجاسوسية السوفيتية خاصة ما لعب فيها دوراً هاماً .

وفيما يتعلق بموضوع «بلانت» فإن المخابرات البريطانية اتفقت معه على أن يبقى تدبيرها معه طى الكتمان . لكن بعض موظفى المخابرات البريطانية انتهكوا الاتفاق الذى قصد به حسن معاملة أحد أعمدة المجتمع البريطانى ، وسربوا تفاصيل الصفقة إلى الكاتب «**أنتونى بويل**» الذى اتخذها نواة لكتابه «**الرجل الرابع**» ، فأثار عاصفة اجتاحت الرأى العام . واضطرت رئيسة الوزراء «**مرجريت تاتشر**» إلى الاعتراف علنا أن الصفقة قد عقدت بالفعل . واستمر الجدل حول ما إذا كان رجل مثل «بلانت» يستحق الحصانة ، بالرغم من عدم وجود دليل إثبات كافٍ بدون اعترافه ، لإمكان اتهامه بالجاسوسية وتقديمه إلى المحاكمة .

ومع ذلك دفع «بلانت» الثمن ، بتجريده من وسام الفروسية ، وتوجيه السباب إليه علنا فى الصحف . ولم يعد قادرا على الظهور فى الأماكن العامة ، حتى توفى عام ١٩٨٣م . وحينما سأله الأصدقاء عن دوافع خيانته وهو الرجل الذى ولد بين الحسب والنسب والثروة . فأجاب بتبرير محير ، فى قصة تاريخية مؤداها أن صوتا ناداه بأن البابا يريده .

★ أفانسى شوروخوف يعرى المخابرات السوفيتية

اسماؤه المستعارة : «**فلاديمير بيتروف**» ، و«**بروليتا رسكى**» ، و«**سڤين أليسون**». كان معروفا لزملائه أعضاء النادى الروسى فى « **كابنيرا**» بأستراليا ، رسميا ، باسم «فلاديمير بيتروف» ، ويشغل منصب السكرتير الثالث فى السفارة السوفيتية . كان روسيا نموذجيا لا تخطئه العين . كل شئ صحيح مثال الرجل الروسى الذى يطرب لأغانى الفجر الحزينة .

وكان يجد متعة خاصة فى كل الأشياء الإسترالية ، بما فى ذلك عشقه لكرة القدم . يحتفظ بمعلومات عميقة عن تفاصيل المباريات وأساليب لعب مختلف الفرق وظروفها . أكثر من أى مواطن استرالى . وعلى غير حال الروس فى عهد ستالين عام ١٩٥٣م . كان خفيف الظل يميل إلى الفكاهة . لا يشبه فى شئ أغلب الروس الذين اعتادوا على اعتبار الإستراليين رأسماليين برابرة . كان «بيتروف» يحبهم ، وكثيرا ما كان يعبر عن إعجابه بإستراليا .

معظم أعضاء النادى لم يعرفوا كيف يستفيدون من «بيتروف» لكن عضوا واحدا جعل كل همه أن يبدأ علاقة صداقة وثيقة مع الدبلوماسى السوفيتى . لم يكن هذا بالصدفة ، فالدكتور «**ميخائيل بيالوجوسكى**» مهاجر بولندى كان عميلا للمخابرات الإسترالية ، اشترك فى النادى الروسى قبلة الدبلوماسيين الروس ، والموظفين التجاريين ، وبعض المهاجرين ، ذوى المهام الخاصة .

كانت المخابرات الإسترالية تعلم أنها وراء سمكة كبيرة ، وعرف «بيالوجوسكى» ذلك وهو يتصدى لصيد «بيتروف» . كانت وظيفة «بيتروف» الحقيقية فى «**كابنيرا**» الوكيل المقيم للمخابرات السوفيتية فى إستراليا منذ عام ١٩٥١ ، وقد تحققت المخابرات الإسترالية من أنه رجل مخابرات سوفيتى نقى . كان عمره ٤٤ سنة واسمه المستعار «**أفانسى شوروخوف**» . خدم فى أعالى البحار أكثر من ٢٠ سنة ، فى مناصب دبلوماسية ، ما بين «**بكين**» و «**ستوكهولم**» ترافقه دائما زوجته «**إيفدوكيا**» ، التى تعمل كاتبة بالمخابرات السوفيتية . كان «بيتروف» متفوقا فى أعمال الشفرة . كان قد التحق بالأسطول البحرى السوفيتى فى العشرينات من عمره ، ثم اختير للعمل فى المخابرات السوفيتية فى قمة قدراته ليعمل فى الشفرات. تدرب على يد عتاة رجال المخابرات السوفيتية على الجاسوسية وفنونها ، وأصبح جاسوسا نادرا قادرا على أداء دوره فى غرفة الشفرة ببراعة .

وصلت سمعته إلى المخابرات الاسترالية كواحد من أعلى جواسيس المخابرات السوفيتية ، فأيقنوا أن «بيتروف» تم نقله إلى استراليا لإحياء شبكة العملاء الناجحة التى كانت هناك خلال الحرب ، وأغلب أعضائها من الشيوعيين وخلاصة صفوة المتعاطفين مع الشيوعية . بدأ العملاء بعد الحرب ينفضون بسبب نشاط الحرب الباردة التى شنها أعداء الشيوعية . والآن تريد المخابرات السوفيتية بعث شبكتها من جديد .

كانت خطة المخابرات الاسترالية تقضى بدفع «بيالوجوسكى» ليظهر بسرعة كمهاجر مؤيد للسوفييت ، ويلتحم مع بيتروف فى مناقشات سياسية ثم يجره بعيدا عن ميوله السياسية الحقيقية . ولشد ما كانت دهشة «بيالوجوسكى» حينما وجد أن آخر ما يريده «بيتروف» هو أن يسمع أى شئ فيه مناصرة للسوفييت كلما تقرب من صديقه الجديد «**فولوديا**» ـ اللقب الذى يحبه فيتروف ـ بدأ يفتح له قلبه . الواقع أن «بيتروف» كان يمر بعملية تحرر من وهم التجسس . اتخذ الخطوة الأولى فى الكشف عن تحرره لصديقه الجديد بيالوجوسكى . وقال له فى الوقت نفسه إن زوجته «**ايفدوكيا**» تحررت أيضا . المشكلة هى أن «موسكو» لا تقبل الاستقالة .

كان «بيتروف» حريصا على ألا يشير إلى وظيفته الحقيقية كرجل المخابرات السوفيتية المقيم فى استراليا . كانت مشكلته مزدوجة : **الأولى** لأنه مكلف بمهمة مستحيلة فمن العبث إعادة شبكة الجاسوسية السوفيتية فى استراليا إلى سابق عهدها طالما فى استراليا جهاز مخابرات بهذا النشاط ، ولا أمل فى أى تحسن سريع . بينما موسكو تطلب نتائج سريعة . لكن تنفيذ أوامر المخابرات السوفيتية وإعادة بناء شبكة ناجحة قد يتطلب عشرات السنين . **والثانية** الأكثر شؤما هى أن «**لافنتيرى بيريا**» أعدم عام ١٩٥٣ بعد محاولة الاستيلاء على السلطة فى أعقاب وفاة ستالين ، وبدأ التخلص من أعوان «بيريا» فى الرتب العليا بالمخابرات السوفيتية ، وعرف «بيتروف» أن رجال المخابرات السوفيتية ذوى الفعالية فى جميع أنحاء العالم طلب منهم العودة إلى «موسكو» حيث تلقوا رصاصة فى الرأس من الخلف . شعر «بيتروف» بخطر من نوع خاص ، ذلك أن «بيريا» كان قد لاحظ مواهبه وقدر أعماله قبل عدة سنوات ، واختصه بترقية استثنائية . والآن أصبح هذا التقدير إنذاراً بالموت ، باعتبار أن رجال التطهير قد يعتبرون «بيتروف» أحد صبية «بيريا» .

أدرك رجال المخابرات الاسترالية أن الفرصة قد حانت ، وصدرت الأوامر لـ«**بيالجوسكى**» لفتح موضوع الارتداد مع «بيتروف» . وفى أبريل ١٩٥٤م زالت من ذهن «بيتروف» آخر بقايا الاعتراض ، حينما استلم الدعوة الرهيبة للحضور إلى «موسكو» للتشاور . اضطر إلى اتخاذ قرار فى الحال . فقرر الارتداد ، على أن تتبعه زوجته فيما بعد ، فاتصل بصديقه «بيالجوسكى» ، وهرب فى أمان لكن المخابرات السوفيتية اعتقلت زوجته «**إيفدوكياش**» فى اللحظة التى اكتشفت فرار «بيتروف»

من السفارة ، قبل أن تهرب هى من المبنى . واختفى الرجل فى أحد بيوت المخابرات الإسترالية الآمنة .

هنا بدأت واحدة من أدهش صفحات تاريخ جاسوسية الحرب الباردة . قررت المخابرات السوفيتية ترحيل زوجة «بيتروف» إلى موسكو بأسرع ما يمكن . القصد من ذلك هو الاحتفاظ بها رهينة فى موسكو لثنى زوجها عن كشف الكثير من أسرار المخابرات السوفيتية إلى المخابرات الاسترالية . فقد كانت موسكو تعلم أن «بيتروف» واحد من أهم جواسيسها ، وأن لديه قدراً عظيماً من المعلومات المخزونة فى رأسه ، والتى إذا باح بها أصاب روسيا بكارثة ، وما يعرفه عن شفرة المخابرات السوفيتية وحدها يمكن أن يشكل نكبة حقيقية .

أرسلت المخابرات الروسية طائرة إلى استراليا لنقل زوجة «بيتروف» مع ثلة من حرس المخابرات السوفيتية ، لديهم أوامر بإعادتها إلى موسكو بالقوة وبأى ثمن إذا استدعت الظروف . من الناحية القانونية ، لم يكن بمقدور استراليا أن تمنع سفر زوجة «بيتروف» ، لأنها مواطنة سوفيتية . لكن المخابرات الاسترالية اهتدت إلى خطة لا تنقذها فقط ، وإنما تسدد لكمة فى عين المخابرات السوفيتية .

كان الاستراليون يعرفون أن الطائرة ستتزود أثناء عودتها بالوقود من «**داروِن**» فى استراليا ، لذا أعلنت المخابرات السوفيتية ذلك الخبر على وسائل الإعلام . وحينما هبطت الطائرة فى المطار ، وجدته مكتظا بمندوبى الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون ووكالات الأنباء والمصورين ، كلهم جاءوا لتغطية القصة التى لا تقاوم: قصة زوجة متيمة بحب زوجها الدبلوماسى السوفيتى المرتد ، ترغمها حكومة الاتحاد السوفيتى على فراق زوجها ، والعودة إلى موسكو .

تسبب نشاط الإعلاميين فى هرج ومرج وارتباك ، أوقع رجال المخابرات السوفيتية فى عدة أخطاء . أصدر موظفو الهجرة والجوازات الاستراليون أمرا للحراس السوفييت بمغادرة الطائرة مع زوجة «بيتروف» ، فأطاعوا الأمر رغم عدم وجود سبب قانونى لتنفيذ مثل هذا الأمر . بعدها طلبوا منهم الذهاب إلى مبنى المطار ، وهناك فصل رجال المخابرات الاسترالية بينهم وبين زوجة «بيتروف» ودسوا فى أذنها مستقبل تليفونى . على الطرف الآخر كان زوجها يطلب منها أن تطلب اللجوء السياسى لاستراليا لتكتسب الحماية ، فأعلنت على الملأ أمام رجال الإعلام قائلة :

« لا أريد العودة إلى موسكو » وهكذا أعطت السلطات الاسترالية مبررا قانونيا كافيا لاستخلاصها من سيطرة حراسها السوفييت .

ارتكب حراس المخابرات السوفيتية آخر وأسوأ أخطاء الواقعة الدرامية . حاولوا تنفيذ الأمر الصادر لهم في موسكو بإعادتها مهما تكن الظروف ، أحاطوا بها وحاولوا إجبارها على دخول الطائرة . تدخل الاستراليون ، وأمروا حراس المخابرات السوفيتية وطائرتهم بمغادرة البلاد فورا .

حدثت هذه الفضيحة تحت سمع الإعلاميين وبصرهم . وحملت الصحف في جميع أنحاء العالم صور السيدة «بيتروف» الغاضبة المهتاجة ، وهي تقاوم اثنين من أجلاف الحرس السوفيتي ، يرتدون ملابس لا تناسبهم مقاساتها ، وأحذية غليظة النعال . كانت كارثة علاقات عامة للمخابرات السوفيتية ، خصوصا وأن ذلك حدث في وقت تحاول فيه الحكومة السوفيتية إقناع العالم بنواياها السليمة . وإذا بصحافة العالم تعرض في صفحاتها الأولى الوجه الحقيقي للشيوعية السوفيتية وبناء عليه ثارت ثائرة زعماء المخابرات السوفيتية ، فنفت إلى معسكرات العمل في «**سيبيريا**» ستة وكلاء لهم علاقة بالكارثة ، لكن ماذا يفيد العقاب بعد وقوع النكبة ؟ .

ولما شعر «بيتروف» وزوجته بالأمان بين ظهراني الاستراليين ، سددا ضربة موجعة للمخابرات السوفيتية . كان بيتروف محتفظا بنسخ من التقارير التي أرسلها إلى موسكو منذ عام ١٩٥٢م . وقد كشفت هذه عن عملاء استراليين من الدرجة الوسطى ، أمكن اعتقالهم فورا . وقد استفاد الاستراليون أكثر من نظام شفرة المخابرات السوفيتية الذي زودهم به «بيتروف» ، واستفادت منه أيضا أيما استفادة ، كل من المخابرات الأمريكية ، والمخابرات البريطانية .

أسفر استجواب «بيتروف» عن بعض المفاجآت . منها إفشاؤه أن «جاي بورجيس» و «دونالد ماكلين» ، الدبلوماسيين البريطانيين ، الذين هربا إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥١م ، كانا في الحقيقة خائنين لبلادهما زرعتهما المخابرات السوفيتية قبل ٢٠ سنة .

قال لمستجوبيه أيضاً إن «فيلبي» كان موضع شك آنذاك ، وكانت المخابرات السوفيتية تعتبره جوادها الرابح بين الخونة البريطانيين ، وكانوا قد جندوه عام

١٩٣٤م . وكان الحلقة الأولى فى سلسلة أجبرت فيلبى على الفرار نحو الشرق .

حينما انتهت كل الاستجوابات ، ووصلت فائدته لمخابرات الغرب إلى نهايتها ، استقر «بيتروف» فى حياة مختلفة تماما ، كمواطن استرالى ، اختار لنفسه اسما جديدا هو «**سفين أليسون**» مهاجر اسكندنافى . ألف «بيتروف» وزوجته كتابا عن تجاربهم ، وافتتحا متجرا عاماً صغيراً ، أداراه حتى توفيت «إيفدوكيا» عام ١٩٩٠م، ثم لحق بها زوجها عام ١٩٩١م .

★ أناتولى جولستين عبقرى أم مجنون؟

دفع ضباط مكافحة الجاسوسية أكوام الأوراق على المكتب أمام الرائد «**أناتولى جوليتسين**» الضابط بوكالة المخابرات السوفيتية ، وقيل له : «نرجو فرز هذه التقارير، وإبلاغنا أيها استرعى انتباهك فى موسكو» .

جلس صائدو الجواسيس من بريطانيا وأمريكا وفرنسا صامتين ، بينما الرجل الذى كنيته «**تولكا**» يقرأ الأوراق . وكما فهم كل الرجال الموجودون فى الغرفة ، كان ذلك اختبارا لصبغة عباد الشمس بالغ الأهمية .

حدث ذلك فى يناير ١٩٦٢م ، قبل أسابيع قليلة من هرب «جوليتسين» إلى المخابرات الأمريكية ، من وظيفته كوكيل مخابرات مقيم فى «**هلسينكى**» بفنلندا . زعم أن لديه كمية معلومات مذهلة عن عمليات المخابرات السوفيتية فى جميع أنحاء العالم ، وقال إنه يريد أن يكافح وحده الجاسوسية ، ويقتلع جذور الخونة الذين يعملون لحساب المخابرات السوفيتية . وكعينة من معلوماته المهمة ، أخبر مستجوبيه أنه قرأ وثيقة سرية للغاية عن «الناتو» ، أثناء عمله فى موسكو قبل سنوات، لأن عملاء المخابرات السوفيتية يزودون موسكو تباعا ، بكل قرارات «**الناتو**» عالية المستوى بمجرد نسخها .

إذا كان ذلك صحيحا ، فإنه يعنى أن المخابرات السوفيتية اخترقت منظمة حلف الأطلنطى ، وأنه أصبح كتابا مفتوحا . بعض مستمعيه اعتبروا كلامه ضربا من المبالغة ، الغرض منه تفخيم نفسه ، وهذا أمر شائع بين المرتدين والهاربين اللاجئين سياسيا . يبالغون فى تقييم معلوماتهم ، وإضفاء الأهمية القصوى عليها ، ليعزز مركزه ، ويؤهل نفسه للحصول على مكافآت ومعاشات مجزية ، تدفعها وكالات مكافحة الجاسوسية للمصادر المفيدة .

لإمكان اختبار دعوى «جوليتسين» اختراق المخابرات السوفيتية لحلف «الناتو» ، تقرر أن تعرض عليه وثائق كثيرة ، ومن بينها عدد من الأوراق المزيفة بمهارة ، فإذا كانت لديه المعلومات التى ادعاها ، فإنه يستطيع تحديد الاختلاف . أدهش مشاهديه أنه عامل الاختبار كما يعامل طفل لعبته .

صاح قائلا : «هذا مستند زائف» قال ذلك بلكنته السلافية الثقيلة ، وهو ينحى جانبا وثيقة زائفة . وتمكن «جوليتسين» من فرز الوثائق خلال نصف ساعة ، مستبعدا الزائفة منها دون أدنى خطأ . ولما سئل عن كيفية إنجاز المهمة بهذه السرعة الفائقة ، قال «جوليتسين» : «الأمر فى غاية البساطة . ألم أقل لكم أنى قرأت هذه الوثائق من قبل فى موسكو؟» .

بالنجاح فى هذا الاختبار ، دخل «أناتولى جوليتسين» أسطورة الجاسوسية خلال العامين التاليين ، كشف النقاب عن كثير من وكلاء وعملاء المخابرات السوفيتية فى العالم الغربى محدثا قائمة خسائر لم يتسبب فى مثلها هارب آخر من المخابرات السوفيتية . وبمضى الوقت لم تقتصر أضراره على المخابرات السوفيتية ، بل تسبب أيضا فى إضرار لوكالات المخابرات الغربية .

لم يكن فى خلفية «جوليتسين» أى شئ يشير إلى قيامه بدور هدام بأى شكل من الأشكال ، فيما عدا دوره ضد المخابرات السوفيتية . ولد عام ١٩٢٦م لأسرة ريفية عملها الزراعة فى «أوكرانيا» . سجله يؤكد أنه من رجال المخابرات السوفيتية المخلصين : تخرج فى المدرسة العسكرية ، حصل على عضوية حركة الشباب فى الحزب الشيوعى ، والتحق بمدرسة المدفعية ، وحصل على عضوية الحزب الشيوعى، وانتقل إلى فرقة مكافحة الجاسوسية العسكرية ، ثم جند أخيرا بواسطة المخابرات السوفيتية . كان مرضيا عنه ، وإلا لما ألحقته المخابرات السوفيتية بمدرسة المخابرات العليا ، المدرسة التى تعد أصحاب المراكز العالية فى سلك الجاسوسية . وفى عام ١٩٥٣م نقل إلى «فينا» حيث توجد واحدة من أهم المحطات الخارجية . وبعد عامين عاد إلى مركز المخابرات السوفيتية فى موسكو ، ليشغل وظيفة ضابط فى إحدى المناطق الحساسة ، وهى الإدارة الأنجلو ـ أمريكية ، حيث رأى وثائق «الناتو» السرية، أثناء تعرفه على حالات اختراق مخابرات الخصوم . وفى عام ١٩٦١م نقل إلى «**هلسنكى**» حيث إحدى أهم محطات المخابرات السوفيتية .

ومع تساقط الجليد ذات مساء من أمسيات ديسمبر ، لجأ إلى سفارة الولايات المتحدة الأمريكية مع زوجته وابنته البالغة من العمر سبع سنوات ، وهناك أعلن رغبته فى اللجوء السياسى .

كان «جوليتسين» يجهل أن المخابرات الأمريكية لم تفاجأ تماما بلجوئه السياسى. قبل سبع سنوات لجأ إلى السفارة الأمريكية فى «ڤينا» ضابط مخابرات سوفيتى اسمه «**بيتر ديريابن**» وطلب منه أثناء استجوابه تحليل شخصيات كل رجال المخابرات السوفيتية الآخرين الذين يعرفهم فى «ڤينا» ، ومن منهم يحتمل ارتداده وفراره مستقبلا بنفسه أو بمجهود تبذله المخابرات الأمريكية . رشح «ديريابن» للجوء السياسى مستقبلا ضابط المخابرات السوفيتية «**جوليتسين**» ، رغم خلو سجله من أى شائبة . وقال إنه متعجرف ، يبالغ فى طموحاته ميال إلى إثارة غضب رؤسائه . وحينما كان فى موسكو قبل سنوات ، اقترح خطة لإعادة تنظيم البناء الإدارى والوظيفى للمخابرات السوفيتية بأكمله . وطبقا لهذه الخطة ، وضع نفسه فى منزلة ما قرب قمة الجهاز . وأضاف «ديريابن» أن «جوليتسين» مثير للشغب ومعروف عنه أنه مصدر خطر . وتنبأ «ديريابن» بأن طموحات «جوليتسين» سوف تنفجر فى يوم ما ، فيلجأ سياسيا إلى الجانب الآخر .

واتضح أن «ديريابن» كان على حق ، وأن «جوليتسين» رجل مخابرات متقلب، اشترك فى لعبة الجاسوسية لما فيها من إثارة ومغامرة وخداع ، ولا يهمه إذا كان يعمل للمخابرات الروسية أو الأمريكية أو البريطانية ، ما دام يلعب دوراً رئيسياً . وبفضل اشتغاله فى الشعبة الأنجلو أمريكية بوكالة المخابرات السوفيتية ، جمع «جوليتسين» معلومات غزيرة عن كثير من عملاء روسيا فى الغرب ، ومن بينهم «**هـ.ر. فيلبى**» الذى حدد أنه خائن منذ زمن طويل ، لصالح روسيا . لقد كان «جوليتسين» سبب المواجهة النهائية بين المخابرات البريطانية و «فيلبى» ، الذى أدرك أنه لن يستطيع دفع التهمة عنه ، فهرب إلى وراء الستار الحديدى .

بدأ «جوليتسين» الإطاحة بعملاء سوفييت آخرين ، منهم ثلاثة اخترقوا وكالات مكافحة الجاسوسية . من المتورطين «**جون فاسال**» ، يعمل كاتبا فى الأدميرالية البريطانية ، جندوه عام ١٩٥٣م عندما نقل إلى موسكو . اصطادوه فى عملية ما تسمى «**مصيدة عسل**» دبرتها المخابرات السوفيتية للإيقاع به متلبسا ، وهددوه

بعرض الصور التى التقطوها له أثناء «مصيدة عسل» ، على رؤسائه ، ما لم يوافق على العمل فى خدمة المخابرات السوفيتية . زود «فاسال» المخابرات السوفيتية بقدر كبير من المواد التى مرت على مكتبيه ، خاصة وأنه يعمل بشعبة المخابرات البحرية البريطانية ، ورأى تقارير هامة كثيرة .

فى عملية «مصيدة عسل» مشابهة ، أوقعت المخابرات السوفيتية بدبلوماسى كندى أيضا ، اسمه «**جون واتكنسى**» ، وافق على العمل لهم ، حينما انتقل إلى موسكو سفيرا لكندا عام ١٩٥٨م . وكان بحكم مركزه قادرا على الحصول على رسائل دبلوماسية رفيعة المستوى ، من كندا والدول الأخرى . بل إنهم استطاعوا عن طريقة كسر شفرة الدبلوماسية الغربية .

أما **الثالث** والأهم ، فهو «**جورج باكس**» ، وهو الملحق الفرنسى بحلف «الناتو» ، شيوعى سرى جندوه عام ١٩٤٦م . وقد زودهم بمواد عالية المستوى ، من قيادة حلف «الناتو» ، والحكومة الفرنسية وذكر «جوليتسين» أن «باكس» كان مجرد فرد من سلسلة خونة كبيرة تعمل فى خدمة المخابرات السوفيتية ، اخترقت كل مستويات الحكومة الفرنسية تقريبا . كانت تصريحات «جوليتسين» مزعجة إلى حد بعيد . كتب الرئيس الأمريكى «**كينيدى**» شخصيا إلى الرئيس الفرنسى «**شارل ديجول**» ، يحذره من العمليات التى تقوم بها خلية اسمها الحركى «**سافير**» ، وهى تابعة للمخابرات السوفيتية . بذلت الوكالة الفرنسية لمكافحة الجاسوسية جهودا مضنية فى ملاحقة هذه الخلية . وكانت هذه الملاحقة موضوع رواية «**ليون يوريس**» وفيلم «توباز» الذى انتجه «**الفريد هيتشكوك**» .

فى أواخر عام ١٩٦٣م جرد «جوليتسين» نفسه من كل ما يعرفه تقريبا عن اختراقات المخابرات السوفيتية فى الغرب ، ثم تحرك إلى مهمة ثانية أكثر إثارة للجدل، وتنطوى على أمور لا يملك لها معلومات ثابتة صلبة ، لكنها مثيرة للشك ، بما يكفى لإثارة فضول مضيفيه من رجال مكافحة الجاسوسية . أما هذه الأمور فهى : اختراق المخابرات السوفيتية لخدمات المخابرات الغربية .

أشاعت ملاحظات «جوليتسين» الأولى عن خونة المخابرات الغربية لصالح المخابرات السوفيتية رنينا معينا فى بريطانيا ، حيث توجد زمرة من ضباط المخابرات البريطانية يتزعمهم «بيتر رايت» و «آرثر مارتن» ، اقتنعوا وقتا طويلا بأن المخابرات

البريطانية مصابة باختراقات سوفيتية ، كما أنهم يعتقدون أن الاختراق أصاب مستوى عال جدا ، فهو إما شخص عظيم خائن ، أو عدة خونة يحتلون مناصب ممتازة ، ويشكلون خلية الخمسة ، وهم مسئولون بالتالى عن بؤس سجل المخابرات البريطانية خلال العشرين سنة الماضية خلال الحرب الباردة .

أعارت المخابرات الأمريكية «جوليتسين» للمخابرات البريطانية ، للعمل فيما أصبح بعد تفتيشا داخليا كبيراً سمى «**فلوينسى**» . ولما كان مشهورا ببخله وحبه للمال ، فقد دفعت له بريطانيا ٢٨٠٠٠ دولار شهريا مقابل العمل مستشارا لعملية «فلونيسى» التى تختص أساسا بإعادة النظر فى عمليات المخابرات البريطانية ، وتفاصيل الاختبارات التى أجريت بناء على ما كشفه اللاجئون السياسيون من المخابرات السوفيتية . وذلك فى محاولة لتحديد الرجال الذين يعملون كألغام لتدمير الوكالة البريطانية لمكافحة الجاسوسية .

كان على «جوليتسين» أن يضع فى اعتباره أمورا كثيرة . قبل أكثر من ٢٠ سنة، حذر ضابط مخابرات سوفيتى كبير لجأ إلى بريطانيا ـ اسمه «والتر كريفيتسكى» ـ من وجود خونة فى المخابرات البريطانية لصالح المخابرات السوفيتية . وعلى الرغم من أنه لم يحدد أسماءهم ، إلا أنه قدم عددا من الإشارات وعلى سبيل المثال : قال إنه سمع عن «**سكوتلندى كريم المولد**» ، كان يعمل فى وزارة الخارجية ، وعن «شخصية حكومية» كان يعمل صحفيا فى أسبانيا . لو أن المسئولين بذلوا جهودا متوسطة فى تتبع هذه الإشارات ، لاهتدوا إلى «**دونالد ماكلين**» و «**هـ.ر. فيلبى**» ، لكن المسئولين لم يبذلوا أدنى جهد . وبالمثل عاملوا موضوع «إيجور جوزينكو» بطريقة غامضة وإهمال غير مبرر . وتجاهلت المخابرات البريطانية تحذيره من وجود خائن بين صفوفها يعمل لصالح المخابرات السوفيتية . وعلاوة على ذلك الغموض الذى أحاط بإخلاء ذمة عملاء للسوفييت مشهورين ، مثل «**كلاوس فوشز**» و «**ألان فان ماى**» ، رغم ثبوت عضويتهما فى الحزب الشيوعى . والمعروف أن اختراق الخيانة لصفوف المخابرات البريطانية شلت حركتها خلال السبعينات . وقد اعترف «**أنتونى بلانت**» ، وأعلن اسمى عميلين . لكن أحدا لم يهتدِ إلى السمكة الكبيرة . وكان «رايت» مقتنعا بأن مدير المخابرات البريطانية «**روجَر هوليس**» هو ذاته الخائن الأكبر ، لكن عملية «فلوينس» برأته .

انتهت مهمة «جوليتسين» فى بريطانيا بنشر إحدى الصحف تقريرا عن عملية «فلوينسى» . وحينما عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية مر تحت إشراف رئيس مكافحة الجاسوسية المعادية ، الرجل الأسطورى «**جيمس انجليتون**» .. زعم جوليتسين للمخابرات الأمريكية ، وأصر بعناد ، على وجود اختراق روسى فى المخابرات الأمريكية على مستوى عالٍ . وقال إن الخائن «الرفيع» يحمل اسما مستعارا هو «ساشا» ، وأنه يعزز أعمال خونة آخرين ويدعمهم .

شرع «انجليتون» فى تفكيك المخابرات الأمريكية أجزاء بحثا عن الخائن الأعظم، تحثه ملاحظات «جوليتسين» اللاذعة ، التى كانت توحى بأنه لا يمكن الوثوق بأى شخص فى الشعبة الروسية بالوكالة الأمريكية ، خصوصا الذين يتحدثون باللغة الروسية .. وبناء عليه شلت عمليات المخابرات الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتى ، بينما أفسد الشك أعمال أكثر من ١٠٠ ضابط استخبارات أمريكى . بلغت هذه المطاردة مداها عام ١٩٦٤م ، حينما سجن ضابط مخابرات سوفيتية آخر بدون وجه قانونى . لجأ سياسيا إلى أمريكا . اسمه «**يورى نوسينكو**» ، أمضى فى السجن ثلاث سنوات ، لأن «جوليتسين» أخبر «أنجليتون» أن «نوسينكو» مزروع من قبل المخابرات السوفيتية لإثارة الفتنة والفوضى . وقال «نوسينكو» لمستجوبيه إنه لا وجود لخائن فى المخابرات الأمريكية ، وإنه ـ على عكس ما قال «جوليتسين» : ليس للمخابرات السوفيتية مصلحة فى عملية قيام «**لى هارفى أوزوالد**» بقتل الرئيس كينيدى، وليس صحيحا أنها أعدته للمهمة الدموية حينما كان يعيش فى روسيا .

انتهى نفوذ «جوليتسين» عام ١٩٧٤م ، حينما فضل «أنجليتون» انكشاف دوره فى عملية تجسس داخلية للمخابرات الأمريكية غير قانونية . ظل لجوليتسين أنصار فى المخابرات الأمريكية والبريطانية ، على استعداد لمساعدته فى إنتاج «**التحفة الفنية**» ، وهو كتاب مخطوط ، من مليون كلمة، يغير رأى الغرب فى العالم ، ويقلبه رأسا على عقب . حاول الاستعانة بكتاب محترفين لتحويل ما كتبه إلى كتاب صالح للقراءة ، لكنهم جميعا رفضوا . فما كان من أنصاره فى المخابرات الأمريكية والبريطانية إلا أن اجتمعوا ولخصوا المخطوط فى كتاب عنوانه «**أكاذيب جديدة للمسنين**» . ونشروه لكنه اختفى دون أن يخلف له أثرا .

تلاشى «جوليتسين» من مسرح المخابرات . توفى أو اعتزل معظم أنصاره

وأصدقائه على جانبى الأطلسى ، بما فيهم «أنجليتون» . وفى عام ١٩٩٠م كان «جوليتسين» يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية تحت اسم مستعار ، وحينئذ ادعى أن انهيار الشيوعية فى أوروبا الشرقية كان ـ فى الحقيقة ـ جزءا من عملية خداع سوفيتية طويلة المدى . وفيما عدا البقية الباقية من أنصاره . لم يجد «جوليتسين» من يعير رأيه أدنى اهتمام .

★ فلاديمير ا. فيتروف مريب قال خذونى

لم تكن جريمة القتل شائعة الحدوث فى موسكو خلال فبراير ١٩٨٢م ، لذا أدرك رجال الشرطة أنهم يواجهون حالة غير عادية ، حينما وصلوا إلى الحديقة العامة وشاهدوا جثة الرجل مطعونة حتى الموت ، والمرأة مصابة بجروح بالغة ، وتأكدوا من أن الحالة أكثر غرابة حينما عرفوا أن القتيل ضابط كبير بالمخابرات السوفيتية وأن المرأة المصابة سكرتيرة بها .

وبمعنى آخر : كانت حالة مشحونة بتعقيدات سياسية . واستطاعت الشرطة بالكاد فهم هذه التعقيدات ، حينما حضر بعد ساعة من وصول الشرطة إلى مسرح الجريمة ، حشد من رجال المخابرات السوفيتية ، ومن بينهم كولونيل اسمه «**فلاديمير فيتروف**» ، يبلغ من العمر ٥٤ عاما . أشارت السكرتيرة المصابة إليه ، وأعلنت أنه القاتل الذى طعن القتيل حتى الموت وحاول قتلها . قبض رجال الشرطة عليه ، وعثروا على سكين ملوثة بالدماء فى جيبه .

كانت إحدى جرائم الانفعال الإنسانى التى يبتلى بها المجتمع الإنسانى بين حين وآخر ، ولم يسلم منها مجتمع المخابرات السوفيتية ، الذى حاول بشق الأنفس التعتيم على أخبارها . أدلى «فيتروف» باعتراف مفصل ، ذكر فيه أن علاقة صداقة كانت تربطة بسكرتيرة المخابرات السوفيتية . وفى ذات ليلة أوقف سيارته فى الحديقة العامة ، وكانت السكرتيرة معه ، وفجأة جاء ضابط مخابرات سوفيتية آخر كان يتمشى فى الحديقة ، وطرق على نافذة السيارة . كان قد عرف رفاقه فى العمل ، وأراد أن يلقى عليهما التحية . لكن «فيتروف» أصيب بالذعر لسبب مجهول ، ربما افترض أن رجل المخابرات السوفيتية على وشك اعتقاله . فاستل السكين ، وأوسعه طعنا حتى الموت . ولما حاولت السكرتيرة الهرب من مسرح الجريمة ، تعقبها «فيتروف» وكال لها الطعنات ، ثم ترك المكان معتقدا أنها توفيت ، لكنه

عاد بعد ساعة للتأكد من وفاة الضحيتين .

ارتابت عقول رجال المخابرات السوفيتية المضادة للاستخبار الأجنبى ، فى هذا المشهد الدرامى . لماذا انزعج «فيتروف» عندما رأى ضابط مخابرات آخر؟ . ما حقيقة الأمر بينه وبين هذا الضابط ذى الرتبة العالية؟ تحت أى ضغط رهيب ارتكب جريمته؟ .

لم تصل المخابرات الروسية إلى إجابات فورية ، فقررت أن تضع «فيتروف» تحت مراقبة شديدة . وجهت إليه تهمة القتل ، وحكم عليه بالسجن ١٢ عاماً . ووضع تحت رقابة مشددة من المخابرات السوفيتية على أعماله وتحركاته ، مع مراقبة ما يرسله من خطابات وما يصل إليه من بريد . وأخيرا وجدوا مفتاحا لسر الجريمة . كتب «فيتروف» فى رسالة لزوجته إن جريمة القتل أجبرته على التخلى عن «شئ كبير» .

بدأت المخابرات السوفيتية تضيق الخناق على «فيتروف» . لا يعرف أحد ما إذا كان قد عومل بأدوات التعذيب الجهنمية أم لا ، ولكن النتيجة كانت وثيقة كتبها بخط يده ، وجعل عنوانها «**اعتراف خائن**» . كانت الوثيقة بمثابة صدمة محزنة للمخابرات الروسية ، لأن فيتروف صرح فيها بأنه خان بلاده لحساب المخابرات الفرنسية عدة سنوات . والأسوأ من ذلك أنه أفشى أعظم أسرار وكالة الاستخبارات السوفيتية .

أول صدمة هى أنهم كانوا يعتبرون «فيتروف» من أكثر ضباط المخابرات السوفيتية ولاء والتزاما وإنجازا .. فكيف به يخون وطنه؟ كان مهندسا نابغة ، جندوه للمخابرات بعد تخرجه مباشرة ، وكلفوه بمهمة تأسيس أكثر وحدات المخابرات السوفيتية سرية ، وهى المعروفة باسم «**خط إكس**» ، ومهمتها لا تقل عن إنقاذ الاتحاد السوفيتى . فى عام ١٩٦٤م حينما تم إنشاء «خط إكس» ،كانت المخابرات السوفيتية ، واللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى ، يعرفان أنهما يخسران الحرب الباردة لصالح الغرب . والمسألة مسألة التكنولوجيا . كان النظام السوفيتى يتأخر أكثر وأكثر وراء الغرب فى كل مجالات التكنولوجيا والعلوم ، خاصة التكنولوجيا العسكرية . أبلغ علماء الكمبيوتر السوفييت اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى أن تكنولوجيا السوفييت وراء الولايات المتحدة الأمريكية بما لا يقل عن ٣٠ سنة ، وأن الفجوة

تتسع بمرور اللحظات . والنتيجة الطبيعية لذلك هى أن يتأخر الاتحاد السوفيتى ، وتفوز التكنولوجيا الغربية باليد العليا ، ويتحول الاتحاد السوفيتى إلى نمر من ورق .

كان الاقتصاد السوفيتى ضعيفا ، والقاعدة الصناعية العسكرية أضعف ، ولا أمل للسوفييت فى اللحاق بمسيرة الغرب ، فاتجهوا إلى إعادة صياغة المخابرات السوفيتية، وتوجيهها نحو سرقة كل قطعة تكنولوجيا غربية تقع تحت أيديهم . وكان على «خط إكس» لكى يقوم بهذه العملية الجديدة ، أن يجند جيشا جديدا كاملاً من الجواسيس المهندسين ، والفنيين ، والعلماء ، الذين يعرفون صيدهم وكيف يحصلون عليه .

نجح «خط إكس» ببراعة . وخلال عام واحد سرقت المخابرات السوفيتية أكثر من ٥٠٠٠ عينة صناعية من الاتحاد السوفيتى ودول غربية أخرى . اندهش الخبراء العسكريون الغربيون للسرعة التى حصل بها السوفييت على أكثر التكنولوجيات تقدما وأدخلوها فى تصميماتهم . واستطاع «خط إكس» بالتعاون مع المخابرات السوفيتية شراء ما تعذر عليهم سرقته . وعرفت وكالات المخابرات الغربية تدريجيا عمليات نقل تكنولوجيا ضخمة إلى الكتلة الشرقية بمختلف الطرق ، بما فيها رشوة المهندسين والعلماء وموظفى الجمارك ، وشراء خرائط التصميمات .

ورغم هذه النجاحات ، كان «لفيتروف» شكوكه وآراؤه الخاصة . كان يفكر فى المواطن السوفيتى العادى . وكان يتمنى دائما أن يرفع التقدم التكنولوجى مستوى معيشة شعب روسيا . لكنه رأى محطات الفضاء السوفيتية تطوف حول الأرض ، والآلة الحربية السوفيتية تنمو شيئا فشيئا ، بينما الشعب لا يحظى بنصيب من التقدم . كان الاتحاد السوفيتى دائم القلق على قوته العسكرية ، يصب أكثر ما يمكن من دخله فى اقتناء السلاح ، وبينما الصواريخ السوفيتية الجبارة تتعاظم أمام الكرملين فى مايو كل عيد عمال حين يقام المهرجان الضخم والعرض العسكرى الكبير ، كان أفراد الشعب الروسى يقفون صفوفا طويلة فى الطرقات ، فى عرض شعبى آخر ، لكن لشراء رغيف الخبز أو كسرة منه .

احتفظ «فيتروف» لنفسه بهذه الشكوك . وفى عام ١٩٦٥م انتدب فى مهمة إلى باريس ليفتش على عمليات «خط إكس» فى غرب أوروبا . بدأ يلاحظ الفرق البين الواضح بين المواطن الفرنسى العادى ونظيره الروسى . حتى أفقر الأسر

الفرنسية كانت تعيش عيشة أرقى وأوفر نعمة . نمت شكوكه ، وعلمت بها المخابرات الفرنسية من خلال لقاء غير متوقع لكنه أثبت أنه خطير .

تورط «فيتروف» ذات يوم فى حادث سيارة خطير . لم يصب بسوء ، لكن سيارة الرجل الفرنسى التى صدمها أصبحت حطاما . وبشهامة نادرة عرض الرجل الفرنسى أن يدفع كل تكاليف الأضرار ، ورتب أمر الإصلاحات . ونشأت صداقة حميمة بينه وبين «فيتروف» الشاكر ، وبدأ الرجل الروسى يتحدث عن شكوكه بصراحة .

ما لم يكن يعرفه «فيتروف» ، هو أن الرجل الفرنسى الذى زعم أنه رجل أعمال، كان عميلا لوكالة المخابرات الفرنسية المضادة للجاسوسية . عرفت هذه الوكالة أن «فيتروف» لم يكن مجرد دبلوماسى بسيط كما زعم ، لذا تساءلت عن كيفية استغلال عدم رضاه عن الأوضاع فى بلاده ، وقررت أن تعامله بحذر شديد، لأن تحرياتهم عنه أقنعتهم أنه ضابط مخابرات سوفيتى على درجة عالية ، يحتمل ضلوعه فى عمليات سرقة تكنولوجيا . وعلى حد علم المخابرات الفرنسية ، كانت فرنسا آنذاك تنزف أسرار أكثر تكنولوجيتها حيوية وأهمية ، لذا رأت أن تجنيد «فيتروف» يوقف هذا النزيف .

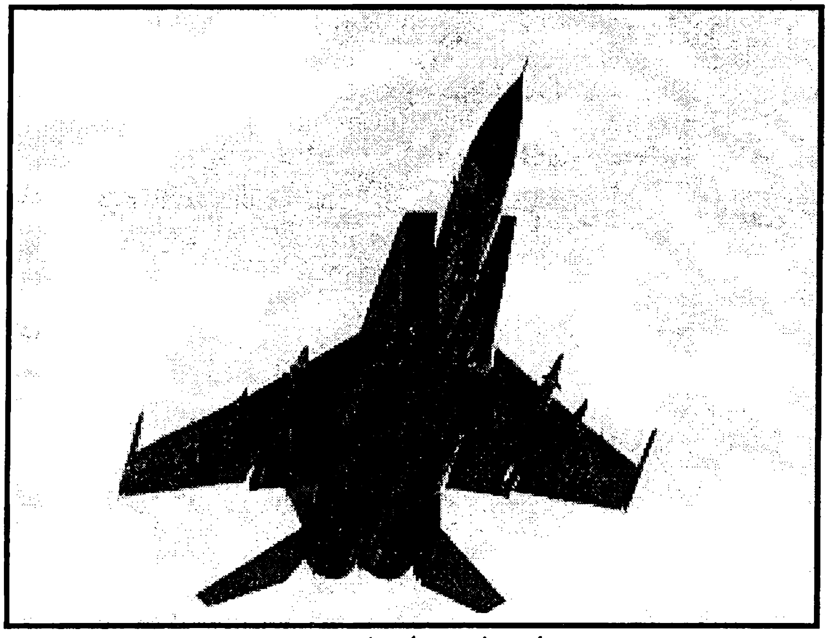
فى عام ١٩٧٠م انتهت جولته فى فرنسا ، فاستدعوه إلى موسكو للعمل فى مقر قيادة المخابرات السوفيتية . ظل صديقه رجل الأعمال الفرنسى على اتصال به ، لكنه لم يحاول تجنيده مباشرة . واكتفى ـ فقط ـ بجعله على يقين من أن له صديقاً فى فرنسا . يستطيع فى أى لحظة أن يخدمه . وكوفئت المخابرات السوفيتية على صبرها عام ١٩٨٠م ، حينما كتب «فيتروف» عبارة حذرة فى خطاب إلى صديقه الفرنسى ، يطلب منه مقابلة عاجلة فى «موسكو» .

وأخيرا تحرك «فيتروف» . حدث اللقاء فى موسكو ، وتأكدت شكوك المخابرات الفرنسية . عرض «فيتروف» أن يخدم كجاسوس خائن لبلاده فى المخابرات السوفيتية . فى لقاءات متتابعة سلم «فيتروف» تحت أسوار الكرملين نسخ وثائق سرية جداً ، كلها مختومة بعبارة **«ممنوع التصوير»** .

تكشف الوثائق عن كل ما يعرف عن عمليات السرقات التكنولوجية التى قامت بها المخابرات السوفيتية . حلل «فيتروف» أسلوبه فى التقاط صور الوثائق بأجهزة

شعبة «جاسوسية التكنولوجيا» ، والوقت الذى يستغرقه فى التصوير . فخشى أن يتعرض للشك ، وزودته المخابرات الفرنسية بجهاز تصوير خاص فائق السرعة ، يمكنه من تصوير خزينة ملفات وثائق بأكملها فى زمن وجيز .

كان «فيتروف» يسلم أفلام الصور لضابط اتصال يعمل ملحقا عسكريا فى السفارة الفرنسية . وكان الحلفاء الغربيون يشتركون فى الكنوز ، وكانت تعود عليهم بفائدتين : فقد كشفوا الأهداف التكنولوجية التى تسعى إليها موسكو وتهتم بمعرفتها ، وفى الوقت نفسه اكتشفوا مواطن الضعف التكنولوجى فى العسكرية السوفيتية . وعلاوة على ذلك تعرفوا على شخصية حوالى ٣٠٠ عميل تورطوا فى سرقات تكنولوجية ، وتوصلوا إلى أكثر من ١٠٠ عميل فى الغرب كانوا يساعدون فى إتمام العمليات .



طائرة ميج ـ ٢٥ أعلن ڤيتروف أنها تكنولوچيا مسروقة من الغرب

كانت كارثة من الدرجة الأولى بالنسبة للمخابرات السوفيتية . وكان يمكن أن تكون الكارثة أعظم لو لم يرتكب «فيتروف» جريمة القتل فى الحديقة العامة عام ١٩٨٢م بسبب توتر حياته المزدوجة . وبمجرد أن علمت فرنسا أن «فيتروف» قد اعتقل ، قررت ـ مع الحلفاء الغربيين ـ شد البساط من تحت أقدام «خط إكس» ، فطرد من فرنسا ٤٧ ضابطا من رجال المخابرات السوفيتية يعملون تحت المظلة

الدبلوماسية ، و١٥٠ جاسوسا من دول أخرى . وأسرعت المخابرات السوفيتية بسحب ٢٠٠ آخرين قبل أن يتم اعتقالهم أو طردهم ، واعتقل الحلفاء الغربيون عددا من العملاء .

وهكذا انهارت عمليات «خط إكس» ، تاركا الاتحاد السوفيتى أكثر ما يكون عرضة للعطب ، فى الوقت الذى بدأ البناء العسكرى الأمريكى الضخم يزداد نموا أثناء إدارة «رونالد ريجن» . واضطر السوفييت إلى الاعتماد على مصادرهم الخاصة مؤقتا ، دون تقدم يذكر ، بل أدى التخبط إلى انهيار الاقتصاد السوفيتى ، وكان ذلك من أهم الأسباب الرئيسية لانهيار الاتحاد السوفيتى نفسه بعد عدة سنوات .

أما بالنسبة «لڤيتروف» ، فيمكن تخيل ضراوة غضب المخابرات السوفيتية عليه . فمنذ «**أوليج بنكوفسكى**» لم يسبب جاسوس خائن لصالح الغرب مثل هذا الضرر الشنيع . رأت المخابرات السوفيتية تقديمه للمحاكمة . لكنه أعلن بصراحة أنه سيجعل من المحاكمة منبرا للحديث عن فشل زعامة الاتحاد السوفيتى، واتهام المخابرات السوفيتية بالفساد والعربدة والمحاباة . ورفض أن يشترك فى محاكمة مسرحية يردد فيها النص الذى يملى عليه . وصمم على أن يضيف إلى اعترافه العبارة التالية :

«أسفى الوحيد هو أنى لم أستطع أن أتسبب فى أضرار أكثر للاتحاد السوفيتى ، وتقديم خدمات أكثر لفرنسا» .

ولما يئست المخابرات السوفيتية ، قررت إخراج الرجل المثير الذى يحمل اسما حركيا هو «**فيرويل**» من زنزانته ذات صباح من ربيع عام ١٩٨٣م . وإعدامه رميا بالرصاص دون محاكمة.

★ أوليج بنكوفسكى جندى للسلام !!؟

له أربع أسماء حركية : أليكس ، وتشوك ، وهيرو ، ويوجا . تذكر بعض المصادر* أن حلقة بارزة من حلقات التجسس فى الحرب الباردة ، بدأت ليلة ١٢ أغسطس ١٩٦٠م على أحد كبارى موسكو ، حينما واجه شخص ممتلئ ، بادى القوة ، ربع القوام ، أحمر الشعر ، سائحين أمريكيين ، ودس فى أيديهما مظروفين. طلب منهما توصيلهما إلى وكالة المخابرات الأمريكية ، ثم ابتلعه الظلام .

*** ص ٢٣ – الجواسيس – تأليف** : « **إرنست فولكمان** » .

ساور السائحين الشك فيما حدث ، لأنهما تلقيا تحذيراً بأن المخابرات الروسية تنصب شراكا من هذا النوع للايقاع بالسائحين . تدس فى أيديهم موادا تدينهم بالتجسس ، ثم تقتلهم . بعد مناقشة الأمر فيما بينهما ، قررا تسليم المظروفين مغلقين إلى السفارة الأمريكية .

وفى رواية أخرى * ، أنه فى ذات يوم من أيام سبتمبر ١٩٦١م ـ السنة التى هرب فيها «فيلبى» ـ كان رجل روسى أنيق يتجول فى أحد شوارع موسكو المشجرة، ثم توقف بجوار صندوق رمل حيث كان بعض الأطفال يلعبون ، ابتسم ، وقدم لأحدهم علبة حلوى . ولما ذهب الرجل ، عاد الطفل بعلبة الحلوى إلى أمه . كانت الأم زوجة دبلوماسى بريطانى فى سفارة بريطانيا بموسكو . احتوت العلبة على أربعة أفلام تصوير لوثائق معلومات روسية بالغة السرية .

لا يهم أى الروايتين أصح . المهم هو أن الدبلوماسى الذى فتح المظروفين فى السفارة ، عرف فى الحال أن المرسل يتطلع إلى شئ أبعد ما يكون عن الدبلوماسية. وجد رسالة بإمضاء الكولونيل «**أوليج بنكوفسكى**» . يعرض فيها أن يتجسس لأمريكا . وفى الرسالة بعض مواد استخبارات عسكرية . ويحتوى المظروف الثانى على تعليمات متقنة عن الكيفية التى تستطيع بها محطة المخابرات الأمريكية الاتصال به فى موسكو .

قررت محطة المخابرات الأمريكية فى السفارة أن الرسالتين محاولة لزرع عميل مزيف فى وكالة المخابرات الأمريكية . وباستقصاء تاريخه الشخصى ، اتضح أنه ولد عام ١٩١٩م فى القوقاز . أبوه مهندس مناجم . وأنه التحق بالجيش الأحمر عام ١٩٣٩م ، ولما كان عضوا فى الحزب الشيوعى ذا ملف نظيف ، فقد رقى إلى وظيفة مسئول حزبى . اشترك فى حرب روسيا ضد فنلندا عام ١٩٤٠م فى سلاح المدفعية ، ثم خدم فى معارك أخرى إلى أن أصيب بجرح بالغ فى يونيه ١٩٤٤م . وبعد عامين اختير للعمل فى المخابرات العسكرية الروسية . باعتباره واحداً من ألمع الضباط . وفى عام ١٩٥٥م تقلد منصب رئيس المخابرات السوفيتية العسكرية المقيم فى «أنقرة» تحت ستار وظيفة الملحق العسكرى الروسى .

من الصعب تصديق أن شخصا هذا ماضيه ، وذاك منصبه ، يمكن أن يتجسس

*** Timespan Spies - by : Tim Heaiy . Page 45 .**

على بلاده لصالح المخابرات الأمريكية . لهذا عاملته المخابرات الأمريكية بحذر شديد، لكن كل الشكوك زالت حينما بدأ «بنكوفسكى» فى ضخ سيل من المعلومات الهامة ، ذاكرا أنه يريد أن يصبح «جنديا للسلام» . لم يكتف بتصوير أكثر الوثائق سرية ، وإنما كان يضيف معلوماته الوثيقة الأكيدة عن التكنولوجية العسكرية السوفيتية ، وزود المخابرات الأمريكية بأدق المعلومات عن نظم المخابرات الحربية السوفيتية ، وأرشدها عن مئات العلماء السوفييت فى جميع أنحاء العالم .

كانت معلومات «بنكوفسكى» تغطى ميادين واسعة ، فاشتركت المخابرات الأمريكية مع المخابرات البريطانية فى التعامل معه ، وأصبح بذلك جاسوسا للغرب ، ضابط الاتصال الرئيسى به رجل أعمال إنجليزى يسمى «جريفيل واين» ، تضطره أعماله أحيانا الذهاب إلى موسكو . ومن خلاله زودت المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية بنكوفسكى بالمال ، وآلة تصوير مينوكس دقيقة ، وجهاز استقبال لاسلكى عالى الكفاءة ، فاستطاع فى ١٨ شهرا أن يزودهم عن طريق «واين» بحوالى ٥٠٠٠ فيلم لمواقع عسكرية ووثائق هامة .

وصف «**موريس أولدفيلد**» ـ رئيس محطة المخابرات البريطانية فى واشنطن ـ بنكوفسكى بأنه «استجابة للدعوات» ، لأن ظهوره تم فى أحرج لحظات مخابرات الغرب ، إذ كانت تصادف صعوبات جمة متزايدة فى تتبع مدى نمو القوى العسكرية السوفيتية ، وخاصة ما يتعلق ببرامج الصواريخ السوفيتية عابرة القارات .

كان الرئيس السوفيتى «**نكيتا خروشوف**» قد أعلن أن صواريخه تستطيع إصابة دبابة فى الفضاء ، مما يمثل فجوة كبيرة بين القوتين الشرقية والغربية ، وهذا ساعد على انتخاب «جون كينيدى» فى حملة الدعاية لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٦٠م .


أوليج بنكوفسكى أثناء المحاكمة

أصيب مستخلصو المعلومات من «بنكوفسكى» بصدمة ، حينما علموا من تقاريره أن «**فجوة الصواريخ**» لم تكن سوى فرية . أكد ذلك حينما زار «**لندن**» أوائل عام ١٩٦١م رئيسا لوفد تجارى سوفيتى ، لم يكن

فى حقيقته سوى مجموعة من رجال المخابرات العسكرية السوفيتية ، ذهبوا لجمع المعلومات عن الصناعة والتكنولوجيا البريطانية . استمرت الزيارة ستة أيام ، أرهق الإنجليز فيها الوفد السوفيتى طوال الوقت فى برنامج مكثف ، وكان «بنكوفسكى» يتسلل كل مساء من الوفد ، ويلتقى فى جناح فندق برجال مخابرات إنجليز وأمريكيين ، ويمضى الساعات فى إطلاق العنان للسانه ، عن أكثر أسرار موسكو العسكرية أهمية .

استبعد المتعاملون معه فكرة أن يكون مدفوعا كعميل مزروع فى جسم المخابرات الأمريكية والبريطانية ، لأن العميل المزروع لا يمكن أن يتقدم بهذا القدر ولا نوع المعلومات الدقيقة الحيوية . بالبحث عن خلفيته ، اتضح أن أباه توفى عام ١٩١٩م أثناء الحرب الأهلية الروسية ، لكن أمه أخبرته بأنه توفى بحمى التيفوس عام ١٩٢٠م . وقد خرجت المخابرات من ذلك بأحد أمرين : إما أن يكون أبوه معارضا للشيوعية وهذا يضعف من ولائه للشيوعية ، وإما أن «بنكوفسكى» أخفى ظروف وفاة أبيه لأسباب أكثر خطورة . ومن سوء حظه أن اشتبهت المخابرات السوفيتية فى تحركاته بلندن ، فقلبت ملفه ، وأعادت النظر فى خلفيته ، وتوصلت إلى نفس النتائج ، فساورتها فيه الشكوك ، فجمدت عمله . وألغت نقله إلى الهند ، وأصبح معرضا لمصير خطير ، ومن فرط كراهيته للنظام السوفيتى ، أخبر الحلفاء الغربيين بأنه أصبح مقتنعا بأن حكومة السوفييت عازمة على تدبير حرب عدوانية مستقبلا ، عندما تشعر بأنها مستعدة عسكريا ، لتواجه الغرب فى معركة فاصلة ، تقرر ما إذا كانت الشيوعية هى التى تحكم العالم أم الرأسمالية .

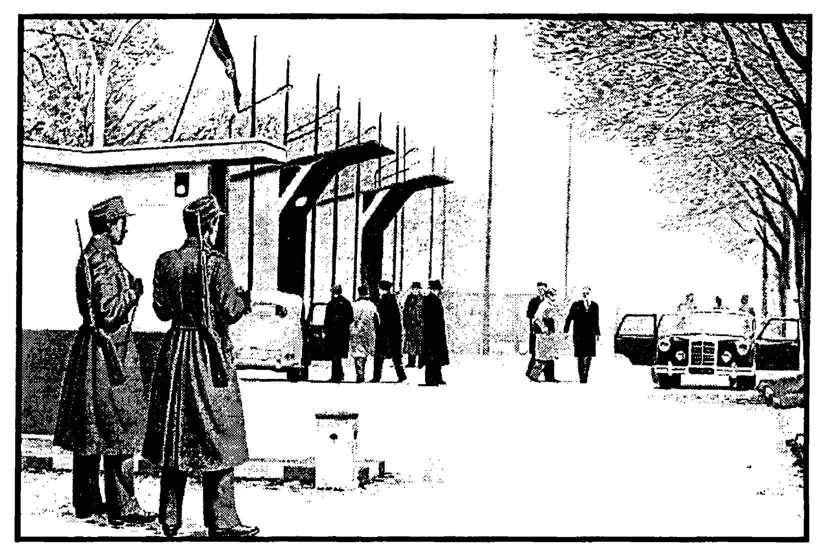
كان «بنكوفسكى» يؤمن برؤياه هذه ، ويدلى بها فى حماس غريب ، واثقا من دوره فى إنقاذ العالم ، وكان مستمعوه يستشفون فى حديثه جنون العظمة .. خصوصاً عندما طلب مقابلة الملكة «إليزابيث» ، ورفض طلبه مع السماح له بمقابلة «**ديك وايت**» رئيس المخابرات البريطانية زمنا قصيرا . وطلب مقابلة «الرئيس كينيدى» وجها لوجه ، ورفض طلبه بحجة أن جدول الرئيس لا يتسع لتحقيق مطلبه . وترضية له رتبت له المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية تفصيل زى كولونيل فى الجيش الأمريكى ، وآخر فى الجيش البريطانى ، والتقطت له عدة صور مع معامليه من رجال المخابرات الأمريكية والبريطانية . ووقع «بنكوفسكى» عقدا مع المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية ينص على موافقته على أن يصبح «جنديا للعالم الحر» .

كان «بنكوفسكى» يقدم كل هذه الخدمات مقابل مكافأة زهيدة ٨٢٠٠٠ دولار . لكن معلوماته الثمينة خلقت مشكلة عملية . كانت رحلاته الخارجية محدودة ، فكان لابد من إيجاد وسائل للحصول على معلوماته فى موسكو حيث يعيش ويعمل . من بين رجال المخابرات البريطانية ورجال المخابرات الأمريكية فى موسكو تحت ستار العمل الدبلوماسى رجل اسمه «**رودريك شيشولم**» ، له زوجة اسمها «جانيت» تعمل سكرتيرة للمخابرات البريطانية ، تعيش معه فى موسكو . كانت «جانيت» تأخذ طفليها الصغيرين إلى حديقة عامة يوما كل أسبوع . وفى وقت معين ، يتقدم «بنكوفسكى» منها ، يطرى على جمال طفليها ، ويقدم لهما حلوى من علبة ، فتأخذ «جانيت» الحلوى ، التى هى فى الحقيقة «ميكروفيلم» . وفى مناسبات أخرى ، يتبادل «بنكوفسكى» و «جانيت» الرسائل ، فى بقعة ساكنة وراء مبرد فى الدور الأول لمبنى سكنى قريب . وفى الوقت نفسه كان «**جريفيل واين**» ـ رجل الأعمال السابق الإشارة إليه ـ يقوم بعمل صندوق البريد كلما زار موسكو .

حصلت المخابرات الأنجلو ـ أمريكية على منجم ذهب معلومات عن حالة قوات الصواريخ السوفيتية . وصلت المعلومات فى وقت عصيب فى غفلة من «بنكوفسكى» ومعامليه ، بأن «**خروتشوف**» قرر إقامة قواعد صاروخية فى «كوبا» ، بدعوى الدفاع عن المنشآت العسكرية الكوبية ، واللواء الروسى المرابط فى الجزيرة . وانهارت القصة حينما قورن الواقع بالمعلومات التى قدمها «بنكوفسكى» عن المنشآت الفريدة ، ونماذج تشكيلات صواريخ «**إس. إس ـ ٤**» ، الصواريخ الذرية السوفيتية متوسطة المدى . لم تترك المعلومات المستقاة من رجلهم فى موسكو أى شك فى عقول المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية فى أن المنشآت فى كوبا ، كانت لأغراض هجومية بصواريخ تحمل رؤوسا ذرية .

كانت هذه وحدها الفائدة الأولى لاستخبارات «بنكوفسكى» ، فضلا عن أنه أخبر معامليه عن مقدار الوقت اللازم من عملية الإنشاء حتى نشر صواريخ «**إس . إس ـ ٤**» ، وبالتالى مقدار الوقت اللازم لإزالتها وفوق كل ذلك ، زود «بنكوفسكى» الرئيس كينيدى بالورقة الرابحة فى لعبة الخداع الدولى ، التى أصبحت أزمة صواريخ كوبا . ولما علم «كينيدى» بأن فرية التفوق الصاروخى مجرد خدعة ، عرف أنه يستطيع دفع السوفييت إلى حافة الحرب النووية ، وهو واثق أنهم

سيتراجعون . لم يكن السوفييت فى حالة لياقة عسكرية لتحدى الولايات المتحدة فى حرب نووية . كانت أزمة الصواريخ على قدم وساق ، بينما انتهى عمل «بنكوفسكى» كعميل خائن لبلاده . وقبيل نهاية صيف عام ١٩٦٢م علم أن المخابرات السوفيتية تجد فى أثره للإيقاع به . انقطع دخوله إلى مكتبة المخابرات السوفيتية فجأة . حيث كان يتردد لالتقاط صور الوثائق ، ولاحظ خلال اتصاله بالسيدة «جانيت» ذات مرة أن رجالا فى سيارة يراقبونه . وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢م، حينما بلغت أزمة صواريخ كوبا القمة ، تم اعتقاله .فى الوقت الذى كان يدبر عملية هروبه إلى الغرب لينجو بجلده .



استبدال جريفيل واين بجوردون لونسديل على بوابة برلين

كيف ضبطته وكالة المخابرات السوفيتية؟ رغم أن المخابرات الأمريكية والبريطانية اتخذت احتياطات فوق العادة لحمايته . لم يكن يعرفه سوى عدد قليل من رجال مخابرات الغرب على جانبى الأطلسى ، علاوة على عدد أكثر بقليل يطلعون على المعلومات التى يستخلصها . وقد شكل اعتقال مصدر ثمين مثله أسوأ كابوس يحيق بعميل للمخابرات الأنجلو ـ أمريكية على مستوى رفيع . واتضح أن القبض على «بنكوفسكى» تم من خلال جهود نخبة من رجال الاستخبارات المضادة ، ورقيب فى الجيش الأمريكى ، وخطأ فاحش ارتكبته المخابرات البريطانية .

فى أوائل عام ١٩٦١م علمت المخابرات السوفيتية أن أسرارا عسكرية سوفيتية على جانب كبير من الأهمية فى طريقها إلى الغرب . فجندوا رقيبا أمريكيا اسمه

«**جاك دانلوب**» ، يشغل وظيفة سائق مرافق للسياح فى وكالة الأمن الوطنية . وعلى الرغم من انخفاض مركزه ، إلا أنه استطاع أن يفوز بالاقتراب من وثائق كثير. عهد بها إلى عنايته ، لكنه باعها إلى المخابرات السوفيتية ، وانتحر فيما بعد حينما ضيقت عليه المخابرات الأمريكية الفيدرالية الخناق . ارتاعت المخابرات السوفيتية حينما تصفحت بعض وثائق «دنلوب» ، لأن أكثر المعلومات العسكرية حساسية كانت تصل إلى الغرب . كان المصدر مخفيا ببراعة ، لكن المخابرات السوفيتية انتهت إلى أن لكل من المخابرات الأمريكية أو البريطانية أو كليهما عميلاً خائناً عن مستوى عال يحتل مركزا رفيعا فى العسكرية السوفيتية ... لكن من يكون؟ .. فى المخابرات السوفيتية حوالى ١٠٠٠ موظف لهم حق الاطلاع على مثل هذا النوع من المعلومات التى تتسرب إلى الغرب ، وبناء عليه يتوجب التدقيق فى قائمة تحتوى ١٠٠٠ موظف ، وإعادة فحصهم ، بما فيهم «بنكوفسكى» .

وفى الوقت نفسه استنتجت المخابرات السوفيتية أن المعلومات سُلِّمت فى موسكو، حيث قيادة المؤسسة العسكرية السوفيتية . وهذا يعنى أن المخابرات الأمريكية ، أو وكلاء الاستخبارات البريطانية ، الذين يعملون تحت غطاء دبلوماسى ، كانوا يتسلمون تلك المعلومات . لذا خصصت عملية مسح واسعة النطاق لكل وكلاء المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية المعروفين ، العاملين تحت المظلة الدبلوماسية فى موسكو . كانوا يعرفون أن «**روديريك تشيشولم**» لأن عميلهم «**جورج بليك**» فى المخابرات البريطانية ، الذى خدم مع «تشيشولم» فى المخابرات البريطانية فى برلين خلال أواخر الخمسينات ، زود المخابرات السوفيتية بجدول كامل بأسماء عملاء المخابرات البريطانية فى برلين . وكان نقل «تشيشولم» فيما بعد إلى موسكو خطأً فاحشاً ، لأن المخابرات البريطانية كانت تعلم تماما بأنه قد استنفد أغراضه . وقد قبض على «بليك» بواسطة المخابرات البريطانية أوائل عام ١٩٦١م ، واعترف بأنه باح بأسماء وكلاء المخابرات البريطانية الذى يعرفهم .

لذلك كان «تشيشولم» وزوجته من بين أهداف المخابرات السوفيتية فى موسكو ، لأنها تعلم أن «جانيت تشيشولم» تعمل سكرتيرة للمخابرات البريطانية فى برلين ، وقد شوهدت تتحدث مع الكولونيل أوليج بنكوفسكى ، التابع للمخابرات العسكرية السوفيتية ، الذى يدخل الشقة فى المبنى القريب ويغادرها بسرعة ، ويكرر زيارة مكتبة المخابرات السوفيتية .

وضع وكلاء المخابرات السوفيتية شمعا مسموما على مكتبه فى مسكنه . أدى السم إلى نقل بنكوفسكى إلى المستشفى . ولازم الفراش أسبوعا ، كان كافيا لأن تثبت خلاله جهاز تصوير سينمائى دقيق فى مصباح المكتب . فلما عاد «بنكوفسكى» إلى البيت ، سجلت «الكاميرا» كل ما كتب من معلومات أرسلها للغرب .

فى أكتوبر ١٩٦٢م قبض عليه أثناء تخطيطه للهرب من موسكو إلى الغرب . وقدم «بنكوفسكى» للمحاكمة مع «**جريفيل واين**» . أدلى بنكوفسكى باعترافه فى هدوء . تأكدت إدانته ، وحكم عليه بالموت بأشنع وسيلة يخص بها الروس أسوأ الخونة . أطعموا به فرنا متقداً ببطء شديد ، على مرأى من بعض رفاقه القدامى ، الذين دُعوا وأُرغموا على مشاهدة مصيره المؤلم ، أما «**واين**» فقد اختطفوه من المجر، ونقل إلى روسيا ، وحوكم وثبتت إدانته ، وحكم عليه بالسجن ثمان سنوات، ولم يستكمل مدة العقاب فى السجن ، لأنه استبدل عام ١٩٦٤م بجاسوس روسى، هو «جوردن لونسديل» .

★ إسرائيل بيير رجل لا وجود له !!

فى صيف عام ١٩٦٠م ، ذهب رجل أعمال أمريكى فى رحلة عمل إلى إسرائيل . وجلس ذات مساء ليتناول طعام العشاء فى أحد مطاعم «**تل أبيب**» كان للرجل خلفية فى العمل بالمخابرات ، إذ خدم فى مكتب الخدمات الاستراتيجية التابع لوكالة المخابرات الأمريكية ، كما اشترك فى الحرب الأهلية الأسبانية . وظل محتفظا بواحدة من أهم عادات الجواسيس ، وهى التفرس فى الأشخاص الموجودين فى الغرفة ، وقراءة شخصياتهم وأفكارهم إن أمكن ، بمجرد دخولها .

حملق فى أرجاء المطعم الصغير ، وتسمرت عيناه فجأة على رجل يجلس بجوار مائدة فى الركن . ظل شاخصا إليه ، بينما عادت الذاكرة إلى الوراء تتدفق بتفاصيل ذكريات حية : آخر مرة رأى فيها هذا الرجل ، كان فى « **مدريد**» عام ١٩٣٦ . فى زنزانة سجن ، ومحقق من وحدة المخابرات السوفيتية المنوط بها فرز الجواسيس من لواء المتطوعين الدوليين يضربه ويطلب منه الاعتراف بأنه جاسوس . لم ينس الرجل الأمريكى ذلك الوجه المعروف الكئيب ، الذى يبدو كجمجمة تكسوها طبقة رقيقة من الجلد .

والآن بعد ٢٤ سنة يجلس على بعد ١٥ قدما منه ، هادئا يتناول عشاءه ، والأغرب من ذلك أنه يرتدى زى كولونيل فى جيش إسرائيل . كيف لسفاح مغمور فى المخابرات السوفيتية أن يصبح ضابطا حربيا عظيما فى إسرائيل ؟ انزعج الرجل الأمريكى ، فترك المطعم ، واتجه رأسا إلى أقرب مركز لقيادة «الموساد» وكالة المخابرات الإسرائيلية . ولشد ما كانت دهشة الرجل الأمريكى عندما شاهد أن موظفى الموساد لم ينزعجوا مما قاله لهم ، لأنه ـ بكل بساطة ـ أكد لهم ما يعرفوه بالفعل . فقد كان هناك خطأ خطير بشأن الكولونيل «**إسرائيل بيير**» .

موضوع «بيير» يشكل هاجسا مستمرا لرئيس الموساد «**إيزار هاريل**» منذ عشر سنوات ، وهو «**مايسترو**» الجاسوسية الأسطورى الذى أسس «الموساد» ، وجعلها اسما بارزا بين منظمات الجاسوسية العالمية . وكان معروفا باعتماده على عنصر العاطفة الإنسانية فى عمليات الاستخبار وتنشئة الجواسيس ، بل وجعلهم خونة لبلادهم . واعتمادا على هذه الحاسة الغريزية ، اقتنع تماما بأن «إسرائيل بيير» كان يتجسس لحساب المخابرات السوفيتية . رغم اعترافه بانعدام أدنى دليل . وحتى عام ١٩٥٩م ، لم يكن فى ماضيه شئ يعيب كونه موطنا إسرائيليا مخلصا .

مثل كثيرين غيره من أبناء جيله ، هاجر «بيير» إلى فلسطين فى الثلاثينات هربا من الاضطهاد النازى . واستنادا إلى سجلات وزارة الدفاع . ولد «بيير» فى النمسا ، وانضم إلى الاشتراكيين عام ١٩٣٤م ، ثم اشترك فى الحرب الأهلية الإسبانية بعد ثلاث سنوات إلى الموالين . وفى عام ١٩٣٨م هاجر إلى فلسطين ، وألقى بثقله فى الجمعيات السرية اليهودية .

انضم «بيير» إلى عصابة «**الهاجاناه**» ، الجيش السرى الصهيونى ، وتطوع بخدماته للشعبة الألمانية لمخابرات الانتداب البريطانى ، محاولا تقصى تحركات زعماء الصهيونية . لم يكن الإنجليز يعرفون علاقة «بيير بالهاجاناه» ، فمنحوه سلطة غير محدودة فى الاطلاع على سجلات زعماء الصهيونية المتحدثين بالألمانية، وتسربت المعلومات بالتالى إلى «الهاجاناه» ، وهكذا تجنب الزعماء الرئيسيون الاعتقال . وفى الوقت نفسه عرف «بيير» اليهود الذين يزودون الإنجليز بالمعلومات . .

من بين زعماء الصهاينة الذين ساعدهم «بيير» فى فلسطين كان «**ديفيد بن**

جوريون» . فتوطدت بينهما الصداقة التى لعبت دورا هاما فى حياة «بيير» فى عام ١٩٤٥م أصبح «بيير» رئيس العمليات فى «الجليل الأعلى» بالنسبة للهاجاناه . وخلال حرب عام ١٩٤٨م خدم «بيير» فى القيادة العامة لأركان «الهاجاناه» فى «تل أبيب» ، حيث اعتبروه واحدا من أهم مهندسى الانتصار .

تقلد «بيير» بعد الحرب منصبا رفيعا فى الجيش الإسرائيلى وإدارة المخابرات، بفضل العلاقة الحميمة التى تربطه ببن غوريون ، أول رئيس للوزراء الذى كان يثق فيه وفى قدرته على إنجاز كل الأعمال التى تطلب منه . ومن بين الواجبات التى أسندها إليه : مسئولية تنظيم يومياته ، وهو عمل أطلعه على مجال واسع مدهش من الأسرار .

كان «بن غوريون» يثق فى «بيير» ثقة عمياء . لكن «**إيزرا هاريل**» رئيس المخابرات الإسرائيلية كان على عكس ذلك . كان يشعر نحوه بما يمكن تسميته «نفور الثقة» . لم يأخذ عليه خطأ معينا ، ولكنه كان يقول لرجاله إن شيئا ما يجعله غير مرتاح له . ومن أجل هذا وضعه تحت رقابة مستمرة وكان «هاريل» يعرف أن عليه أن يتحرك بحذر شديد ، متحسبا لعلاقة «بيير» الوطيدة بأقوى شخصية فى الدولة . وفى عام ١٩٥٢م حينما أطلق اسم «الموساد» على المخابرات الإسرائيلية ، وتقلد «هاريل» رسميا منصب رئيس الوكالة الجديدة . حصل على ما يؤكد شكوكه فى «بيير» .عندما استقال «بيير» فجأة من الجيش وتحول إلى السياسة ، ملتحقا «بالمابام» أكثر الأحزاب السياسية الإسرائيلية تطرفا لليسار . وقبل مضى سنة من هذا التحول طرد بسبب انحرافه اليسارى . أنكر «بيير» آراءه السياسية وأصبح رئيسا لدائرة إعلام الحزب . وهذا قوى شكوك «هاريل» . نجح فى سد الطريق على محاولة «بيير» إعادة الانضمام إلى الجيش ، بحجة ضمان الأمن ، لكن «بيير» اعتماداً على صداقته مع «بن غوريون» حصل على وظيفة فى وزارة الدفاع لتحضير تاريخ رسمى لحرب ١٩٤٨م ، وإجراء دراسات استراتيجية .

انزعج «هاريل» لأن «بيير» حصل الآن على حرية الوصول إلى تصنيف المواد . لقد اقتنع تماما بأن «بيير» عميل للمخابرات السوفيتية ، وتحتم تحذير «بن غوريون» من شكوكه ، ولما لم يتأثر بالتحذير ، طلب أدلة ، لم يقدم الدليل الحقيقى الأول إلا عام ١٩٥٩م ، حينما بدأ «**ميخائيل جوليفويسكى**» العميل البولندى ، وكيل المخابرات السوفيتية كشف النقاب للمخابرات الأمريكية عن عملاء المخابرات

السوفيتية حول العالم ومررت المخابرات الأمريكية إلى «هاريل» تقريرا مزعجا من «جولينويسكى» فحواه أن للمخابرات السوفيتية خائناً مزروعاً فى إسرائيل اسمه الحركى «**كومريد كيرت**» فى مكان ما من المستويات الرفيعة فى وزارة الدفاع الإسرائيلية . «جولينويسكى» لا يعرف الخائن المزروع على وجه التحديد ، لكنه قدم إمارات تكفى للإشارة بأصابع الاتهام إلى «إسرائيل بيير» .

بعد عدة أشهر استلم هاريل دليلا آخر . أخبرته استخبارات ألمانيا الغربية ، أن «بير» ـ أثناء زيارته لألمانيا الغربية لإلقاء محاضرة على موظفى العسكرية الألمانية ، تسلل عبر الحدود إلى ألمانيا الشرقية ، وعاد بعد عدة ساعات . لم يخطر «بيير» أى شخص عن رحلته ، ولا هو أدرجها فى تقريره عن رحلته إلى ألمانيا الشرقية .

لماذا يقوم كولونيل إسرائيلى برحلة سرية إلى ألمانيا الشرقية . ثم تأتى المعلومات من رجل الأعمال الأمريكى . وتؤكد أن «هاريل» كان إيجابيا . لقد كان «بيير» خائنا ، مسلحا بالمعلومات الجديدة . حاول إقناع «بن غوريون» بأن يمنحه كامل السلطة ، وهذا ما رفضه رئيس الوزارء .

فى إحدى أمسيات مارس ١٩٦١م ، راقبت فرق الموساد «بيير» وتتبعت آثاره ، وكان يحمل حقيبة أوراق إلى مطعم يبدو شبه مهجور فى «تل أبيب» جلس هناك هنيهة ، ثم انضم إليه رجل يحمل نفس نوع الحقيبة التى حملها «بيير» . عرفه فريق الموساد فى الحال بأنه دبلوماسى سوفيتى وهو فى حقيقته رجل مخابرات روسية على مستوى رفيع . تبادل «بيير» والرجل الروسى النظرات لفترة وجيزة ، ثم قاما وتوجه كل منهما إلى حقيبة الشخص الآخر . وتبادل الحقائب من أقدم حيل الجاسوسية التقليدية . اتضح لفريق الموساد فى الحال أن الحقيبة التى سلمها «بيير» إلى الروسى كانت تحتوى على مجموعة من وثائق مصنفة . وبعد أشهر ثبتت على «بيير» جريمة التجسس ، وحكم عليه بالسجن ١٠ سنوات .

قد تبدو هذه نهاية القصة . لكن الموساد اكتشفت أن لغز «إسرائيل بيير» بالكاد قد بدأ .. رفض «بيير» التعاون بأى وسيلة مع معتقليه . لذا صدرت التعليمات للموساد لاستعادة شريط حياة ونشاط «بيير» ، فكان أول اكتشاف غريب أنهم اعتقلوا شبحا ، فالرجل الذى سمى نفسه «إسرائيل بيير» لا وجود له . وأثبتت التحريات الدقيقة أن كل ما هو معروف عن ماضى بير وخلفيته تقريبا كان أكذوبة.

فالرجل القابع فى سجن إسرائيلى لم يكن نمساويا رغم أنه يتحدث اللغة الألمانية بطلاقة ، كما لم يكن عضوا فى الحزب الاشتراكى النمساوى . كان فى أسبانيا أثناء الحرب الأهلية لكنه لم يخدم فى اللواء الدولى . لم يكن يهوديا . لم يهاجر إلى فلسطين للهرب من اضطهاد النازى .

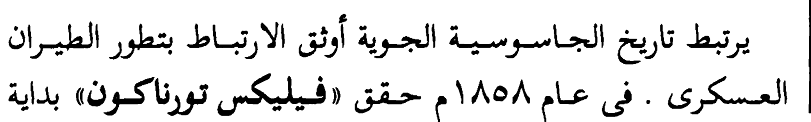
مـــن يكون إذن ؟

عجزت «الموساد» عن العثور على إجابة للسؤال . وظل «بيير» صامتا حتى توفى بالسكتة القلبية عام ١٩٦٦م ، وأخيرا وصلت الموساد إلى قرار بأن الرجل الذى سمى نفسه «إسرائيل بير» كان يقوم بعملية تجسس تقليدية لحساب المخابرات السوفيتية خائنا لليهود ، زرعوه فى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية بهدف اختراق المنظمات الصهيونية السرية . ولم يتوقع الحصول على مكافأة حينما استولت المنظمات السرية على مقاليد الحكم .

انتهت الموساد إلى أن العملية كلها انطوت على رجلين ـ أحدهما «إسرائيل بيير» الحقيقى ، وكان عضوا نشطا فى الحركة الاشتراكية النمساوية ، ثم حارب فيما بعد فى أسبانيا ، لكن «الموساد» كانت مقتنعة بأن «إسرائيل بيير» الحقيقى لم يترك أسبانيا حيا أبدا . فقد اعتادت المخابرات السوفيتية خلال الحرب الأهلية الأسبانية أن تستولى على جوازات سفر وأوراق المقاتلين فى الفرقة الأجنبية ، وإذا مات فى القتال أحدهم ، ألبست شخصيته لأحد عملائها يتقمص شخصية المتوفى وهُويته ، ويحمل أوراقه .

مـن يكـون الرجـل الآخـر ؟

لم تُكتشف شخصيته أبدا ، لكن «الموساد» يعتقد أنه كان شيوعيا متعصبا نشطا فى النمسا ، انضم إلى الحزب الشيوعى عام ١٩٢٨م . وفى عام ١٩٣١م ضمته المخابرات السوفيتية ليتجسس على أعضاء الحزب ، فمارس مهمته بنجاح . لذا استدعوه إلى موسكو فى عام ١٩٣٤م للتدريب . وأرسلوه بعد عامين إلى أسبانيا رئيسا لفرقة مهمتها استئصال المنحرفين عن الماركسية من بين أصحاب الرتب المتطوعين فى الحرب . ويبدو أنه استغل وظيفته إلى حد ما ، فاستدعوه للعودة إلى موسكو فى ديسمبر ١٩٣٦م ، واستجوبوه حول ما سميت «أخطاء كبيرة» جزاؤها الإعدام عادة فى عهد التطهير ، لكنه خضع لعملية إصلاح عدة شهور ، وتحول إلى «إسرائيل بيير» ليعمل جاسوساً . وظل «إسرائيل بيير» الحقيقى سراً غامضاً .



الجاسوسية الجوية

★ بواكير التصوير الجوى

يرتبط تاريخ الجاسوسية الجوية أوثق الارتباط بتطور الطيران العسكرى . فى عام ١٨٥٨م حقق «**فيليكس تورناكون**» بداية تاريخية ، حينما صور باريس من سلة تتدلى من بالون . وبعد عامين ، وبنفس الطريقة ، التقط الأمريكى «**جى . بلاك**» منظراً جويا لمدينة بوسطن . وفى عام ١٨٦٢ ـ خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، استخدم جيش الجنرال «ماكلين» الاتحادى فريقا من رجال البالونات للتجسس على مواقع الكونفدراليين أثناء معركة «**ريتشموند**» .

وحدثت أول محاولة بريطانية فى الطيران العسكرى عام ١٨٦٣م ، حينما أجرى الكابتن «**إف . بومونت**» ، والملازم «**جى . جروفر**» ، من كتيبة المهندسين الملكية، سلسلة رحلات طيران تجريبية ، فى بالون مستعار . وكان الكابتن «بومونت» قد شاهد بالونات «ماكلين» . واستمرت تجارب الرصد بالبالونات خلال العقد التالى بمنحة حكومية صغيرة . وفى عام ١٨٧٧م لاح أمل جديد ، حينما سجل «**والتر وودبيرى**» براءة كاميرا تثبت على بالون ، وتعمل بنبضات كهربائية خلال سلك من الأرض . لكن اتضح أنها ليست عملية ، وفشلت فى الحصول على دعم عسكرى .

فى عام ١٨٨٣م حقق «**الميجور إلسديل**» ـ من كتيبة المهندسين الملكية ـ تقدما ملحوظا فى مجال التصوير الجوى ، حينما ثبت آلتى تصوير فى بالون مربوط بالأرض ، والتقط سلسلة من الصور لقلعة «**هاليفاكس**» . وفى عام ١٨٨٥م استخدمت البالونات العسكرية عمليا لأول مرة فى عمليات بسيطة ، فى «**بتشونلاند**» وشرق السودان ، وأثبتت فعاليتها خلال حرب البوير الثانية .

فى مايو ١٩٠٨م كان «**فيفيان تومسون**» أول من قدم فكرة الأبعاد الثلاثة إلى التصوير الجوى ، لكنه لم يحقق نجاحاً كبيراً نظراً لدقة وتعقيد الآلة المطلوبة . وفى عام ١٩٠٩م دبت ثورة فى الجاسوسية الجوية ، حينما التقط «**إم . موريس**» أول صور من الجو فى رحلة بالطائرة . وبعد ثلاث سنوات سبقت فرنسا العالم كله فى

استخدام الكاميرا فى الطائرة أثناء عملياتها الحربية ضد الثوار المغاربة .

شكلت بريطانيا فى فبراير عام ١٩١١م كتيبة جوية باسم فيلق الطيران الملكى . وفى ١٣ مايو ١٩١٢م أصبح السرب الثالث من هذه الكتيبة أول وحدة تمارس التصوير الجوى ، بآلات تصوير اشتراها المتحمسون من الضباط ، وطوعوها للمهمة الصعبة ، وسرعان ما اكتسبوا مهارة فى تحميض الأفلام وإظهار الصور أثناء الطيران .

ترجع أهمية التجسس بالتصوير عامة والجوى خاصة ، إلى أن الكثير من القادة العسكريين يشكون فى المعلومة التى ترد بالوسائل الإنسانية . حتى أكثر العملاء صدقا وأمانة قد يعمل لمصلحة الطرف الآخر . فعالم الجاسوسية ملبد بالظلام والغيوم غير مأمون ، والقادة يفضلون الاعتماد على المعلومات الالكترونية ، والتقارير الواردة بواسطة طائرات ، وسفن ، وغواصات وأقمار التجسس .

★ التصوير فى الحرب العالمية الأولى

بنشوب الحرب العالمية الأولى فى أغسطس عام ١٩١٤م انغمس فيلق الطيران الملكى البريطانى فى عمليات الاستطلاع الجوى ، واستمر السرب الثالث فى تقديم معلومات مصورة جويا لميدان المعركة اعتبارا من ١٥ سبتمبر ، وفى ١٥ يناير ١٩١٥م أقيم لأول مرة قسم تصوير تجريبى رسمى ، أثبت جدواه خلال أسابيع . وألغى هجوم أنجلو ـ فرنسى مخطط على «قناة لاباسى» فى فبراير ١٩١٥م حينما تم اكتشاف نظام خنادق خفى . واستخدم التصوير الجوى لأول مرة بعد شهر لتخطيط هجوم ناجح فى معركة «**نيف شابيل**» .

أضيف بعد جديد للتصوير الجوى فى صيف عام ١٩١٥م ، حينما قدم «**ثومتون بيكارد**» أول كاميرا ضد الذبذبة . وفى الوقت نفسه تقريبا أنتج السرب الحادى عشر أول نموذج مقروء من الصور الرأسية الجوية ثلاثية الأبعاد . وفى أبريل ١٩١٦م افتتحت مدرسة تصوير فى «**فامبورد**» .

خلال معركة «**السوم**» بين أول يوليو و١٧ نوفمبر ١٩١٦م التقط فيلق الطيران الملكى البريطانى أكثر من ١٩٠٠٠ صوره ، وطبع أكثر من ٤٣٠٠٠٠ طبعة . وفى أوائل عام ١٩١٧م تم تعيين ضباط متخصصين فى كل سرية استطلاع من سلاح المخابرات ، وزودت معظم طائرات الاستكشاف بكاميرات .

مع تقدم الحرب ، أصبحت قراءة الصور من أصول الاستخبارات الهامة وكانت تقارير المحللين ترسل بانتظام إلى القيادات . وبانتصاف عام ١٩١٧م صار فيلق الطيران الملكى البريطانى قادرا على ترجمة الصور الجوية إلى خرائط يومية لجبهة قتال العدو ، وخطوط تموينه ، ومواقعه .

فى فبراير ١٩١٨م اكتشفت محللو الصور الفرنسية تجمعات الجنود والمعدات والعتاد وراء خطوط الألمان . ازدادت نسبة صدق التوقعات واتسعت الرؤيا أمام القادة. فى الأسبوع الأول من مارس وحده أمكن الحصول على ١٠٤٤٠ صورة ، وأسفر اختبارها عن ثروة من المعلومات . خلال الهجوم الألمانى الذى كان متوقعا فى أبريل ١٩١٨م ، تم استخدام قراء الصور ـ بصفة رئيسية ـ فى توجيه المدفعية لصب نيرانها على بطاريات العدو التى تحددت أماكنها بالتصوير الجوى المكثف ، إذ بلغ عدد الصور الجوية التى التقطت فى يوم ١٢ أبريل وحده ٣٣٥٨ صورة جوية .



مطارات العدو هدف رئيسي للتصوير الجوي

فى الشرق الأوسط استمر التصّوير الجوى بصفة مكثفة . خلال يوم ٢٧ أكتوبر ١٩١٧ أمكن تصوير ١٢١ بطارية مدفعية تركية فى منطقة «بيرشيبا» وأرسلت

الأفلام إلى قسم التفسير والقراءة ، لتحميضها ، وإظهارها ، وتحليلها ، وتوضيحها على الخرائط ، وإرسالها إلى خط النار خلال خمس ساعات فى يناير ١٩١٨م تم تصوير ١٦١٦ كيلوا مترا من الأراضى التى كانت تحتلها تركيا ، لأغراض المساحة ورسم الخرائط .

مع توقيع اتفاقية الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨م ، كان الفيلق الجوى قد تحول إلى سلاح الطيران الملكى البريطانى ، وبلغ مستوى عاليا من المهارة الفنية فى الاستطلاع الجوى ، لأغراض المساحة والمخابرات .

★ التصوير بين الحربين

تضاءل الاهتمام العسكرى بفن التحليل الفوتوغرافى بإقبال السلام . ومع ذلك توسعت مدرسة القوات الجوية للتصوير فى «**فارينورو**» ، لتضم قسما للجيش ، وأضيف إليها منهج لتفسير الصور ، فى أبريل ١٩٢٥م ، وقل التقاط الصور .. فى عام ١٩٣٥م اضطرت وزارة الطيران البريطانية إلى تنشيط مخابراتها لجمع المعلومات ، لما اعتدت إيطاليا على الحبشة ، وبات العدوان يهدد بالانتشار فى مناطق أخرى بإقليم البحر الأبيض المتوسط ، حينئذ ثبتوا كاميرات بدائية إلى عدد من طائرات الاستطلاع للحصول على صور مائلة .

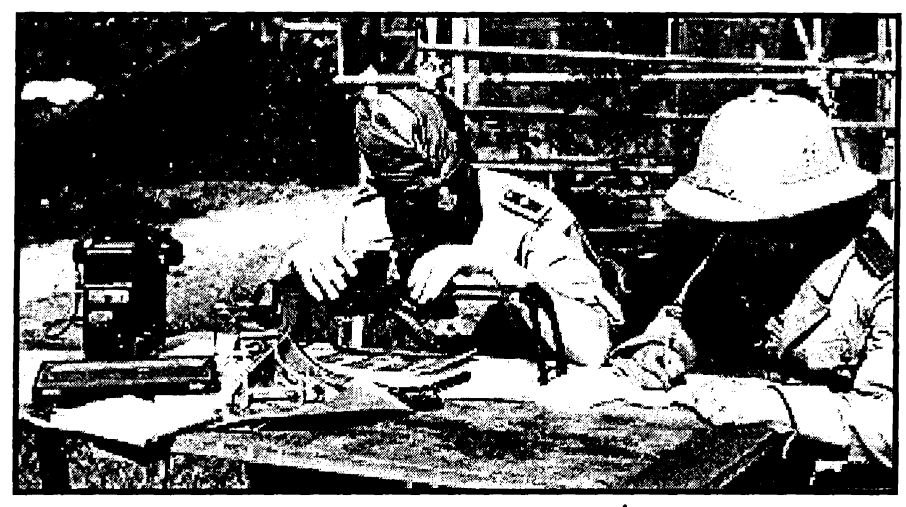
بات واضحا فى أواخر الثلاثينات أن حربا قارية تزحف فى الأفق ، وأن المخابرات الجوية ضرورة لابد منها . وفى عام ١٩٣٨م حصل الميجور «**وينتر بوثام**» ، من المخابرات البريطانية على سلسلة من الصور للحدود الألمانية . من المكتب الثانى الفرنسى ، هذه الصور تركز مباشرة على خط ماجينو ، وكانت قليلة الأهمية بالنسبة للإنجليز . وهنا احتاجت المخابرات البريطانية إلى خدمات المصور الجوى البارع «**سيدنى كوتون**» ، فالتقط سلسلة من الصور الجوية بالغة السرية لألمانيا . وفى أوائل عام ١٩٣٩م تم استقطاب عدد من الضباط المتقاعدين ، كضباط مخابرات مقيمين ، وخبراء متفجرات .

★ التصوير فى الحرب الثانية

فيما عدا «**سيدنى كوتون**» ـ الذى كان يعمل لسلاح الطيران الملكى البريطانى– لم يهتم أحد بالتصوير الجوى خلال الأشهر الأولى من حرب الكلام

التى سبقت الحرب العالمية الثانية . التقط «كوتون» بنفسه مجموعة من أحسن الصور للخطوط الأمامية الألمانية ، من ارتفاع ٢٠٠٠٠ قدم ، لكنه فشل فى تمييز تعزيزات أسلحة العدو قبل الهجوم على دول الأراضى المنخفضة مباشرة .

استطاع قراء الصور القلائل فى فرنسا أن يهربوا عن طريق دنكيرك ، ليكونوا نواة المركز الحربى لتفسير الصور ، الذى أقيم فى سبتمبر ١٩٤٠م ، وظل تحليل الصور حصينا يعمل بانتظام فوق موانئ القنال الإنجليزى للتعرف على أنشطة الغزو الألمانى . ولما تحولت دفة الحرب على الألمان تدريجيا أصبح المركز الحربى لتفسير الصور أكثر نشاطا ، وأقيم قسم الاستكشاف فى مارس ١٩٤٢م ليقدم دعما من المعلومات بالصور لقوات العمليات المشتركة . وفى سرية تامة استطلعوا حوض **«سانت نازير»** قبل الإغارة عليه ، وتعرفوا على قاعدة الرادار فى برونيفيل ، واكتشفوا مركز أبحاث الصواريخ النازى فى **«بينيموند»** ، واستطلعوا الشواطئ قبل الهجوم المشئوم على **«دييب»** .



ألمانيان يفسران الصور في شمال إفريقيا

ساعد مفسرو الصور كل حملات الحرب خلال السنوات الثلاث الباقية . حددوا مواقع المدفعية قبل الأيام المحددة لشن الهجوم ، وبلغوا عن وجود أكداس الأسلحة ، والمراكز الصناعية ، وشبكات الطرق ، والكبارى والجسور ، وخطوط المواصلات والاتصالات ، والأهداف الحربية الثمينة ، لتقصفها الطائرات والمدافع .

أنتج المركز العسكرى لتحليل الصور ٣٨١٠ صورة بتقاريرها التفصيلية ، وأنجز عدداً كبيراً من المهام الخاصة فى الفترة ما بين إنشائه عام ١٩٤١ ويوم استسلمت ألمانيا فى ٧ مايو ١٩٤٥م لقد كان التصوير الجوى وتفسير الصور عنصراً هاماً من عناصر نجاح الحلفاء ، باعتباره مصدراً حيوياً للمعلومات الأكيدة ، استراتيجيا وتكتيكيا .

★ تجارب ما بعد الحرب

استخدمت طائرات الاستكشاف فى بادئ الأمر ، لتطير فوق خطوط العدو ، وتصور استحكاماتهم ودفاعاتهم ، وذلك فى الحرب العالمية الأولى . أما فى الحرب العالمية الثانية فقد استخدمت طائرات استطلاع سلاح الطيران الملكى البريطانى لتحديد مواقع الصواريخ الألمانية ، بناء على معلومات أولية مستقاة من فرق المقاومة. وبنهاية الحرب رسخت أقدام الجاسوسية الجوية ، لكن طائرات الاستطلاع واجهت مشكلة جديدة ، تمثلت فى تطور أجهزة الرادار ، حتى أصبحت سلاحا فعالا فى مقاومة الجاسوسية الجوية ، فاتجهت الاهتمامات إلى تصميم طائرات لا ترقى إليها قدرات الرادار .

ومن ناحية أخرى اتجهت الجهود لتسخير وحدات التصوير الجوى الباقية فى إثبات أن الدروس المستفادة خلال سنوات الحرب الست لم تضع هباء . وأقيمت وحدات جديدة فى سنغافورة ، ومصر ، والفرقة البريطانية فى ألمانيا . وفى يوليه ١٩٤٨م أقيمت وحدة فى الشرق الأقصى ، لتساعد فى الحرب ضد الشيوعيين الصينيين فى الملايو .

أكدت الحملة ضد الإرهابيين فى الملايو تزايد الخطر على العالم الغربى من جانب القوى الشيوعية . وقبيل نهاية عام ١٩٥١م كان الحلفاء قد أنشأوا ١٠٤ قسم للتصوير والتفسير ، أرسلوها إلى «كوريا» ، ردا على الغزو الشيوعى لكوريا الجنوبية .

★ أزمة الطائرة «يو ـ ٢»

الطائرة الأمريكية «يو ـ ٢» هى أول طائرة تجسس حديثة . صممت لتطير على ارتفاع شاهق فوق مدى رادار العدو ، وبمقدورها المروق فوق منطقة الهدف دون أن

تثير الانتباه . وهى مزودة بكاميرات ذات عدسات مقربة مكبرة . وتستطيع التصوير من ارتفاع ٢٠٠٠٠ متر . وبها نظام تدمير ذاتى يعمل حينما يستخدم الطيار مقعد الأمان ويقذف به من الطائرة .

فى ٣٠ أبريل ١٩٦٠م أصابت المدفعية الروسية طائرة تجسس «**يو ـ ٢**» وأسقطتها أثناء طيرانها فوق الأراضى الروسية . لم يجد الطيار «جارى باورز» وقتا لتشغيل جهاز التدمير ، لكنه نجا بحياته . قبض عليه الروس ، واستولوا على الطائرة تسبب الحادث فى فضيحة دولية ، فقد كانت المرة الأولى التى يثبت فيها الروس أن أمريكا كانت تستخدم جواسيس فى السماء فوق أراضى روسيا .

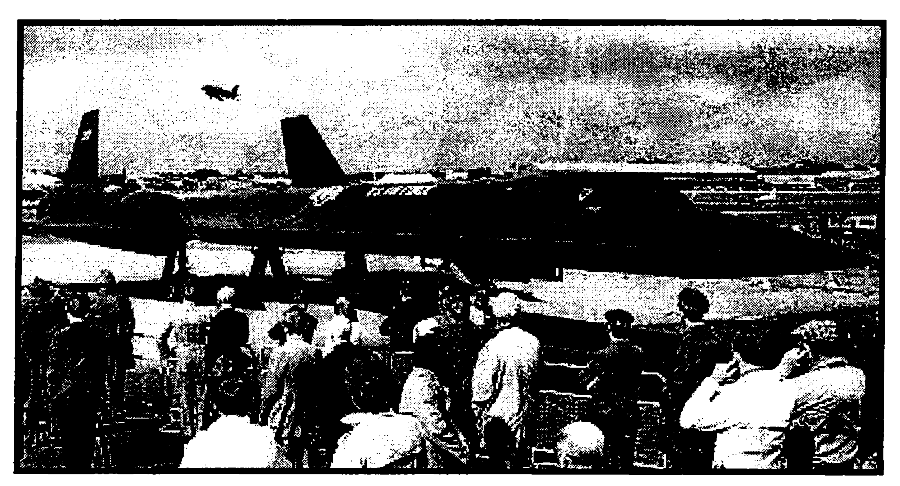


طائرة الاستطلاع يو ـ ٢

كان «**جارى باورز**» قائد طائرة التجسس «**يو ـ ٢**» عميلا فى المخابرات الأمريكية فى الوقت نفسه . حاكمته السلطات الروسية ، وحكمت عليه بالسجن ١٠ سنوات، لكن أمريكا استبدلته بالجاسوس الروسى كولونيل «رودولف آبل» عام ١٩٦٢م ، وتوفى عام ١٩٧٧م فى حادث سقوط طائرة هيليكوبتر .

جاء فى أقوال «**جارى باورز**» أثناء التحقيق معه فى روسيا : «قال لى الكولونيل شيلتون .. فى حالة ما إذا حدث لى شئ ليس فى الحسبان ، علىّ أن ألجأ إلى طرود موضوعة فى جيوب ملابسى ، بها نقود سوفيتية ، وأخرى ذهبية ، قد احتاج إليها لرشوة مواطنين سوفييت لمساعدتى عند اللزوم . وعرض علىّ الكولونيل دولاراً فضيا مثبتة عليه إبره ، وقال إن طائرتى بعيدة عن كل خطر لا يصل إليها صاروخ أو ترتفع إليها طائرة . لكن إذا ساء الحظ ووقعت فى الأسر ، وتعرضت لتعذيب لا أتحمله ، يمكننى الانتحار بشكة بسيطة من الإبرة ، تقتلنى فى الحال .

تستخدم المخابرات حاليا طائرات استطلاع أكثر تطورا ، ووسائل تصوير جوى ذات تكنولوجيا حديثة ، بدون التعرض لأخطار أنظمة رادار العدو ، ومع أن الأقمار الصناعية حملت عن الطيران الجزء الأكبر من أعباء التجسس وأخطاره إلا أن أقمار التجسس حكر على الدول الكبرى ، فلا غنى إذن عن استخدام أجيال أخرى من طائرات الاستطلاع ، ابتداء من «**بلاك بيرد إس . آر ـ ٧١**» التى تزيد سرعتها على ٣٠٠٠ كيلو متر فى الساعة ، وعائلة «**لوكهيد من أ ـ ١١**» إلى «**الطائر الأسود إس . آر ـ ٧١**» ، و «**الأواكس**» ، الطائرة بلا طيار ، وغيرها .



إس . آر . الطائر الأسود في معرض فارنبورد

★ الطائرة بلا طيار الإسرائيلية

اهتمت إسرائيل بالطائرة بلا طيار زمنا طويلا كوسيلة لجمع المعلومات . استخدمت الطائرة «**ماستيف ـ ١**» منذ عام ١٩٧٩م ، وسرعان ما تم استبدالها بالجيل الثانى «**تاديران ـ إسرائيل ـ ماستيف ـ ٢**» . وهى ذات ذيل مزدوج ، وجناحين مرتفعين ، ومحرك دافع وزنه أقل من ١٠٠ كيلو جرام . تستطيع أن تحمل ٢٥ كيلو جراما لمدة أربع ساعات ، على ارتفاع ٣٠٠٠ متر . يمكن إطلاقها من قاعدة إطلاق منحدرة تثبت فوق مركبة عسكرية عادية .

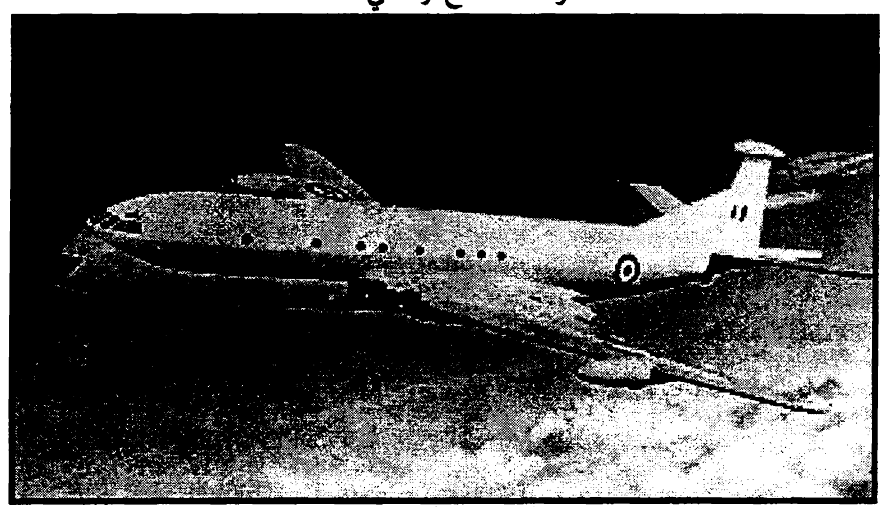
أدى نجاح الطائرة «**ماستيف ـ ٢**» إلى توسيع مصادر الإنفاق على تطويرها، وإنتاج «**ماستيف ـ ٣**» ، و «**سكاوت آر . بى . ڤى**» ، وهى أكبر من سابقتها ، طولها ٣٫٧ متر ، وطول الجناحين ٣٫٦ متر ، ووزنها ١١٨ كجم ، وحمولتها ٤٥ كجم ، وسرعتها القصوى ١٤٧ كيلو مترا فى الساعة ، ترتفع إلى ١٠٠٠٠ قدم ،

وتطير لمدة ٤٫٥ ساعة ، فى دائرة قطرها ١٠٠ كيلو مترا .

استخدمت الطائرة «**سكاوت**» الإسرائيلية بكثافة عام ١٩٨٢م فى العمليات الإسرائيلية ضد منظمة التحرير الفلسطينية وقوات المقاومة اللبنانية فى الجنوب اللبنانى ، وأفادت إسرائيل فى جمع المعلومات الميدانية عن المواقع السورية ومراقبة تحركات قواعد صواريخ «سام» .



طائرة الاستطلاع آر . سي - ١٣٥



طائرة الاستطلاع نمرود

الجاسوسية البحرية

★ الفرقة رقم ٤٠

فى منتصف ليلة ٤ أغسطس ١٩١٤م ، أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا ، وانشغل العالم كله بالصراع الدموى على اليابسة ، بينما اختفى الأسطول البحرى البريطانى الضخم من الموانى ، وانغمس فى تحطيم محاولات حصار الجزر البريطانية الروتينية ، ولم يلتق الأسطولان إلا مرتين ، إحداهما فى «**دوجر بانك**» ، والأخرى فى معركة «**جوتلاند**» . والواقع أن بريطانيا كان مصيرها الجوع والاستسلام ، ما لم يكن أسطولها الملكى البحرى على ما كان عليه من القوة والتماسك . والواقع ـ أيضا ـ أن الأسطول البحرى البريطانى كان مدينا بإنجازاته لمدير مخابراته : الكابتن «**ريجينالد بلينيكر**» ـ الذى صار أدميرالا فيما بعد ـ ولرجال فك الشفرات التابعين له ، الذين كانوا يشغلون الفرقة «**رقم ٤٠**» ، فى مبنى الأدميرالية القديم .

تم وضع أسس نجاح الفرقة «رقم ٤٠» خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحرب، حينما وقعت سلسلة من الأحداث بدت تافهة لم يلحظها العالم على نطاق واسع ، لكنها دفعت «لجنة الدفاع الإمبراطورى» عام ١٩١٢م إلى اتخاذ قرار بقطع كل كابلات تلغراف ألمانيا فيما وراء البحار فى حالة نشوب حرب . وبناء عليه صدر الأمر فى ٥ أغسطس ١٩١٤م ، غداة إعلان الحرب ، إلى سفينة الكابلات «**تيلكونيا**» لالتقاط ونزع أول خمسة كابلات ألمانية تصل «**إمدين**» الحدود الألمانية الهولندية ، إلى فرنسا ، وأسبانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والمستعمرات الألمانية . فاضطرت ألمانيا إلى اللجوء للاتصال اللاسلكى ، أو للبريد على ما يعيبه من بطء ، والتعرض الدائم لخطر الانكشاف أو الضياع .

فى عام ١٩١٤م كان التلغراف اللاسلكى اختراعاً حديثاً ، على الرغم من استعماله فى كل السفن الحربية ، وكثير من السفن التجارية . لم يكن أحد يدرى ماذا عساها تكون نتيجة التزايد الهائل فى كثافة حركة اللاسلكى خلال الحرب . كل الدول استخدمت شفرات إلا اثنتان هما : فرنسا ، والنمسا المتحدة مع المجر آنذاك ، استخدمتا فرق فك الشفرات . تعلمت بريطانيا من إهمالها بسرعة ،

وأقامت وكالة لفك الشفرات خاصة بها ، خلال عشرة أيام من بدء اشتعال نيران الحرب .

حالف الحظ بريطانيا . بدأت ألمانيا الحرب بثلاث شفرات رئيسية ، لم تلبث أن انتقلت صورها جميعا إلى يد الأدميرالية البحرية البريطانية ، خلال أربعة أشهر . إحداهما استولى عليها البريطانيون فى ١١ أغسطس ، حينما دخلت السفينة الألمانية ـ الاسترالية **«هوبارت»** مياه **«ملبورن»** ـ دون علم بنبأ إعلان الحرب فوقعت فى الأسر ، والشفرة الثانية استولى عليها الروس حينما أسروا الطراد **«مجد بيرج»** فى **«إستونيا»** . والشفرة الثالثة وجدها البريطانيون فى صندوق من الرصاص انتشلوه من المدمرة «إس ـ ١١٩» التى أغرقها طراد إنجليزى . وهكذا استطاعت الأدميرالية قراءة كل الرسائل الشفرية الألمانية طوال الحرب .

ضمت الفرقة رقم ٤٠ مجموعة من أكفأ خبراء الشفرة ، يرأسهم «سير ألفريد إوينج» ، وهو مهندس تخرج فى جامعة **«إدينبيرجش»** ، واشتغل عدة سنوات بمصانع كابلات ، وعاد للجامعة لتنفيذ بحث هندسى ، ثم عيِّن أستاذا للهندسة الميكانيكية فى جامعة طوكيو . وانتقل إلى **«كامبريدج»** لشغل كرسى الهندسة الميكانيكية فى جامعتها من عام ١٨٩٠ـ١٩٠٢ بعدها شغل وظيفة مدير التعليم البحرى ، وفى عام ١٩١٤م أختير مديرا للفرقة رقم ٤٠ .

اعتمدت الفرقة رقم ٤٠ فى البداية على مكتب البريد ، وعدد من محطات ماركونى اللاسلكية ، ومحطة استماع الأدميرالية فى **«ستوكتون»** ، وثلاثة قراء شفرة متحمسين . وتحسنت الأمور بعد أشهر قلائل ، حين تراكمت خبرة أعضائها بسرعة غريبة ، وتم ربط محطة خفر سواحل **«هنستانتون»** على شاطئ **«نورفولك»** بستوكتون ، ونمت الخدمة تدريجيا حتى استطاعت أن تسجل وتحل كل الرسائل والإشارات البحرية أو الدبلوماسية التى تبثها السلطات الألمانية .

★ حرب الشفرة

تحققت ألمانيا من أن بريطانيا قد عرفت كل نظامها الشفرى البحرى ، وغيرت تبعا لذلك مواقفها وتصرفاتها وأساليبها ، بما أفسد خطط الألمان ، حدث هذا بعد معركة **«جوتلاند»** . وكانت محطة الإذاعة البحرية الألمانية فى **«نايوان»** ، تبث فى نهاية إذاعتها المسائية ، إشارات سريعة جداً ، حتى لا يعرف أحد ما إذا كانت تلك

رسائل حقيقية ، أم مجرد إشارات اختبار ، فعكفوا على تحليل تلك الإشارات . سجلوا عينة منها على أسطوانة ، وأداروها على فونوغراف بسرعة مخففة ، فإذا بالصوت الغامض يتحول إلى لغة شفرية مفهومة .

عمد كل طرف إلى تغذية الطرف الآخر بمعلومات مزيفة بمجرد أن يحل رموز شفرته . وبهذه الطريقة مهدت بريطانيا لإغراق الطراد **«هامبشاير»** . فى ٢٦ مايو ١٩١٦م اهتدى موظف نرويجى بالمخابرات الألمانية اسمه **«لانج»** ـ فى محطة استماع «نيومنستر» ـ إلى رسالة تبدو لأول وهلة أنها عديمة الأهمية ، صادرة من مدمرة بريطانية إلى الأدميرالية ، تقول إن قنالا غرب **«أوركنى»** قد تم تطهيره من الألغام . شعر «لانج» بغرابة الرسالة . لأنها صادرة من المدمرة إلى الأدميرالية مباشرة، ولأنها تكررت أربع مرات خلال ساعة واحدة .

شك الكولونيل «نيكولاى» قائد محطة الاستماع فى أن البريطانيين طهروا الممر البحرى من الألغام لتمكين سفينة هامة من استخدام الطريق ، فصدرت الأوامر للغواصة **«يو ـ ٧٥»** بالتوجه بأقصى سرعة إلى ساحل **«أوركنى»** الغربى لزرع ألغام فى الممر المذكور . وتسبب واحد من هذه الألغام فى غرق الطراد «هامبشاير» فيما بعد .

★ اعتقال روجر كيسمنت

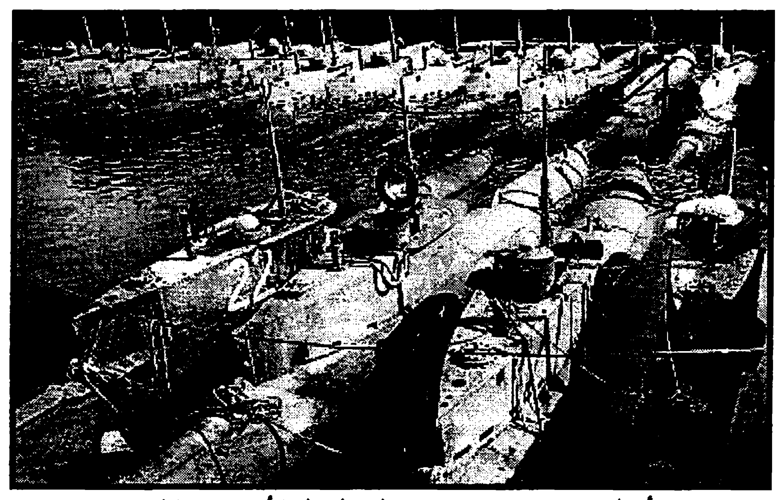
كان **«السير روجر كيسمنت»** من غلاة القوميين الأيرلنديين .وقد رصدت الفرقة رقم ٤٠ ـ المخابرات البحرية البريطانية ـ تحركاته فى ألمانيا وخارجها منذ الأيام الأولى من الحرب ، وخصصت لعمليات مراقبته مبالغ مالية كبيرة ، حتى أنها استخدمت يختا فى الطواف بسواحل «أيرلندا» الغربية على مدار الساعة ، لمراقبة عودته من ألمانيا . واقتنصت الفرقة رقم ٤٠ ـ بالفعل ـ رسالة لاسلكية شفرية من «برلين» تقول إن **«كيسمنت»** سينزل إلى شاطئ «أيرلندا» من غواصة ألمانية . ونتيجة لتلك الرسالة أمكن القبض على «كيسمنت» فى أبريل ١٩١٦م ، بمجرد نزوله إلى الشاطئ بالقرب من **«ترالى»** . وحوكم فى لندن ، ثم قضى عليه بالموت.

كان «كيسمنت» يتمتع بقدر كبير من الاحترام فى بريطانيا وما وراء البحار ، لا لأنه دبلوماسى حصيف ، وإنما لنشاطه الواسع كمناصر لحقوق العمال الوطنيين فى إفريقيا ، مما أثار عاصفة من التعاطف معه ، اضطر الأدميرال **«هول»** إلى

تهدئتها . بإصدار منشور يهجو فيه الرجل الأيرلندى ؛ كما نشر له مذكرات مزورة يعترف فيها بالانحلال . لكن هذه التهم لم تذكر فى قائمة الادعاء . وحكم عليه بتجريده من رتبة الفروسية وموته شنقا .بعد ٥٠ سنة نقلت رفاته إلى أيرلندا ، ودفنت فى حفل مهيب محاطا بمراسم التكريم .

★ حرب الزورق - يو

لم يكن لمعركة الأطلسى مثيل فى تاريخ الحروب . بدأت هذه الحرب فى يونيه ١٩٤٠م ، حينما وصل الألمان إلى شواطئ فرنسا المواجهة للأطلسى . استيلاؤهم على خليج «**بسكاى**» ، وسيطرتهم على موانيه ، أعطى أسطول الغواصات الألمانية تفوقا كبيرا ، ووفر عليهم مشقة رحلة طولها ١٤٥٠ كيلو مترا من وإلى محطات تجمعها .



أسطول غواصات زوارق ـ يو في المرحلة الأخيرة من الحرب

فاز كل من الطرفين بميزة لا يعرفها الطرف الآخر . فى يوليو ١٩٤٠م استولت سفينة القرصنة التجارية الألمانية على نسخة من شفرة الأسطول البحرى الملكى البريطانى ، التى تستخدمها كل السفن التجارية البريطانية ، فلم تجد قيادة أسطول الزوارق ـ يو صعوبة فى كشف أسرار الرسائل المتبادلة بين قطع البحرية البريطانية والأدميرالية ، فزادت فعالية الغواصات إلى الحد الأقصى . وفى فبراير ١٩٤٣م سيطرت الغواصات الألمانية تماما على نظم المواصلات الشفرية البريطانية السرية تماما ، حتى أنها كانت تقرأ تقارير الغواصات البريطانية عن مواقعها وخطوط سيرها ، وكانت هذه تذاع بانتظام لقادة قوافل السفن .

وشهد الشهر التالى ذروة معركة الأطلنطى ، وخلال ثلاثة أيام أسقطت الغواصات الألمانية إلى الأعماق ١٤١٠٠٠ طن من سفن الحلفاء مقابل غواصة واحدة . وفى ربيع ١٩٤٣ تغيرت الصورة فى ٢٤ مايو ، ودمر الحلفاء ٢١ غواصة ألمانية .

★ وسائل بحرية حديثة

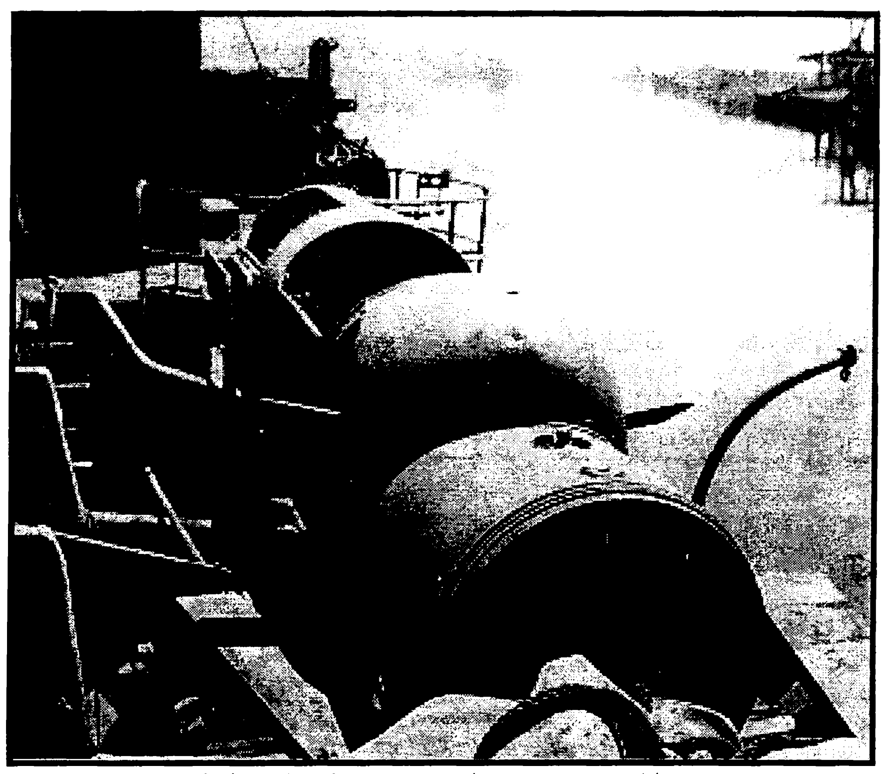
خلال الحرب العالمية الثانية ، استجدت وسائل بحرية للتجسس ونقل القوات المغيرة ، فاستخدمت زوارق الصيد ، والغواصات بأنواعها ، وزوارق التجديف ، وفى أغسطس ١٩٤٢م نقلت زارعة الألغام «**آرجونوت**» وزميلتها «**نوتيلاس**» ما لا يقل عن ٢١١ جندياً بحرياً أمريكياً إلى جزيرة «**ماكين**» فى أرخبيل «**جيلبيرت**» ، فقتلوا جميع أفراد الحامية اليابانية وعددهم سبعين جنديا ، ودمروا القاعدة البحرية . وفى ١١ مايو ١٩٤٣م أدت السفينتان مهمة مماثلة بنفس النجاح فى جزيرة «**أتو**» .

والأسطول البحرى الإيطالى ، نجح أيما نجاح فى استخدام غواصاته لنقل الغواصات الصغيرة ورجال الضفادع البشرية إلى مشارف قواعد العدو . واستطاع بذلك إغراق حوالى ٦٣٠٠٠ طن من سفن الحلفاء ، و ٥٠٠٠٠ طن من السفن التجارية ، وتزويد قوات المحور بمعلومات ثمينة عن الحركات المتوقعة للقوافل البحرية خلال مضيق «**جبل طارق**» .

ما يزال اختراق الحدود الساحلية شائعا . سواحل جناحى حلف «**الناتو**» الشمالية والجنوبية عرضة للاختراق لأنها طويلة ومن الصعب الدفاع عنها . وفى الوقت نفسه ، يتعين على الذين يحاولون اختراقها ، ألا يتجنبوا عيون حراس السواحل وحدهم ، وإنما ـ أيضا ـ موجات الرادار التى لا تخطئ ، والتى تغطى مساحات واسعة من سطح البحر ، وتحد من محاولات إبرار الضفادع البشرية وزوارق المجاديف ، من الغواصات ، أو إنزال رجال المظلات من الطائرات .

معظم الدول ذات العسكرية المتميزة ، تستخدم قوات بحرية خاصة ، لتنفيذ مهام التجسس ، والاستطلاع ، وغارات التخريب . وتعمد بعضها إلى إنكار وجود مثل هذه الوحدات ضمن جيشها . لبريطانيا ـ مثلا ـ فرقة زوارق خاصة ، أدت وحداتها خلال الحرب العالمية الثانية مهام استطلاع ساحلية وغارات على طول سواحل أوروبا والشرق الأقصى . وخلال العشرين سنة التالية ، قامت وحدات

الزوارق الخاصة بمهام استطلاع وتجسس ضد شواطئ الصين ، أثناء الحرب الكورية ، ونفذت عمليات ضد التمرد فى شبة جزيرة الملايو ، ودعمت الجيش البريطانى فى بورنيو ، وساعدت «**المناوير**» فى عدن . واعترافا بالمستوى الرفيع الذى وصلت إليه ، أطلق عليها فى عام ١٩٧٧م اسم «**فرقة الزوارق الخاصة**» . وانتشرت فى شمال أيرلندا ، تقوم مقام حرس السواحل فى حالة السلم . وكانت أول طلائع جيش بريطانيا على سواحل «**جورجيا**» الجنوبية أثناء الحملة على «**فوكلاند**» ، وزودت الأسطول المغير على الأرجنتين ذاتها بالمعلومات الضرورية .



غواصة إيطالية صغيرة تسع رجلين استخدمت في الحرب العالمية الثانية

يبلغ عدد أفراد «**فرقة الزوارق الخاصة**» ١٥٠ عضوا ، ينقسمون إلى هيئة قيادة وثلاث سرايا عمليات . وهناك قسم مستخلص من رتب احتياطى البحرية الملكية ، يبلغ عدد أفراده ٥٠ عضوا ، تم اختيارهم بدقة وفق معايير بدنية وذهنية صارمة ، قبل أن يخضعوا لتدريبات شاقة .

★ السباحة والغوص

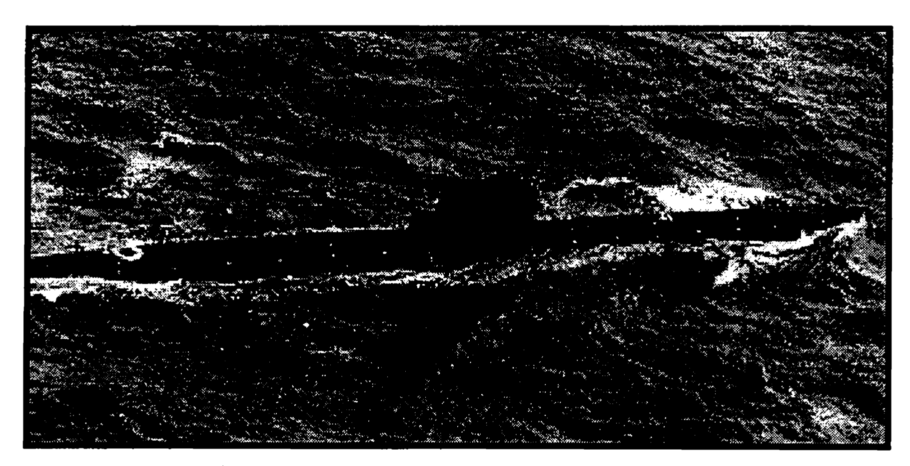
التجسس بالزوارق لا غنى له عن السباحة والغوص . **لفرنسا** تاريخ طويل مع السباحة والغوص سرا والتسلل إلى شواطئ الأعداء . خصصت لهذه المهمة «**المناوير ذوى القبعات الخضراء**» . وهؤلاء تدربوا على أعمال الحرب البرمائية ، والوصول إلى الشواطئ خلسة في صمت ، لمسح واستكشاف مناطق رسو السفن المغيرة ، كما تستخدم الفرقة الأجنبية للمظلات أيضا سباحين سريين ، يتدربون على الهبوط بالمظلات فى البر والبحر ، واستخدام الزوارق الصغيرة .

وتفخر **إيطاليا** بفرقة مماثلة ، طالما أشاعت الدمار بين وحدات الأسطول البحرى البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط ، خلال الحرب العالمية الثانية . تربض الفرقة الإيطالية فى قاعدة بميناء «**فاريجنانو**» قرب «**لاسبيريا**» على الساحل الشمالى الغربى ، ويشرف عليها رئيس أركان حرب البحرية الإيطالية . وتنقسم إلى خمس وحدات وتتكون قوتها الضاربة من ٢٠٠ رجل ، مقسمين إلى مجموعات يتراوح عدد المجموعة بين ٢ـ١٢ جندى .

وفى أول يناير ١٩٦٢م أنشأت البحرية **الأمريكية** فرقة مشابهة مستقلة قادرة على تنفيذ العمليات المضادة للتمرد ، فى السر والعلن ، برا . وبحرا . وجوا . وسميت «**فرق التدمير تحت الماء**» وقد استخدمت فى استكشاف مواقع رسو البرمائيات فى «**جرينادا**» ، وحرب الخليج . وفى البحث عن القارة المفقودة «أطلانطا» .

بلغ العدوان السوفيتى على المياة الإقليمية السويدية القمة عام ١٩٨٤م حيث أعلنت السويد عن أكثر من ٢٠ حادث تعدى . وفى العام التالى تحسنت قدرات السويد فى مواجهة حرب الغواصات ، وكثفت نشاطها الإعلامى على المستوى العالمى ضد تطفل الغواصات ، فتناقصت العمليات السوفيتية ، لكنها بالغت فى التخفى .

لم تنجح البحرية السويدية ـ ولو مرة واحدة ـ فى إرغام غواصة سوفيتية على الصعود فوق سطح الماء ، رغم تجريدها حملات عنيفة ضد الغواصات المهاجمة . وفى ٢٤ فبراير ١٩٩٠م وقع حادث استمر عدة أيام . طاردت مجموعة من صيادى الغواصات السويدية غواصة أجنبية مجهولة فى مياه أرخبيل جنوب شرق «ستوكهولم» . فجرت ألغام الأعماق ، وألقت القنابل المضادة للغواصات من طائرة هيليكوبتر ، دون جدوى .



الغواصة «ويسكي ـ٢» من طراز التي جنحت قرب «كاريسكرونا»

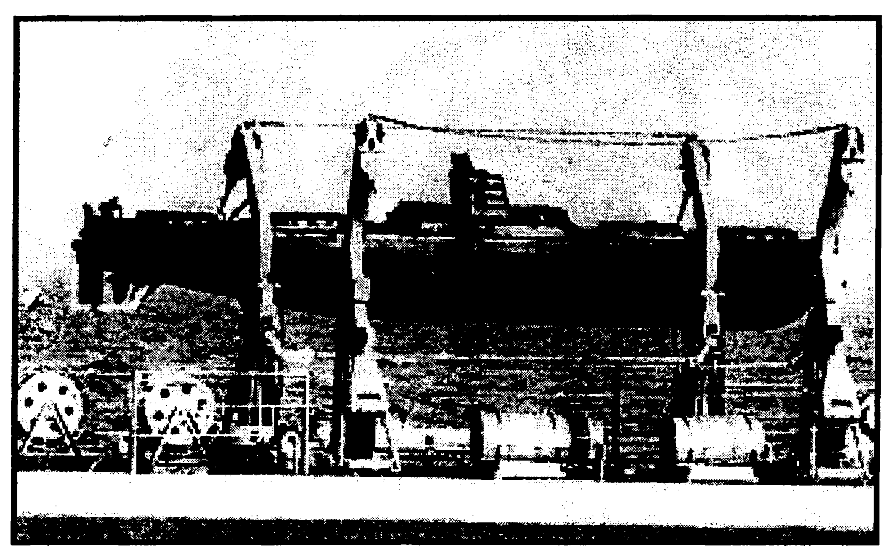
وكانت الغواصة السوفيتية «**ويسكى ـ٢**» قد جنحت فى أكتوبر ١٩٨١م إلى الشاطئ قرب قاعدة «**كاريسكرونا**» البحرية السويدية ، واعتذر السوفييت مبررين المخالفة بخطأ ملاحى . لكن السلطات السويدية لم تقتنع ، خصوصا وأن تواجد الغواصة تزامن مع اختبار طوربيد جديد فى الموقع . وأثار الحادث انتباه العالم ، حينما اتضح أن الغواصة كانت تحمل أسلحة ومتفجرات نووية . ولما أطلقت السويد سراح أربع فرق بحرية سرية خاصة ، ملحقة بأساطيلها الأربعة فى : بحر الشمال ، وبحر البلطيق ، والبحر الأسود ، والمحيط الهادى . تتكون كل منها من : هيئة قيادة ، وبحارة عاديين ، ومجموعة غواصات ، وثلاث سرايا من الضفادع البشرية ، وكتيبة جنود مظلات ، ومجموعة رجال إشارة .

★ التجربة السويدية

والمعروف أن الفرق الروسية تجسست فى مياه السويد بغواصات تقليدية ، مسحت بها المناطق الرئيسية الهامة . وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتى لم يعد قائما ، إلا أن روسيا لم تجد صعوبة فى فرض وصايتها على عدد من مواقع جاسوسيتها ، ومن ثم تواصل عملياتها الاستخبارية ولو على أضيق نطاق والمرجح أن يكون نشاطها خلال الثمانينات قد انصب على إيجاد مرابض خفية قرب أراضى السويد لإيواء غواصاتها الذرية .

فى أكتوبر ١٩٨٢م أغار السوفييت على قاعدة سويدية بعدد من الغواصات ، من بينهما ثلاثة مركبات صغيرة من الزاحفات على الأعماق، لم تكن السلطات

السويدية تعرف طرازها . وأثناء العملية نفسها دخلت غواصة صغيرة ميناء «ستوكهولم» . والمعروف أن تشغيلها يقتضى حملها على سفينة وإنزالها قرب موقع العملية . وذكرت جريدة «**البرافدا**» فى منتصف السبعينات أن هذه المركبة تستخدم فى عمليات إنقاذ الغواصة ، وعادت إلى الاتحاد السوفيتى عبر بحر البلطيق ، وقدم قائدها إلى محكمة عسكرية ، وأدين بالإهمال ، فحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات.



الغواصة الزاحفة الصغيرة علي ظهر السفينة الأم ، كما صورها الأسطول السويدي عام ١٩٨٠م

★ سفن التجسس

ظلت وما تزال أساطيل العالمين الشرقى والغربى تجوب المحيطات ، تناور ، وتؤدى تدريباتها ، بينما سفن التجسس تراقب وتتنصت . شغل الاتحاد السوفيتى حوالى ٤٠ سفينة تجسس . خفض الروس عددها بعد تفكك الاتحاد . ونادرا ما وقعت لوحداتها حوادث ذات بال . أما الولايات المتحدة الأمريكية فلم يوفقها الحظ كثيرا فى أسطول استخباراتها ، وفقدت خلال عام واحد (٦٧ـ١٩٦٩) سفينتى تجسس، فى ظروف موجعة .



سفينة التجسس الأمريكي ليبرتي التي أصابتها إسرائيل أثناء حرب ١٩٦٧م وتري الإصابة علي خط الماء

حادث ليبرتى : كانت «ليبرتي» سفينة شحن قديمة ، حمولتها ١٠٠٠٠ طن ، دخلت الخدمة العسكرية ، وعـدِّلت إلى رصيف إشارة . ولما نشبت حرب عام ١٩٦٧م بين مصر وإسرائيل ، ظهرت على شواطئ سيناء ، وخدمت القوات الإسرائيلية بالتشويش على الاتصالات اللاسلكية العسكرية المصرية والتجسس عليها. لكن إسرائيل هاجمت «ليبرتى» بدون إنذار على سبيل الخطأ . معتقدة أنها سفينة مصرية ، فأغارت عليها طائرات ميراج ومستير ، وأتلفت أجهزتها الإلكترونية، ثم هاجمتـها ثلاثة زوارق طوربيد آلية ، وعدد من طائرات الهيليكوبتر ، فبلغ عدد القتلى من البحارة ٣٤ وعدد الجرحى ٧٥ وكان رد فعل العسكرية الأمريكية بطيئا، إذ طيِّـرت طائرة من طراز «**فـانتـوم ـ ٤**» من حـاملة الطائرات «أمـريكا» ، لكنهـا وصلت متأخرة جداً وبعد فوات الأوان. واعتذرت إسرائيل بأنها ظنتها سفينة تجسس مصرية ، لكن أحدا لم يصدق تلك المزاعم لأن العـلم الأمريكى كان واضحا ، ولأن المخابرات الإسرائيلية لابد علمت بوجود «ليبرتى» حيث أصيبت . وقد أثبت

حادث «ليبرتى» خطورة تعرى سفن التجسس من وسائل الدفاع ، خصوصا وأنها هدف لمن يضع المحافظة على أسراره فى مرتبة متقدمة عن الالتزام بالقانون الدولى .

حادث بوبلو : فى يناير ١٩٦٨م أكد حادث **«بوبلو»** هذه الحقيقة . و«بوبلو» سفينة تجسس أمريكية أخرى ، كانت تعمل قرب شواطئ كوريا الشمالية، حينما هاجمتها سفينة حربية كورية شمالية ، وقادتها إلى الشاطئ ، وأسرت بحارتها ، واستولت على كمية من أوراق سرية ومعدات تجسس لم يتمكن القبطان من إتلافها . ونشبت أزمة بين أمريكا وكوريا الشمالية استمرت عاما . وحتى تفوز أمريكا بإطلاق سراح بحارتها اضطرت «واشنطن» إلى الاعتراف فى ٢٣ يناير بارتكابها أنشطة تجسسية ، واعتذرت .

كانت «بوبلو» سفينة شحن عادية ، مزودة بأجهزة تنصت بالغة الحساسية. وكانت مهمتها تقديم تقارير عن اتصالات الراديو والرادار الكورية الشمالية . وتحمل «بوبلو» هوائياً قوياً يحدد مصادر إشارات الراديو ، كما تحمل جهاز رادار وجهاز لرصد إشارات الأقمار الصناعية والرد عليها ، وأجهزة هيدرفونية للتنصت تحت الماء .

بعد حادث «بوبلو» كف الأمريكيون عن استخدام سفن التجسس التقليدية وتحول الروس إلى استخدام مراكب الصيد ، واشترك الاثنان فى مباراة استراق المعلومات بغواصات التجسس تتجول فى قيعان المحيطات والبحار ، على عمق آلاف الأمتار .

استخدم السوفييت سفن صيد محّوله من طراز **«أوكيان»** إنتاج ألمانيا الشرقية ، تحمل ٣٢ ملاحا . ثم استخدموا سفنا أحدث وأكبر من طراز **«بالزام»** ، حمولة ٤٠٠٠٠طن ، تحمل ١٨٠ ملاحا . وتضاعفت بالتالى ثروة المعلومات التى كان السوفييت يحصلون عليها عن قوة حلف «الناتو» ، وتكتيكاته ، وأنشطته ، والتعاون بين الأسطول السطحى ومجموعات الغواصات . ظل عدد كبير من هذه السفن يذرع البحار تبعا لخطة منظمة يتصيد المعلومات العشوائية ، بينما أمضى عدد آخر الشهور العديدة راسيا فى محطات معينة يراقب الأهداف أثناء دخولها وخروجها من الموانى المعينة . فكانت واحدة من هذه السفن على الأقل موجودة على الساحل الغربى لإسكتلندا لمراقبة تحركات الغواصات النووية البريطانية من طراز **«بولاريس»** . ونظيرتها الأمريكية من طراز **«بوزيدون»** .



سفينة تجسس من طراز « بالزام»

★ حرب الـرادار

الرادار أحدث وسائل جمع المعلومات الملاحية البحرية والجوية فى السلم والحرب . المعلومات الجوية الدقيقة هى الأساس الضرورى لسلامة الطائرات المدنية وركابها وملاحيها فى السلم ، وسلامة الجيوش والعتاد والمدن والمواطنين والمنشآت من غارات الأعداء فى حالة الحرب .

لذا فإن المراقبة الجوية ضرورة من أهم الضرورات اللازمة لعملية الملاحة نفسها ، وعملية إرشاد الطيارين أثناء الطيران ، من قبل المطارات ، ومحطات المراقبة الأرضية المدنية والعسكرية . وعلاوة على ما يتوافر بالطائرات من أجهزة رصد المعلومات ذات النظم الإلكترونية ، التى تزداد تطوراً يوماً بعد يوم ، تواصل محطات المراقبة الأرضية إرشادها وتحذيرها بما تمده بها من معلومات دقيقة ، تستقيها من أجهزة رادار قادرة على كشف حالات تعجز عن اكتشافها أجهزة الرصد الموجودة فى الطائرات مهما بلغ حجمها .

★ الرادار ثلاثى الأبعاد

للحصول على هذا النوع من المعلومات . صمم نوعان من معدات رادار متكاملة ، احتاجت إلى إنشاء قواعد عديدة باهظة التكاليف ، لمراقبة جميع الطائرات على مختلف الارتفاعات ، بحيث تنتشر تلك القواعد وتغطى كل محطة مراقبة قطاعا محدود المساحة والمجال ، بقدر كفاءة الرادار .

وخلال النصف الثانى من القرن العشرين ، جرت أبحاث عديدة فى مختلف الدول الصناعية المتفوقة تكنولوجيا ، فاستحدثت أجهزة أكثر تقدما ، تتقصى وجود الطائرة ، وتحدد بعدها ، وتقيس ارتفاعها ، وتحدد طرازها فى نفس الوقت . وسمى هذا الجهاز «**بالرادار ثلاثى الأبعاد**» وتم تطوير أنواع عديدة من هذا الجهاز، حتى تم التوصل إلى إنتاج نوع يعطى قياسا مباشرا لارتفاع الطائرة المعترضة أو المغيرة ، لدى كل نبض رادارى ، فيتولى جهاز خاص قياس ذبذبة الإشارة التى يطلقها الرادار نحو الطائرة الغريبة ، فتصطدم بها الذبذبة ، ثم تعود منها ، مما يتيح قياسا مباشرا لارتفاعها . وقد استخدمت نفس النظرية فى تضليل رادار العدو وصواريخه .

هذا ، وتحمل بعض الطائرات أجهزة رادار معقدة ، لاستطلاع أراضى العدو من ارتفاعات شاهقة . ويمتاز رادار الطائرة بطلاقة قدراته فلا تعوقه كثرة الوهاد والنجاد، ولا ارتفاعات الجبال . وعلى سبيل المثال : تستطيع الطائرة البريطانية من طراز «**غرود**» استكشاف الطائرات المغيرة على ارتفاعات منخفضة .

★ الرصد البحرى

وفى ميدان جمع المعلومات البحرية ، تختلف اهتمامات الملاح فى زمنى السلم والحرب كما تختلف اهتماماته عن اهتمامات الجيولوجى ، وعالم الأحياء ، وعالم الطبيعة . الملاح يهتم فى زمن السلم باتجاه التيارات على سطح البحر وظواهر طبيعية أخرى تتعلق بالرياح والأنواء والضباب ، وفى زمن الحرب يهتم باستطلاع هوية وحجم ونوع السفن والطائرات فى مجال الاستكشاف . ومسافة البعد عنها ، وربما قياس سرعتها ومعرفة اتجاهها . والجيولوجى يدرس تحركات قاع البحر . وعالم الأحياء يجرى أبحاثا عن نشاطات الكائنات الصغيرة ، ويهتم بمعرفة البيئات الحيوانية ومواسم تكاثر وهجرة الحيوانات البحرية وعالم الطبيعة يهتم بظواهر كثيرة منها المد والجزر .

فى سبيل الحصول على تلك المعلومات استخدمت أجهزة كثيرة متنوعة ، تجمعها من فوق سطح الماء ، ومن الهواء ، ومن الأعماق . لكن هذه المعلومات لم تعد كافية فى هذا العصر ، خاصة إذا نشبت حرب . فقد ازدحمت البحار والمحيطات بآلاف السفن والغواصات ، وأساطيل الصيد ، ومراكب البحث العلمى ،

خاصة وأن الإنسان أصبح ينشد من البحر مآرب أخرى متعددة ، تختلف باختلاف الظروف والأهداف ، فضلا عن ضخامة حجم السفن الحديثة ، وارتفاع تكلفتها ، وقيمة ما تحمله من معدات أو بضائع ، وكثرة ما تحمله من أنفس ، مما يدعو إلى الأخذ بوسائل سلامة أفضل ، ومما أدى إلى تطوير أجهزة ومعدات متنوعة الأغراض تعمل تلقائيا فى استقبال وتسجيل وإرسال المعلومات لاسلكيا .



أقمار التجسس

أطلق الأمريكيون أول قمر تجسس صناعى إلى الفضاء عام ١٩٦١م ضمن برنامج صواريخ وأقمار الملاحظة «**ساموس**» . أطلقوها تدور حول الأرض حاملة أجهزة تسجيل صوتية وفوتوغرافية قوية بالغة الحساسية . وكانت الأفلام وأشرطة التسجيل تلقى بانتظام فى المحيط الهادى بواسطة المظلات ، حيث يلتقطها موظفو وكالة الأمن القومى «**ناسا**» .

سمى آخر أقمار «ساموس» من هذا النوع باسم «**الطائر الكبير**» ، وبلغ طوله أكثر من ١٦ مترا ، وعرضه أكثر من ثلاثة أمتار ، ويؤدى أعماله فى ارتفاع ١٦٠ كيلو مترا عن الأرض . ويقال إن كاميراته من القوة بحيث تستطيع تصوير ما يقرأه رجل فى صحيفة أثناء سيرة فى الطريق ، كما أنه مجهز بمعدات استماع تستطيع تسجيل المحادثات التليفونية الجارية على الأرض .

★ الصاروخ سكور

بدأت قصة الأقمار الصناعية بالصاروخ «**سكور**» فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٨م حين نقلت إذاعات العالم أول رسالة صوتية عبر قمر صناعى . كانت الرسالة تقول : «بفضل التقدم العلمى العظيم ، يصلكم صوتى عبر القمر الصناعى ، الذى يدور فى الفضاء الخارجى» .

كان المتحدث «**دوايت إيزنهاور**» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق آنذاك. ولم يكن حديثه مباشرا منقولا فى التو واللحظة ، وإنما مسجلا على شريط وضع فى صاروخ انطلق ليدور فى الفضاء الخارجى . ولم يكن الصاروخ «سكور» هو الأول من نوعه ، فقد سبقه سبعة صواريخ تجريبية . أما أول صاروخ فهو «**سبوتنك ـ ١**» ، الذى أطلق فى أكتوبر عام ١٩٥٧م ، لكن أهمية «سكور» ترجع إلى أنه قام بأول ممارسة فعلية لإثبات إمكانية الاتصالات اللاسلكية بواسطة الأقمار الصناعية.

وهنا عادت الذكرى بالعالم إلى الروائى العلمى «**آرث كلارك**» ، صاحب فكرة المحطات الفضائية ، والذى ضمنها إحدى قصصه التى نشرها عام ١٩٤٥م . وقال

فيها إن مستقبل الاتصالات اللاسلكية الفورية بين الناس فى مختلف أقطار العالم ، وخاصة فيما يتعلق بالبث التليفزيونى ، يتوقف على تنفيذ فكرة الأقمار الصناعية ، والمعروف أن التليفزيون يستعمل موجات ذات ذبذبات عالية جداً . هذه الذبذبات محدودة بالنسبة لعملية ربط أنحاء الكرة الأرضية ، لذا فإن الاتصالات بين الأماكن البعيدة عن طريق التليفزيون ، تحتاج إلى محطات لإعادة بث هذه الذبذبات لتتمكن من إرسال الإشارات عبر الأفق إلى المحطات التالية .

والغريب أن أحدا لم يسمع أو يقرأ عن عالم سبق الكاتب القصاص «آرثر كلارك» فى القول بأن الإشارة التى تتولد من محطة الإعادة الفضائية أو القمر الصناعى ، تستطيع القيام بهذه الوظيفة ، وتستطيع تغطية مساحة نصف الكرة الأرضية ، وأن ثلاثة من هذه الأقمار الصناعية تستطيع تغطية كل الكرة الأرضية .

لا ندرى كيف توصل «آرثر كلارك» إلى هذا الأساس العلمى الرائد ، لهذا الإنجاز العلمى الرائع ، الذى يغمر سكان عالم اليوم بفوائده فى السلم ويخدم دنيا المخابرات سلما وحربا .

ليكن صدق حدس ، أو استبصارا ، فآرثر ليس مهندسا ولا عالم تكنولوجيا . غير أن الصاروخ «سكور» جعل حدسه حقيقة واقعة . وبعدها بثلاث سنوات تم التوصل إلى خطوة أكثر تطورا ، عندما أطلق القمر الصناعى **«ايكو»** أى الصدى .

★ كورير وتلستار وغيرهما

يشبه هذا القمر الصناعى إلى حد كبير بالونا ضخماً عاكساً ، يصل قطره إلى حوالى ٣٠ مترا ، ومهمته هى التقاط الإشارات اللاسلكية المرسلة إليه من محطة على سطح الأرض ، ثم إعادة توجيهها إلى محطة الالتقاط المطلوبة فى مكان آخر أو أمكنة أخرى .

وتحققت خطوة تالية أكثر تطورا ، بإطلاق القمر الصناعى **«كورير ـ بى ـ ١»** فى السنة نفسها. ويعتبر أول قمر صناعى يتصف بالنشاط والفاعلية من حيث إعادة تحويل الإشارات ، حيث كان يستقبل المعلومات اللاسلكية ، ويقوم بتخزينها ، ثم يعيد إرسالها إلى المحطات الأرضية التى تقع ضمن نطاق عمله . وكان باستطاعته استقبال وتخزين حوالى ٦٨٠٠٠ كلمة فى الدقيقة.

وحتى هذه اللحظة لم يكن حلم الروائى قد اكتمل تحقيقه ، لأن توقعاته كانت قد جاوزت نقل الكلمة إلى نقل الصورة التليفزيونية . لكن الحلم بدأ يتحقق بإطلاق أول جرم تليفزيونى ، فى يوليو ١٩٦٢م ، بإطلاق «تلستار ـ ١» إلى الفضاء الخارجى . ودخل الإنسان عصراً جديداً ، عندما أمكن بواسطة التلستار إرسال صورة من أمريكا إلى أوروبا ، وسجل التاريخ يوم ١١ يوليو ١٩٦٢م مدخلا لعصر الاتصال التلقائى المصور . وبعد شهر واحد تم نقل برنامج خاص بواسطة التلستار ، ورأى سكان أوروبا على شاشاتهم الصغيرة أحداثا تقع فى الولايات المتحدة الأمريكية على الطبيعة وقت حدوثها مباشرة .

والملاحظ أن كل الأقمار الصناعية التى تحدثنا عنها ، كانت قد أطلقت لتدور فى مدارات حول الأرض منخفضة ، حتى تظل فى مجالات فوق المحطات الأرضية التى تزودها بالمعلومات . ورأى العلماء أنه لو أمكن وضع القمر الصناعى فى الفضاء الخارجى ، فى مدار حول خط الاستواء ـ بحيث يدور باتجاه الشرق ـ على ارتفاع ٢٢٣٠٠ ميل فوق سطح الأرض ، لاستطاع فى هذه الحالة أن يدور حول الأرض بنفس السرعة التى يدور بها كوكبنا ، وحينئذ يبدو كأنه ثابت فى الفضاء الخارجى . وبدأ العلماء فى تنفيذ هذه الفكرة ، فكان أن أطلقوا عام ١٩٦٣م القمر الصناعى «**المتزامن**» أو «**المتوافق**» ، واسموه «**ساينكم**» ، واتخذ له مدارا فوق المحيط الهندى .

★ إيرلى بيرد وانتلستات

لم تكن هذه النتيجة منتهى طموح علماء الفضاء واستخداماته . فطاقة تلك الأقمار كانت محدودة لا تعمل على مدار الساعة كما يشتهون . فواصلوا جهودهم حتى أطلقوا فى عام ١٩٦٥م القمر الصناعى «**إيرلى بيرد**» فى مدار خارجى فوق المحيط الأطلسى . وكان هذا بداية استخدام الجرم تليفزيونيا طوال الوقت ، كما أمكن استخدامه فى تبادل المكالمات الهاتفية ، والتواصل البرقى على مسافات أكثر من ٣٠٠٠ ميل ، واستطاع «إيرلى بيرد» أن يوصل أكثر من ٢٤٠ مكالمة تليفونية فى وقت واحد ، إلى جانب دورة تليفزيونية واحدة .

بعد فترة قصيرة من إطلاق «**إيرلى بيرد**» أو «**انتلستات ـ ١**» ، أطلق الاتحاد السوفيتى «**مولينيا**» ليغطى الاتصالات مدة ١٢ ساعة يومياً أثناء دورانه فى مدار

بيضاوى حول الكرة الأرضية . وتلت ذلك مرحلة أكثر تطورا ، فقد أدخل العلماء تعديلات على الأقمار الصناعية ، مكنتها من تنظيم المكالمات الهاتفية والإشارات اللاسلكية من الأرض وإليها ، بالإضافة إلى تشغيل أكثر من قناة تليفزيونية، وعلى هذا النحو صنعوا «انتلستات ـ ١» ، وأطلقوه فى أكتوبر ١٩٦٦م ، وألحقوا به ثلاثة أقمار فى عام ١٩٦٧م .

وفى هذه الفترة ما بين عامى ١٩٦٧ـ١٩٧٠ دخلت تحسينات مدهشة على «انتلستات» ، وأطلقت خمسة أقمار من «**انتلستات ـ٣**» فى مدارات متوافقة فوق المحيطين الأطلسى والباسفيكى .ومن الطبيعى أن يصاحب هذا التطور تغييرا فى حجم الأقمار الصناعية يتناسب مع تزايد مهماتها ومع التقدم التكنولوجى . وأغلب الظن أن تغير حجمها سيظل فى زيادة مستمرة ، ومن ثم يزداد وزنها ، وتزداد طاقتها العملية .

★ القمر إيرتس

وفى يوليو ١٩٧٢م تم إطلاق القمر الصناعى «**إيرتس ـ١**» وتركز الهدف الأساسى من تصميمه وأمثاله على التجسس . ويتكون هذا القمر من :

* أنيتن لاستقبال التعليمات من الأرض .
* جهاز تعديل زاوية سير القمر .
* صفائح لتحويل الطاقة الشمسية إلى كهرباء .
* أنتينان لإرسال المعلومات إلى الأرض .
* أداة تكييف الضوء للعدسات والعين المجردة.
* أنتين جمع المعلومات .
* آلة تصوير إلكترونية .

وللقمر الصناعى «**إيرتس**» قاعدة اتصال فى مركز «**ناسا**» لأبحاث الفضاء فى «**ماريلاند**» بالولايات المتحدة الأمريكية . وله أهداف ثانوية حققها بنجاح، منها تقدير تكنولوجيا موارد الكرة الأرضية ، واستكشاف منابع ومواطن الثروة الطبيعية فى الكرة الأرضية ، وقياس قيمتها . وقد جمع هذا القمر خلال عام واحد معلومات عن البيئة الأرضية ، يعجز الخبراء والمنقبون عن جمعها خلال قرن من

الزمان بالطرق العادية .

من بين هذه المعلومات ما يتعلق بالزراعة والتشجير ، والثروات البحرية ، والظواهر الجغرافية ، ومصادر المياه ، ومناطق تلوث البيئة ، وغير ذلك من الحقائق التى دعت العلماء من مختلف الأجناس لتعديل بعض نظرياتهم .

ويرجع الفضل فى نجاح «إيرتس» إلى عدسات طيفية متعددة الاتجاهات مركبة على آلـة تصوير سريعة ، تستطيع التقاط سلسلة من الصور الفوتوغرافية ، لشريط كامل من وجه الأرض ، عرضه ١١٤ ميلا ، على طول مدارها المحيط . والعدسات ذات مصافٍ ضوئية : زرقاء ، وحمراء ، وتحت الحمراء ، تصور من قرب ومن بعد، ثم تجرى مقارنة للتمييز بين مختلف الصور ، للحصول على حقائق مؤكدة .

فمثلا : حيث توجد المحاصيل الزراعية وحدها على سطح الأرض ، تظهر فى الصورة واضحة بلون واحد ، أما إذا كانت الأرض تكتنز طبقات من معدن معين تحت المزروعات فإن اللون يختلف .

ويقوم القمر الصناعى «إيرتس» بخزن معلوماته وصوره ، ثم يرسلها إلى قرابة ١٤٠ محطة استقبال على الأرض ، بطريقة أتوماتيكية ، حيث يجرى ترجمتها وتحليلها وتسجيل معلوماتها ، أما المعلومات العسكرية فتستقبلها محطات البنتاجون، وتعاملها المخابرات المركزية معاملة خاصة . وتدخل مهمتها المعلومات الخاصة بتحركات الجيوش والأساطيل والأسلحة ومخازن الذخيرة والمعدات .

★ تحديد مناطق التلوث

بطريق الصدفة سجل القمر «إيرتس» صورة مصنع ورق فى نيويورك وأدى تحليلها إلى إقامة قضية ـ هى الأولى من نوعها ـ ضد أصحاب أحد مصانع الورق فى مدينة نيويورك . رفعتها الحكومة بدعوى تلويث بحيرة **«شامبلين»** . وكان دليل الإدانة صورة أرسلها القمر الصناعى ، أكد التفتيش صحتها .

ويشير أرشيف الصور التى التقطها القمر «إيرتس» إلى مئات الشواطئ البحرية فى مختلف أنحاء العالم ، التى تتسرب إليها مخلفات المجارى ، ونفايات المصانع ، وكشفت الصور التى التقطت من قرب ، ما يصيب مجارى الأنهار من تلوث بأسباب بشرية أو صناعية ، مما يشكل خطرا على مياه الشرب والرى على السواء .

وهكذا وجد العلماء فى «إيرتس» وظيفة لا تقل قيمة عن الأغراض الأساسية التى صمم من أجلها ، وهى التجسس .

★ اكتشاف الآفات الزراعية

استطاعت أمريكا بالأقمار الصناعية أن تقرأ أراضى القارات كما لو كانت صفحات كتاب مفتوح : قواعد الصواريخ السوفيتية ذات الرؤوس النووية ، **وثغرة الدفرسوار** عام ١٩٧٣م ، ومواقع الحشود والتجمعات العراقية خلال أزمة الخليج ، وغير ذلك .

وفى ميدان الزراعة استطاع «إيرتس» تحذير المزارعين مما يوشك أن يحل بمحاصيلهم من إصابات وآفات زراعية ، ذلك لأن صور المحاصيل الزراعية المريضة تظهر بلون مغاير للون المحاصيل السليمة ، عندما يتم تصويرها بالأشعة تحت الحمراء ، وهكذا يمكن تحذير المزارعين فى وقت مبكر ، لاتخاذ اللازم لمكافحة الآفات حتى قبل أن يشاهدوها بأعينهم .

ويمسح القمر الصناعى كمية الماء التى تغطى ٧٥٪ من وجه الأرض . يحدد أنواعها ، ونسب تركيبها ، ودرجة ملوحتها وعذوبتها ، وتكوين الثلج ، وعمق طبقاته ، والعوامل التى تعزل الملح عن مياه مصبات الأنهار . لذلك أهميته القصوى لرصد مخزون الأرض من المياه الصالحة للشرب ، وللملاحة ، والصيد ، ومختلف الأنشطة ، ويدرس برنامج «إيرتس» الأنهار المتجمدة ، والمناطق القطبية المغطاة بالجليد ، ومعرفة إيرادها من الماء .

★ كريس بويسى جاسوس الاقمار

وكان من الطبيعى أن تتبادل كل من أمريكا وروسيا التجسس على بعضهما البعض فى مجال صناعة الأقمار الصناعية وحصادها من المعلومات ، خاصة بعد أن تقدمت هذه الصناعة فى أمريكا تقدما مذهلا ، ووصفت أقمارها الصناعية بأنها عيون أمريكا التى ترقب أرجاء الأرض ليل نهار ، وتلتقط ما يدور داخل الدول ، وما تتبادله من رسائل بين بعضها البعض . وكان جهاز المخابرات الأمريكية يستخدمها فى جمع المعلومات على النحو الذى أسلفنا ، ويحتفظ بها فى ملفات خاصة ، تحت حراسة مشددة ، فى مبنى حصين .

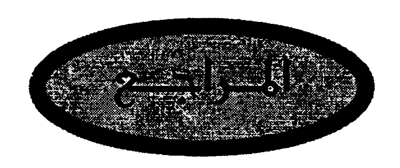
فى مطعم هذا المبنى اشتغل شاب فقير اسمه «**كريس بويسى**» ، كان قد أنهى دراسته الثانوية وعجز عن مواصل دراسته الجامعية . فهام على وجهه يتقلب فى أعمال كثيرة وضيعة ، حتى ساعده أحد أقاربه فى الالتحاق بذاك المطعم . لم يكن الاشتغال بها سهلا نظرا لحساسيتها من الناحية الأمنية . وكان لابد له من المرور بتدريبات واختبارات اجتازها «بويسى» قبل أن يلتحق بالعمل عام ١٩٧٤م .

وما أن استقرت قدماه فى العمل بمطعم المبنى ، حتى استطاع عن طريق معارفه أن يلحق صديق طفولته وصباه «**دولتن لى**» بوظيفة فى مكتب استعلامات المبنى . ولم يمض وقت طويل ، حتى تعرف الصديقان «بويسى» و «لى» على تفاصيل المبنى الخطير ، وما يكتنزه من أسرار ، ودور الأقمار الصناعية فى التقاط المعلومات، ومصير هذه المعلومات ، وإجراءات الأمن لتحصينها ، وغير ذلك مما يسيل له لعاب المخابرات السوفيتية . وكانت ثلاث سنوات كافية ليعرفا كل شاردة وواردة بالمبنى .

ونصب عملاء المخابرات السوفيتية شباكهم حول «بويسى» ، وتمكن أحد العملاء الروس من تجنيده للعمل لحساب الاتحاد السوفيتى ، إذ كان متعطشا للمال . يحلم بالتخلص من الفقر إلى غير رجعة . وكذا كان حال صديقه «لى» ، فكان لقاؤهما مع العميل الروسى فى فينا عام ١٩٧٧م ، حيث حصلا على التعليمات اللازمة ، كما تدربا على عمليات تفادى أجهزة الحراسة الحديثة ، وكاميرات دوائرها التليفزيونية ، وتدربا كذلك على تصوير الوثائق ، واستخدام أجهزة الإرسال بالشفرة ، والكتابة بالحبر السرى . وتم الاتفاق على مكان وزمان اللقاءات التالية ، وكيفية تسليم المعلومات واستلام الأجر .

نجح الجاسوسان الصديقان فى اقتحام كل الصعوبات التى أحيطت بها الأسرار فى ذلك المبنى ، وتسللا عدة مرات إلى أماكن حفظ المعلومات ، وصوراها ثم نقلاها للسوفييت . غير أن عام ١٩٧٧م لم ينتهِ قبل أن يضبطهما أحد الحراس ، ويحرمهما من الأوزة التى تبيض الذهب .

اعترف الصديقان أثناء محاكمتهما بأنهما حصلا على صور آلاف المستندات خلال فترة قصيرة . وقضت المحكمة بسجنهما مدى الحياة ، وأودع كل منهما فى سجن منفصل عن زميله .



المراجع

* جـواسـيس غـيروا مجـرى الـتاريـخ ـ تأليف : نـور صـــالح

* الجـاسوسـية بـين الوقـاية والـعلاج ـ تأليف : أحمـــد هـاني

* Anotomy Of Spying - By Ronald Seth .

* Timespan Spies - Tim Healy .

* Espronage - Mark Flayd .

* War Of Wits - Ladislas Jarago .

* The Jnvisible Government - David Wise .

* Spies - Arnist Volkman .

* Spy - Richard Deacon - Nigel West .

الفهرس

رقم الإيداع : ٤٩٧٢ / ٩٧
977-277-100-4